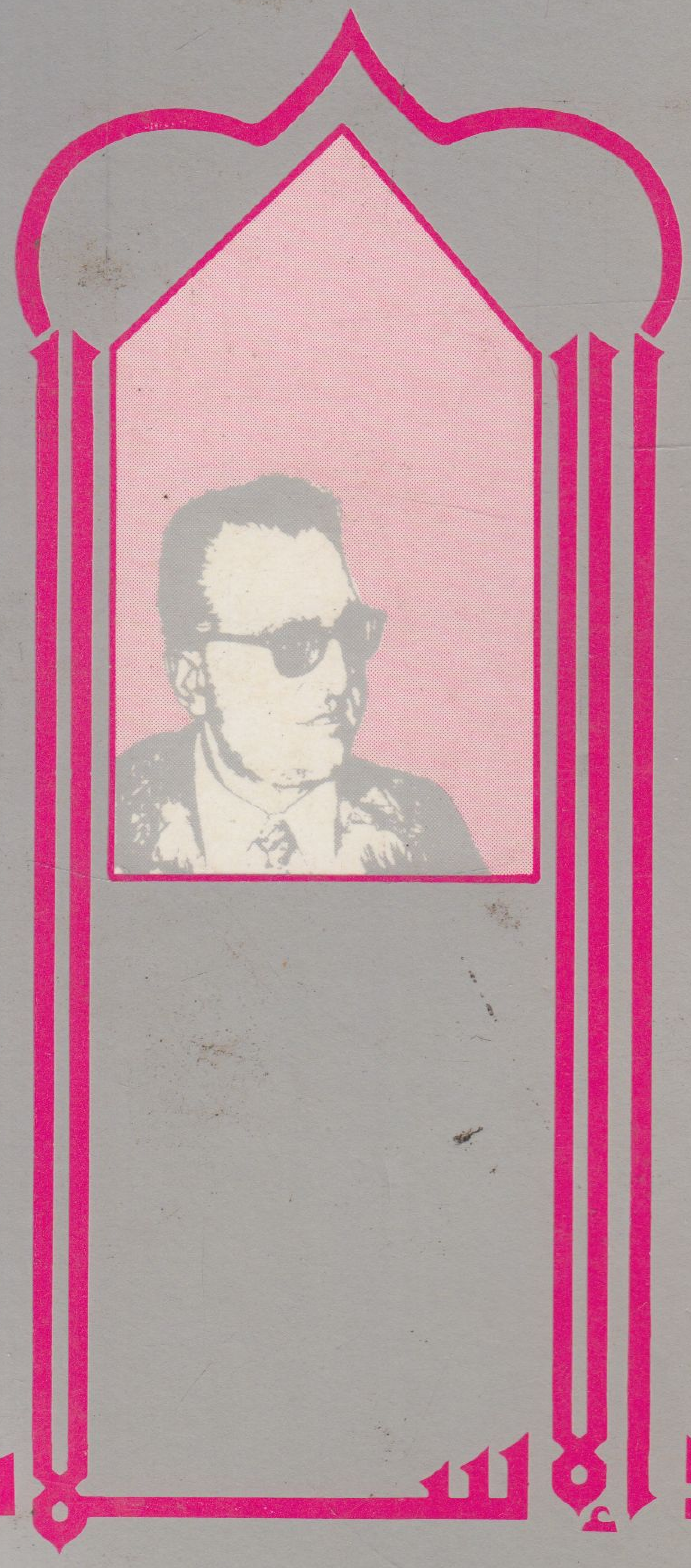
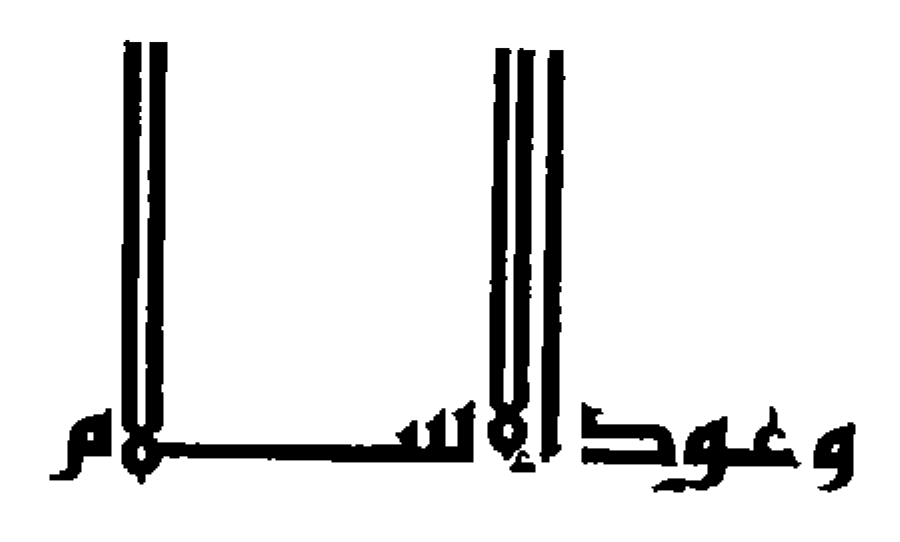
روجيه غارودي



وعود الإسلام




وعود الإسلام

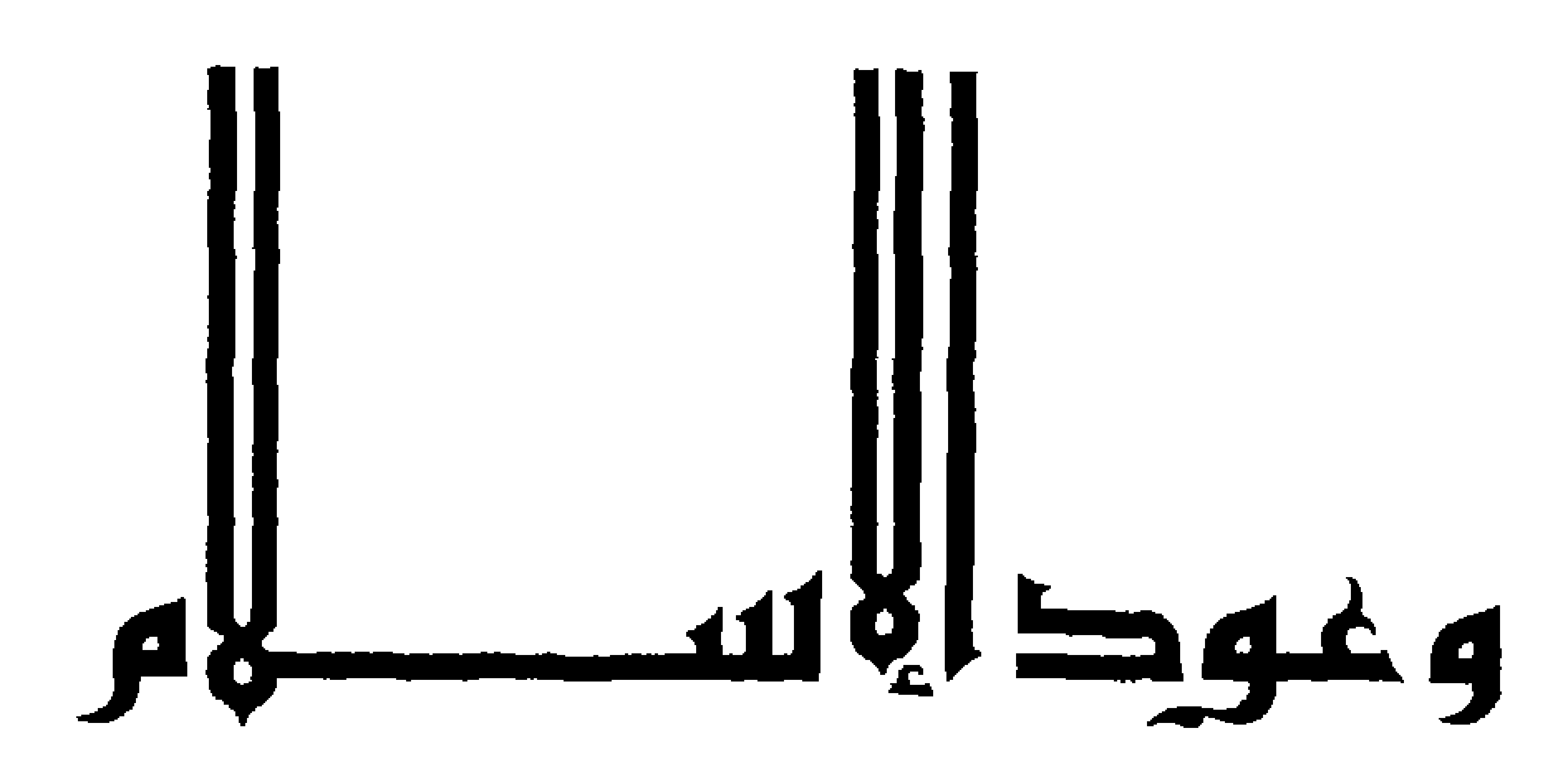
الطبعة الأولى

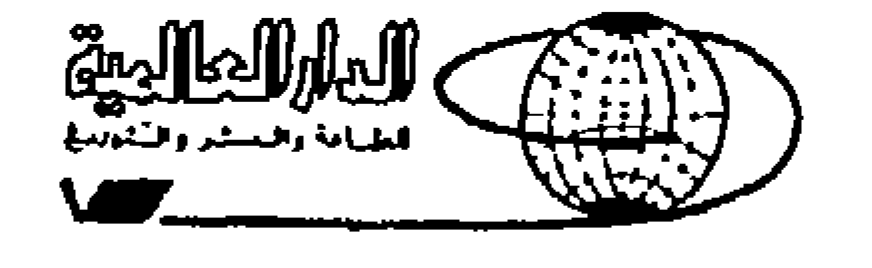
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع

بناية الكومودور سنتر - الحمراء -
لبنان - بيروت - ص ب ١١٣/٦٣٨١
تلفون ٣٤٩٧١٧

رُوجيه غَارودي





بسم الله الرحمن الرحيم

المُقدّمة

بقلم القاضي الجعفري
لمدينة صيدا
السيد محمد حسن الأمين

الكتاب الذي بين أيدينا ليس بحثاً فكريا في جانب من جوانب الاسلام .. وهو ليس كتاب دعاية للاسلام .. كما انه لا يضيف جديداً كلياً لمعرفتنا الاسلامية في الحقول التي تطرق اليها من فلسفة وتصوف واقتصاد وفن وسواها من المواضيع .. التي دلف الكاتب من خلالها الى الاسلام .

ان أهمية هذا الكتاب تكمن في كونه (شهادة) قد يكون الاسلام بذاته غنياً عنها بوصفه ديناً يعتقد معتنقوه ان فيه ما يكفي لخلاص البشرية وسعادتها إذا هي اقامت حياتها على اساس من تعاليمه .

ان صمود الاسلام أمام المواجهات الكبرى التي مني فيها طيلة قرون هو بحد ذاته كافٍ لاكتشاف حقيقته الالهية وبالتالي أصالة تعاليمه واتساعها واستجابتها لمتطلبات الحياة الانسانية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

ولسائل هنا ان يسأل : ترى إذا كان الاسلام هو كذلك حقيقة فاين هي المرحلة التي اثمرت فيها تعاليم الاسلام مجتمعاً بشرياً على مستوى الاهداف المفترضة لهذه التعاليم .. اليس تاريخ المجتمع الاسلامي ساحة

للانحرافات والتشوهات والصراعات التي لا يكاد يخلو منها منعطف من منعطفات هذا التاريخ . . وإذا كان الامر كذلك فماذا فعل الاسلام . . ؟ هل غيّر دوافع معتنقيه . . هل صاغ حياتهم على نمطه هل جنّب مجتمعه الصراعات والانحرافات التي اصابت المجتمعات الأخرى . . ؟!

لسائل ان يقول ذلك . . وله ان يفتح امامنا ملف التاريخ ويضع امامنا الشواهد والادلة وما اكثرها في صفحات هذا التاريخ وعلى حواشيه .

ان تاريخ المسلمين هو حقاً صورة صادقة عن المسلمين . . وهي في اكثر جوانبها تجلياتٌ للانحراف عن الاسلام نهجاً واسلوباً وطريقة تصور . . اما جوانبها المشرقة التي تلتمع بين الحين والآخر فانها كانت انعكاساً لملامسة الاسلام حياة معتنقيه في التصور والسلوك ملامسة رقيقة لا تلبث ان تنقطع .

ليس الاسلام وصفة سحرية للمشكلة الانسانية . . ان التورط بمثل هذا الاعتقاد هو المسؤول عن نكوص الكثيرين وابتعادهم وايثارهم البحث خارج الاسلام عن صيغ يقيمون عليها حياتهم وشؤون مجتمعهم وفلسفتهم للنظر في الكون والحياة والانسان .

إنهم كثيرون أولئك الذين لم يستطيعوا التمييز بين الاسلام بوصفه عقيدة وشريعة وبين الاسلام بوصفه مجموعة أفكار وثقافات هي في حقيقتها إفراز بشري ولدتها عقول وأمزجة بشرية أتيح لها أن تمارس مع الاسلام فكانت تعبيراً عن مدى قدرتها على التفاعل مع هذه العقيدة وليس تعبيراً عن العقيدة نفسها .

إن أي نشاط انساني باتجاه التفاعل مع الاسلام من شأنه أن يقدم ـ بالنتيجة ـ تصوراتٍ وآفاقاً بل صيغاً وحلولاً لمشاكل الانسان

والمجتمع . . . ولكن هذه التصورات والصيغ تبقى مفتوحة لمزيد من الجهد والتفاعل الأعمق . وكلما ازداد الاستعداد البشري للأخذ بطروحات الاسلام ، تنفتح أمامه ـ آفاق جديدة تدفعه إلى الايغال في (التسامي) ويصبح (المطلق) هدفاً للتجربة وحافزاً لها في آن .

إن دعوة العقل إلى التفكير ورؤية الآيات في الكون والانسان التي يوجهها القرآن (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) تكشف لنا بوضوح عن دور الارادة البشرية في تحقيق الأهداف التي رسمها الاسلام للمسيرة الانسانية . وما لم يتوجه الانسان توجهاً حقيقياً وجاداً نحو التفاعل مع العقيدة وبذل الجهد في تحويلها إلى صيغٍ حياتية فإن العقيدة الاسلامية المجردة وحدها لا تقدم شيئاً من الأهداف المرجوة .

إن العقيدة الاسلامية غير عاجزة عن تحويل الاسلام إلى صيغة حياة فضلى ، إذا حمل المسلم مسؤولية هذا التحول . والدليل على ذلك هو أن الربع الأخير من قرننا الحالي ، يشهد ـ بعد مرور أربعة عشر قرناً على انبثاق الاسلام وبعد التحولات الجذرية في حياة الانسان ـ صحوة إسلامية يبدي الاسلام من خلالها ـ عقيدةً وتشريعاً ـ إمكانيةً هائلةً لاستيعاب التطلعات البعيدة للشعوب المستضعفة من جهة ، وحل المعضلة الانسانية الناجمة عن التقدم المادي لشعوب العالم المتقدم من جهة أخرى .

وإذن فنحن لسنا في مجال الحديث عن كتاب المفكر الفرنسي روجيه غارودي (وعود الاسلام) بوصفه كتاباً يكشف حقيقة جديدة مفادها ان الاسلام مازال مؤهلاً لصياغة حياة معتنقية صياغة فريدة ومتفوقة في معترك العقائد والاديولوجيات التي يزدحم بها عالمنا المعاصر .

إن هذه الحقيقة هي جزء ـ بل أساس في عقيدة المسلمين . . وهي عند المؤلف اكتشاف جديد أتاحته عناية المؤلف في موضوع حوار الحضارات بعد ان اكتشف تشوه ثقافة الغرب وافتقارها الى عنصر الثقافة الاسلامية .

ان غـارودي في كتابـه (وعود الاسـلام) يقدم الاسـلام بوصفـه احد المتحـاورين في مشـروع حـوار الحضـارات . . ولكنـه في الـوقت نفسـه يكتشف في الاسلام ترابطاً وتماسكاً تظهر تجلياته في كل جـوانب الحضارة الاسلامية . . ويؤكد على هذا الترابط في بحثه حول الفن الاسلامي حين ينتهي الى القول (اني ـ شخصياً ـ حينما ارى روائع الفن الاسلامي احس بأن رجلاً واحداً قد قام ببنائها مدفوعاً بايمانه بإله واحد) .

ان هذا الاحساس بتكاملية الاسلام وإدراكه للتشويه الذي الحقه المنطق الاستعماري به لم يذهب بالمؤلف الى اكثر من الدعوة الى اعتماد الاسـلام كعنصر أساسي في حوار الحضارات .

وظل جارودي خلال كتابـه يتحدث عما يسميه (بـالتماميـة الضارة) مشيـراً الى (ان من التعميم الضار الخـاطىء ادعاء إمكـانيـة استخـلاص تشريع صالح لجميع الازمنة والشعوب من نص منزل) . . فهـو بالـرغم من اطلاعه الواسع على الاسلام وإدراكه له بوصفه تتمياً لسلسلة الانبياء (الابراهيميين) وخاتمة لهم فـانه ظـل بعيداً عن التسليم بـأن التشريـع الاسلامي جاء ليلبي حاجة الانسان في كل زمان ومكان . . وفي رأينـا ان مصـدر هذا الـرأي عند المؤلف هـو النقص في الاطلاع عـلى نهج العلماء المسلمين في استنباط الاحكام الشرعية من القرآن والسنة والعقل . .

ان النظر الى القرآن ككتاب في التشريع والطلب اليه ان يتضمن حكماً شرعياً في كل واقعة من وقـائع الحيـاة نظر لا يستنـد الى معرفـة صحيحة بالقرآن الكريم الذي لم يكن كتاب تشريـع الا بالمقـدار الذي تسمـح فيه طبيعته ككتاب هداية يقدم بعض التشريعات ولكنه يقـدم الاسس العامـة لأقامة مجتمع التوحيد وينيط موضوع بيان الحكم الشرعي بالرسول الذي لا ينطق عن الهوى .

اما في العصور التي تلت عصر الرسول والتي جدت الحاجة فيها الى بيان احكام لم ترد في القرآن الكريم ولم ترد على لسان الرسول فان العلماء المسلمين وضعوا الاصول والقواعد المستندة الى القرآن والسنن النبوية لاستخلاص الاحكام الشرعية التي طرأت .

إن مناطق الفراغ في التشريع الاسلامي ليست مناطق فراغ في المطلق ولكنها محكومة بالأصول العامة ومرتبطة بالمبادىء الاساسية بحيث لا يتم ملؤها الا استناداً لهذه الاصول والمبادىء هذه العملية التي تتولاها حركة الاجتهاد المستمرة .

وفي رأينا لو أن المؤلف توفر على اطلاع كافٍ ووافٍ لحركة الاجتهاد وعنايتها في اقامة الهيكلية التشريعية للاسلام في كل العصور وتحت كل الظروف لتوفرت له القناعة الكاملة بإمكانية استخلاص تشريع صالح لجميع الازمنة والشعوب من النص المنزل .

ان فكرة (التمامية الضارة) التي اوردها المؤلف كانت تقف وراء نقده للسلطة في جمهورية ايران الاسلامية فهو بالرغم من اعجابه بالانجاز التاريخي العظيم الذي حققته الثورة الاسلامية وبالرغم منْ توفره على ادراك الابعاد الخاصة لطبيعة الثورة الاسلامية وتميزها عن الثورات المشهورة في هذا العصر وتفوقها عليها (في هذه المقارنة - بين الثورة الاسلامية من جهة والثورة الفرنسية والروسية من جهة اخرى يقدم روجيه غارودي اعمق وأصفى معالم نظريته حول الحضارة الاسلامية) بالرغم من ذلك فانه ظل اسير فكرة التمامية الضارة ومضى الى ادانة النهج الذي تتبعه قيادة الثورة في التطبيق الكامل للشريعة الاسلامية والى ما سماه بتسلط رجال الدين على السلطة . .

ان أي تطبيق جزئي للاسلام لن ينسجم مع تكاملية الاسلام وسوف يؤدي تدريجاً الى تقليص مساحة التطبيق تماماً كما حصل في العصور السابقة

التي تحول الاسلام فيها الى قناع يتستر وراءه الحكام والطواغيت بينما هم يقيمون سلطتهم الحقيقية على اساس من اهوائهم واطماعهم بعيداً عن منطق الاسلام وقواعده وتشريعاته .

كذلك فان امساك علماء الدين في الجمهورية الاسلامية بالسلطة والإضطلاع بقيادة مرافقها التشريعية والدستورية والاشراف على تطبيق الشريعة الاسلامية في الحياة العامة فانه يتضمن رداً على الانحرافات التي حصلت في العصور الاسلامية المتقدمة والمتأخرة حيث تم الفصل تدريجاً بين ما هو زمني وبين ما هو ديني الأمر الذي ادى الى انحسار الاسلام نهائياً عن قيادة المرافق الاساسية في المجتمع الاسلامي واقتصر حضور الاسلام على المرافق الروتينية وفي المجالات الثانوية في حياة المجتمع .

ان الضمانة الوحيدة لنهوض المؤسسات القانونية والسياسية والاجتماعية على أسس اسلامية واضحة هي قيادة علماء الدين لهذه المؤسسات . . وهذا أمر لا علاقة له بالذكريات السلبية عن مرحلة تسلط رجال الكنيسة ـ في القرون الوسطى ـ على هذه المؤسسات في الغرب المسيحي الأمر الذي ترجح ان روجيه غارودي ـ ككل غربي ـ مايزال يعيش تأثيراتها ويصعب عليه التخلص من هذه التأثيرات وهو يواجه حالة مختلفة ومحكومة لمعايير مغايرة تماماً لما هو سائد في الغرب ولما هي عليه المسيحية .

استطاع روجيه غارودي ان يلامس قضايا جوهرية وأن يكشف خللاً عظيماً في حضارة الغرب حين تخلت عمداً عن الاسلام كمصدر من مصادر ثقافتها كما اعتبر ان غياب عنصر التسامي الذي توفره ثقافة الاسلام مفقود في مسيرة الغرب المادية والآيلة ـ بسبب ذلك ـ الى انهيار وشيك ومحتم بسبب التقدم العلمي والتقني غير المحكوم بعنصر (التسامي) و (روح الجماعة) وكشف التشويه المتعمد الذي الحقه المنطق الاستعماري الغربي بالاسلام وان هذا التشويه كان من ضمن الحملة الاستعمارية المسعورة

التي لا تعترف بالثقافات الخاصة للشعوب وتعمل على تدميرها لصالح سيادة نظرية الغرب التي هي في حقيقتها عَرَضٌ مشوه .

ان جهود المؤلف ـ كما هو واضح ـ تنصب على الوسيلة التي يمكن من خلالها انقاذ الحضارة الغربية من الدمار المحقق ويقترح لذلك أسلوب حوار الحضارات ويتوقف هذه الوقفة الطويلة المعجبة ، عند الاسلام ، بوصفه اغناها اطلاقاً بتقديم عناصر الانقاذ وروح التسامي والجماعة الكفيلين بوضع المسيرة الانسانية في عصرنا وجهاً لوجه أمام مشروع حضارة عالمية بل في قلب هذا المشروع الذي كان ومايزال يشكل حلماً انسانياً وهدفاً تاريخياً للدعوات الكبرى .

ان اهمية هذا الكتاب بالاضافة الى كونه شهادة غربية ومبرأة ـ ربما لأول مرَّة ـ من التعصب والغطرسة التي هي طابع النزعة الغربية ومزاجها في التعامل مع كل ما هو ليس بغربي ، وخصوصاً مع الاسلام . . وبالاضافة الى موقع مؤلفه كواحد من القادة التاريخيين للفكر الماركسي وأحد احزابه الرئيسية في الغرب (وهو الحزب الشيوعي الفرنسي) بالاضافة الى ذلك فان اهمية الكتاب تكمن في غنى الاسئلة وتنوعها التي يثيرها حول الاسلام الامر الذي يخدم اهداف الصحوة الاسلامية الراهنة ويقدم لها فرصة أفضل لتقدم ذاتها كمشروع بديل وحلّ كامل لأزمة الانسان المعاصر .

بقيت كلمة لا بد من قولها في نهاية المقدمة تتعلق بترجمة الكتاب .

عندما شرع القاضي المفكر الاستاذ مهدي زغيب في نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية فان شروعه كان في غمرة من اهتمامه بتقديم دراسات مقارنة بين التشريع الاسلامي والقوانين الوضعية والتي كان يسعى من خلالها على التركيز على ان الاختلاف الحاصل بين التشريعات الوضعية والتشريعات الاسلامية يعود في حقيقته الى اختلاف كل من الفلسفتين والمبدأين اللتين تشكلان المنطلق الحقيقي لهذين التشريعيين . . وقد جاء

كتاب (وعود الاسلام) ليعزز الاتجاه الذي يعمل عليه المترجم ووجد في تقديمه للمثقفين العرب والمسلمين عوناً على كشف الـزيف الذي رسخته الحملات الثقافية الاستعمارية في عقول كثير من المثقفين الـذين أصبحوا بقصـد أو بدون قصـد ادوات لترويـج مفاهيم الغـرب وثقافتـه التسلطية المعادية لكل تطلعات الشعوب المستضعفة ـ والاسلامية خاصة ـ في اقامـة مشروع تحررها واستقلالها على أساس من عقيدتها الذاتية وثقافتها الخاصة وتجربتها المميزة .

ان ترجمة هذا الكتاب جهـد جليل عـلى طريق مـواجهة التغـريب وفي سبيـل اعادة الاعتبـار الى الذات الاسـلامية التي مـازالت تعاني تـأثيرات الهزائم التي اصابتها على يد الحملات المسعورة التي قادها الغرب ضد امتنا الاسلامية ونجح في جعل علاقتها بالاسلام هامشية .

واخيراً لا بد من شكر المترجم للجهود المضنية التي بذلها في سبيل اخراج هذه الترجمة الأمينة الحية للنص الفرنسي مستعيناً على ذلك بعلمه الواسع في اللغتين الفرنسية والعربية وثقافة محيطة وشاملة بالموضوعـات التي عالجهـا المؤلف سائلين المولى ان يأخذ بيده ويوفقه الى مزيد من العطاء والخدمة في سبيله انه اكرم مسؤول .

صيدا ١٤ ـ ربيع الأول ـ ١٤٠٤ هـ
محمد حسن الأمين

مدخل

التراث الثالث

الغـرب عَرَضٌ(*) ،وثقـافتـهُ شـوهـاء . إنّها انعـزلت عن أبعـاد جوهرية .

وهي تدّعي ، منذ قرونٍ تحديدَ ذاتها بتـراثٍ مزدوج : اغـريقي ـ رومـاني ، ويهـودي ـ نصـراني . وقـد ظهـرت أسـطورة « المعجـزة الاغريقية » ، في الغرب ، لأنه اجتثَّ عن عمـدٍ ، جذورَ حضـارته الشرقية :

ـ تراث آسيا الصغرى أو أيونيا (Ionie)[1] ، المقاطعة الفارسية :

التي رأى النـور فيهـا أكـابـر الملهمـين ـ من طـاليس[2] الى

(*) عرض : أي طارئةٌ وليست أصيلة .

(١) إيونيا : القسم الأوسط شاطىء آسيا الصغرى الغربي (تـركيا اليـوم) الذي سكنـه الاغريق ، وأنشأوا فيه حضارة ازدهرت في القرن السابع قبل الميلاد .

(٢) طاليس : رياضي وفيلسوف اغريقي مولود في Millet ـ إيونيا ، ونقل أسس الهندسـة من مصر إلى إيونيا ، في القرن السابع قبل الميلاد .

كزنيوفون[٣] ، ومن فيثاغور[٤] الى هرقليط[٥] ـ الذين تنسموا من ايران نفحة زرواستريه[٦] ، ومن الهند الفيدية[٧] والاوبانيشاد[٨] القريبةِ جدا ـ وبصورةٍ عجيبة ـ من افلاطون[٩] .

ـ تراث مصر وعشرات قرونها وعلومها ورؤاها التي سحرت فيثاغور وأفلاطون ، وتلاقح الحضارات فيها :

ان الثقافة انبعثت في الاسكندرية ، في الوقت الذي ماتت فيه الثقافة في روما . وفي الاسكندرية (ملتقى تيارات الفكر والحياة في الشرق ، آنذاك) وُلِدَتْ رياضياتُ اقليدس[١٠] وفلاكة

---

(٣) **كزنيوفون** : كاتب وفيلسوف وسياسي اغريقي . كان تلميذ سقراط .

(٤) **فيثاغور** : فيلسوف ورياضي إغريقي ، مشهور .

(٥) **هرقليط** : فيلسوف اغريقي ، من القرن السادس قبل الميلاد .

(٦) **زرواسترية** : نسبة زرواستر مصلح المزدية ـ كان يشدد على التسامي . عاش القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد . والمزدية ديانة ثنائية إيرانية تؤمن بصراع الخير والشر ، وبأن الانتصار ، أخيراً ، سيكون للخير . لها كتابٌ اسمه أفِسْتَا .

(٧) **الفيدية** : نسبة لفيدا وهو اسم لأربعة كتب هندية مكتوبة بالسنسكريتية تتضمن صلواتٍ وأناشيد .

(٨) **أوبانيشاد** : كتب هندية مقدسة أتت متممةً للفيدا .

(٩) **أفلاطون** : فيلسوف اغريقي ولد في القرن الخامس قبل الميلاد . تلميذ سقراط كتب ثلاثين حواراً من بينها Phèdre, Banqunt و Parménide التي سيأتي ذكرها فيما بعد . وهو صاحب نظرية المثل الشهيرة .

(١٠) **إقليدس** : فيلسوف اغريقي . ولد في القرن الثالث قبل الميلاد . مؤسس مدرسة ميفار .

بطليموس[١١] ، واشراقاتُ فيلون[١٢] وأفلوطين[١٣] وأوريجين[١٤] وكليمان الاسكندري[١٥] .

ولم يكن باستطاعة الاستثنائية[١٦] الإغريقية ان تنشأ لو لم يتجاهلِ الغربُ ويرفُضْ ـ طوعاً ـ أصول وفروع اثينا بركليس[١٧] .

ـ وان أسطورة الاستثنائية العبرية قد غُذِّيَتْ بذات الجهالات العمديةِ وذات الرفوض :

ففي قلب الهلال الخصيب الممتد من بلاد ما بين النهرين التي جاء منها ابراهيم الى مصر التي أعاد منها موسى ذراريَّ الأسباط ، كيف يمكن التصور بأن الثقافة اليهودية ، مثل الثقافة الاغريقية في أوج ازدهارها ، لم تحمل ـ من الأسر البابلي المزدوج ومن الفراعنة ـ النُسْغَ

---

(١١) بطليموس : فلكي وجغرافي ورياضي إغريقي ، ولد في القرن الثاني بعد الميلاد ومؤلف « المجسطي » .

(١٢) فيلون : فيلسوف إغريقي ، من أصل يهودي ، ولد في الاسكندرية وعاصر المسيح .

(١٣) أفلوطين : فيلسوف ولد في مصر سنة ٢٠٣ ، وعلّم في روما الأفلاطونية الجديدة .

(١٤) أوريجين : لاهوتي ، أوّلَ الكتاب المقدس ، ولد في الاسكندرية ، في أواخر القرن الثاني بعد الميلاد .

(١٥) كليمان : أب الكنيسة الاغريقية ، فيلسوفٌ نصراني ، ولد في منتصف القرن الثاني بعد الميلاد .

(١٦) الاستثنائية : Exceptionnalisme ، وتعني التميز عن الآخرين . بإحدى المميزات .

(١٧) بركليس : رئيس دولة أثينا سنة ٤٦١ قبل الميلاد . ازدهرت الدولة في عهده . وجمع حوله الفنانين .

المستمدّ من الثقافات الكلدانية العميقة التي انبثقت عنها ملحمةُ جلجامش[١٨] وعلمُ المجوس[١٩] وتنبؤ زرواستر ، أو من الثقافة المصرية ووحدانية اخناتون[٢٠] الذي وَرَدَ نشيدُه للشمس ، بحذافيره ، في مزمور داود رقم ١٠٤ ؟

وهل أن النصرانية ، التي لم تأت من أوروبا ـ القارة الوحيدة في العالم التي لم تولد فيها ، قط ، ديانةٌ كبيرة ـ بل أتت من آسيا ونَمَتْ ، أوَّلَ الأمر ، في انطاكية الاسيوية ، والاسكندرية الافريقية ، غيرُ مدينةٍ للعبرانية المزدوجةِ الجذور ولينابيع الثقافة الاغريقية الشرقية التي طَعَّمَهَا بها القديس بولس[٢١] ؟

أوليست مدينةً ـ أيضاً لأولئك المُبَشِّرين البوذيين الذين أرسلهم الامبراطورُ الهندي أسوكا[٢٢] ، Açoka ، الى فلسطين ، قبل ولادة يسوع الناصري بسبعة قرون ، والذين لا تزال أعقابُهم ، بين الجماعات الأَسِّينيَّةِ ، (Esséniens) ، تَحْمِلُ أنماطاً من سلوكٍ ورؤىً قريبة من أنماط سلوك ورؤى دير كمران[٢٤] أو إنجيل

---

(١٨) جلجامش : بطل أسطوري سومري . كان يبحث عن البقاء .

(١٩) مجوس : طبقة كهنوتية عالمة في إيران .

(٢٠) أخناتون : كنيةُ الفرعون أمينوفيس الرابع . حكم من ١٣٧٢ ـ ١٣٥٤ قبل الميلاد . وكان روحانياً .

(٢١) القديس بولس : أحد تلامذة المسيح . طاف في قبرص وآسيا الصغرى ومكدونيا اليونان . وأقام كنائس في مدنها الرئيسية .

(٢٢) أسوكا : ملك هندي بوذي (٢٧٣ ـ ٣٢٦) .

(٢٣) أسِّينية : طائفةٌ يهودية متنسكة .

(٢٤) كمران : مكان أثري قريب من الضفة الغربية من البحر الميت .

توما[٢٥] القبطي المكتشف في مصر ؟

وهل حَتْمٌ على العظمة أن تكون ابناً لأب مجهول ؟ ولماذا محو آثارِ من ولد وغذّى حضارتَنا؟ وهل نَستسلم لأسلوب الرسامين، الأردياء الذين اختاروا إغفال من سبقهم من الرسامين ، ليقنعوا أنفسهم بأنهم أصلاء ؟ أم تكون لنا موهبة (Juan gris) خوان غريس[٢٦] الناضجة الذي كان أَحَدَ أولئك الذين أحدثوا ، في فننا ، أحد اكبر التحولات العميقة ـ التكعيبية[٢٧] ـ والذي قال : « إن عظمةَ الرسَّام تتوقف على عمق الماضي الذي يَحْمِلُهُ في ذاته » ؟ والنصرانيةُ نفسُها ـ ولأنها تطمح للعمومية[٢٨] و « الكاثـوليكية »[٢٩] ، ألا ينبغي لها أن تكون المَثَل في الوفاء لجذورها الممتدةِ ، في ثقافات جميع الشعوب ، كما دعاها اليـه اللاهوتيون في حوار أبيدجان ، المنعقد في شهر ايلول سنة ١٩٧٧ ، وأظهروا فيه أن النصرانية تستطيع أن تَجِدَ ـ في الثّقافات الافريقيـة ـ تربة لا تقل خصباً عن الثقافات الاغريقية اللاتينية ؟

ولكن ، وعلى الرغم من « ان الدفق الشرقي الاول للنصرانية ، لم ينقـطع عن التدفق (عـلى يد الـراهب الكـالابـري Joechim de)

---

(٢٥) توما : قديس وأحد تلامذة المسيح الاثني عشر .

(٢٦) خوان غريس : رسام أسباني (١٨٨٧ ـ ١٩٢٧) .

(٢٧) التكعيبية : مدرسة رسم ونحت فنية حـديثة ، تمثـل الأشياء بمكعبات وغيرهـا من الأشكال الهندسية .

(٢٨) العمومية : تعريب Universalité ، الكلية أو الشمولية .

(٢٩) الكاثوليكية Catholicité ، المتطابقة مع تعاليم الكثلكة .

(flore[٣٠] الذي ربما اطّلع في سوريا ، منذ القرن الثاني عشر ، على « الفلسفة التنبؤية »[٣١] الاسلامية ، للايراني السهروردي[٣٢] ، ويد (Maître Eckhart)[٣٣] الـذي يرجـع بصـراحـةٍ ، الى الهـام ابن سينـا[٣٤] الاسـلامي ، ويــد القـديس (Français d'Assise)[٣٥] الذي عَرَفَ كيف يتفاهم مع الخليفة عبد الملك[٣٦] ، ويـد القديس (Jean de la Croix)[٣٧] الذي كانت تجربته الروحانيـة قريبـة جداً من متصوفي الاسلام) ، فإنه يبقى أن مفهوماً ضيقاً عن العمومية[٣٨]

---

(٣٠) Joachim de flore : هـو راهب متصوف من (كـالابريـا) المقاطعـة الايـطاليـة ـ (١١٣٠ ـ ١٢٠٢) .

(٣١) الفلسفة التنبئية : هي التي تعتمد على الكشف أو الوحي أو الاشـراق ، وتؤمن ببزوغ المفاجىء ، أو غير المتوقع ، وترتكز على مفهوم التسامي ، كما سنرى فيما بعد .

(٣٢) السهروردي : شهاب الدين يحيى السهروردي ، من إيران ؛ قتل في حلب بأمرٍ من صلاح الدين الأيوبي ، صاحب مذهب حكمة الإشراق .

(٣٣) Maitre Eckhart : متصـوف الماني ، أدان البـابا نـظريته الصـوفيـة . (١٢٦٠ ـ ١٣٢٧) .

(٣٤) ابن سينا : فيلسوف وطبيب إيراني (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) صاحب كتاب قانون الطب ، وعشرات المؤلفات الأخرى .

(٣٥) Francois d'Assise : فرانسوا الأسيزي ، مؤسس أخوة الفـرنسيسكان ، إيـطالي (١١٨٢ ـ ١٢٢٦) .

(٣٦) المقصود هو الكامل محمد ابن اخ صلاح الـدين الأيوبي الـذي أجرى سنـة ١٢١٩ ميلادية مناقشة دينية مع القديس فرنسيس الاسيزي المذكور ، وليس عبد الملك كـما ورد في المتن . ولعل الخطأ ناجم عن الطبع .

(٣٧) Jean de la croix : ويدعى بالعربية يوحنا الصليبي ، هـو قديس اسبـاني ، من اعظم علماء التصوف المسيحي (١٥٤٢ ـ ١٥٩١) .

(٣٨) العمومية : تعريب كلمة Universalisme وهو مذهب لا يعترف إلا بالقبول العام .

النصرانية دَفَعَ السياسةَ الكنسية الرسمية ، فَحَوَّلها الى رأس حربةٍ ، في أدمى الصراعات العسكرية ـ طيلة قرنين من حملاتٍ صليبيةٍ غير مجديةٍ ، في فلسطين ، وسبعة قرون لاستعادة اسبانيا التي استُقبل العرب فيها كمحررين ـ في القرن الثامن ـ وجعلوا من قرطبة[٣٩] مركزَ الثقافةِ الأَكثرَ اشعاعاً في اوروبا .

ان الغرب رَفَضَ ، منذ ثلاثة عشر قرناً ، هذا التراث الثالث : التراث العربي الاسلامي الذي كان باستطاعته ولا يزال ـ ليس الاصلاحَ بينه وبين حِكَمِ العالم فحسب ـ بل مساعدته على التعرف ، على الأبعاد الانسانيةِ والالٰهية التي انفصل عنها ، عندما نمّى ، أحادياً ، ارادته للسيطرة على الطبيعة والناس .

ان الاسلام ـ والغرضُ الجوهريُ من هذا المؤلف هو إظهارُ ذلك ـ لم يُكمل ويُخصب ويَنشُر أقدمَ وأرفعَ الحضاراتِ فحسب ـ كحضارة الصين والهند وفارس واليونان والاسكندرية وبيزنطة ـ بل حَمَلَ الى امبرطورياتٍ مفككةٍ وحضاراتٍ مائتةٍ ، روحَ حياةٍ جماعيةٍ جديدة ، وأعاد الى الناسِ ومجتمعاتِهم أبعادَهم الانسانيةَ والالٰهية ، من تسام وتوحّد ، كما أعاد ـ انطلاقاً من هذه العقيدة البسيطة « المتينة ـ خميرة تجديدِ العلومِ والفنون والحكمة التنبؤية والقوانين .

ان انبعاثَ الغربِ الاولَ بدأ في اسبانيا المسلمة قبل الانبعاث في ايطاليا بأربعة قرون ، وكان بإمكان هذا الانبعاث أن يكون عالمياً .

ولٰكِنْ ، وبسبب رفض الغرب التراثَ الثالثَ الذي كان

---

(٣٩) قرطبة : مدينة اسبانية فتحها العرب سنة ٧١١ ، فيها قصر الحمراء . ومسقط رأس بن رشد .

باستطاعته توحيدُ الشرق والغرب ، وانفصالٍ حَرَمَهُ ـ طيلة قـرون ـ من الإسهامِ الوافـر لجميع الثقـافات الأخـرى ، أخذت مغـامراتُ السيطرة المميتةُ فيه ، تقوده والعالم الذي يسيطرُ عليه ، نحـو نموذجٍ انتحاريٍ ، من النماءِ والحضارة .

وهكذا فإن الذي صار رمز ومبدأ التقدم، أدَّى الى أكبر رجعيةٍ لا إنسانيةٍ في التاريخ . ان الغزوات والسيطرات الكبيرة كانت دائمـاً انكفاءاتٍ كبيرة .

فعندما اكتسحت موجاتُ البدو الصحراويةُ ، حضاراتِ الدلتات (Deltas)[٤٠]الكبرى(حضارةHoang-Ho)[٤١] والهنـدوس[٤٢] ، وما بين النهرين[٤٣] ، ومصر ، لم يكن انتصارُها نتيجةَ تفوقٍ ثقافي بل نتيجةَ تفوقٍ عسكري ، تفوق الفارس على الراجل والسيفِ الحديدي على سيفـ الشَبَه .

وروما لم تَحْكُمْ اليونان وتؤسسْ امبراطوريتها ، استناداً الى ثقافتها الرفيعةِ ، بل اعتماداً على اسلحتها الثقيلة . والهون[٤٤]والمغول[٤٥]

---

(٤٠) الدلتات : مصبات الأنهر التي تشكل مثلثاً.

(٤١) **Hoang -Ho** : نهر صيني ـ ينبع من التيبيت ، ويصب في البحر الأصفر .

(٤٢) **Indus** : نهر الهندوس ، في الهند وباكستان ، يصب في بحر عمان .

(٤٣) بلاد ما بين النهرينْ : العراق حالياً ، والنهران هما الدجلة والفرات .

(٤٤) **Huns** : الهون ، بدوٌ أسيويون ، هاجموا أوروبا سنة ٤٥٠ قبل المسيح وأسسوا دولةً على نهر الدانوب . وهاجموا الامبراطورية الرومانية بقيادة أتيلا .

(٤٥) المغول : شعب اسيوي ، أشهر قواده جنكيزخان الذي هاجم واحتل شمال الصين ما بين (١٢١١ ـ ١٢٢٧) وخوارزم واذربيجان وافغانستان .

والتتـار[٤٦] الذين دمروا بقيادة (Attila)[٤٧] أتيـلا كل اوروبـا حتى بلاد الغال[٤٨] ، وأولئك الذين بنـوا ، بقيادة جنكيـز خان ، أوسـع الامبراطوريات ، بعدما هدموا حضارات الصـين وخوارزم وفـارس كلها ، والهند ، وكذلك الذين حكموا ، بقيـادة تيمورلنـك[٤٩] ، ـ وبضراوة ـ ، من الصين الى الفولغا[٥٠] ، ومن دلهي الى بغداد ، إن احداً من هؤلاء لم يحمل رسالة مُحَضِّرةً ثَرِيَّةَ المستقبل .

ان مؤرخينا سَمُّوا ـ ويحقٍ ـ هذه الاعاصيرَ « الغزواتِ البربريةِ » غير أنهم ـ ويا للغرابة ـ يُبدّلون هذه التسميةَ عنـدما تكـون الغزواتُ مِنْ صُنْعِ الأوروبيين ، فيصبح اسمُها « الاكتشافاتِ الكبرى » .

أين أهرامات السبعـين الف جمجمة التي أَقـامها تيمـورلنك بعـد الاستيلاء على اصفهان ، من إبادة ملايين الهنود الاميركيين ، من قبل الفاتحين الاوروبيين المجهَّزين بالمدفعِ ، ومن تدمير افريقيا ، بإبعاد ما بين عشرة الى عشرين مليون أسود عنها ، يقابلهم مائة أو مائتا مليون ضحية (لأن مقابل كل أسـير عشر ضحـايا) ، ومن اغتيـال آسيا ، ابتـداءً من حـرب الافيـون وانتهـاءً بـالمجـاعـات التي تقتـل الهنــود

---

(٤٦) التتار : شعبٌ مغولي سماهم الروس كذلك عندما حكمـوهم من القرن ١٣ حتى القرن ١٦ .

(٤٧) أتيـلا : ملك الهون (٣٩٥ ـ ٤٥٣) الـذي انتصر عـلى أباطـرة الشرق والغـرب . وانتهت امبراطوريته ، بموته .

(٤٨) بلاد الغال : هي تقريباً فرانسا الحالية .

(٤٩) تيمورلنك : فاتح تركي ، ولد قرب سمرقند (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥) .

(٥٠) الفولغا : نهر في الاتحاد السوفياتي ، يصب في بحر قزوين .

بالملايين ، بسبب نُظُمِ المِلكيةِ والضرائبِ المفروضةِ عليهم ، ومن قنبلةِ هيروشيما الى حربِ فيتنام ؟

أي اسم يعطى ، اليوم ، لهذا الشكل من الهيمنة الغربية على العالم الذي صرف سنة ١٩٨٠/ ٤٥٠/ مليار دولار على التسلح ، وسبّب ، في السنة ذاتها ، موتَ خمسين مليون من البشر في العالم الثالث ، جَرّاءَ التبادلاتِ المتفاوتة ؟

ان الغربَ يُعتَبرُ ، خلال الف سنةٍ مضت ، أكبرَ مجرمٍ في التاريخ ، انه اليوم وبالنظر الى سيطرته الاقتصادية والسياسية والعسكرية ـ بلا مزاحم ـ يفرضُ على العالم كلِه نموذجَه التنموي الذي يؤدي ـ في الوقت ذاته ـ الى انتحارٍ عالمي ، لأنه يُولّد تفاوتاتٍ متصاعدةً ويسلبُ المعوزين كل رجاء ، ويُنضج انتفاضاتِ اليأسِ ؛ في الوقت الذي يضع معادلَ خمسةِ أطنانٍ من المتفجرات على رأس كل ساكنٍ في هذا الكوكب .

لقد آن لنا ان نعلم ، بأن هذا النمط الغربي الذي يقودنا الى حيواتٍ دون هدف ، كما يقودنا الى الموتِ ، يُحاولُ تبريرَ نفسه بنموذجٍ ثقافةٍ ومَذْهبٍ يحملُ في ذاتِه بذورَ موته :

ـ مفهومٌ شاذ عن الطبيعة التي نعتبرها ملكاً لنا ، ومن حقنا أن نستعملَها ونسيء هذا الاستعمالَ (كما يُعرِّف القانون الروماني هذه الملكية) الى درجةٍ أننا لا نرى فيها ـ أي في الطبيعة ـ سوى خزانٍ للثروات الطبيعيةِ ومزبلةٍ لفضلاتنا .

بهذه الطريقة ، وبالاستنفادِ الطائشِ للمواردِ الطبيعية ، وبالتلويثِ ، نَهدِمُ بيئتنا الحياتية الخاصة ، ونصبح ـ بلا وعي منّا ـ

أنصار قانونِ القصور الحراري[٥١] قانونِ تبديد الطاقة ، ونماءِ الفوضى .

ومفهومٌ عن العلاقات الانسانية ، مبنيٌّ على فردانية[٥٢] جامحة ، لا يولّد سوى مجتمعاتِ تنافسِ الاسواقِ والتّصادمِ ، والعنفِ ، حيث تَستَعْبِدُ أو تَفْترسُ بعضُ الوحدات الاقتصاديةِ أو السياسية العمياءِ المستكبرةِ ، الأكثرَ ضعفاً .

مفهومٌ مؤسسٌ من المستقبل الذي سوف لا يكون سوى امتدادٍ للحاضر ونموهِ الكمويِ دون هدفٍ إنساني ولا نقضِ الهي ، أو أي شيء يتجاوز هذا الافق ؛ ليعطي معنىً لحيواتنا ويَحرِفَنا عن دروبِ الموت .

ولا بد لنظامٍ اقتصادي عالمي جديد ، من نظام ثقافيٍ عالمي جديد ، والنظامُ الثقافي الجديدُ هو الانتقالُ من الهيمنة الغربية الى توافق عام بين البشر لاعادة رسم خطة انسانية شاملة .

إن حوارَ الحضارات أصبح ضرورةً عاجلة لا سبيلَ لردها . إنه قضيةُ بقاء . لقد بلغنا حد الخطر . بل لعلنا تجاوزناه .

وأن الجدل الرئيسي الحيوي في عصرنا ، لم يعد بين رأسمالية تولّد الاستعمارات والحروب وأزمةَ حضارتنا الغربيةِ الاخيرةِ ، وبين « اشتراكيةٍ » من نموذج سوفياتي أصبح ـ باتباع ذات الاهداف الرأسمالية الغربية ـ يضطهد شعبَه الخاص ويستغل العالم الثالث ، كما أصبح شريكاً في ذات السباق على الهيمنة وأسلحة الرعب .

---

(٥١) قانون النقص الحراري : قانون يبحث في مقدار تبريد الطاقة في آلة ما .

(٥٢) فردانية : نزعة إلى التفكير بالذات وحدها .

ان البحث الرئيسي والحيوي في عصرنا يتمثل في اتهام أسطورة « التقدم والنماء » الانتحارية على الطريقة الغربية ، لأنها مذهبيةٌ تتميز بالفصل بين العلوم والتقنيات (أي اعداد الوسائل والقدرة) والحكمة (أي التفكير في غايات ومعنى حياتنا) وهي مذهبيةٌ تتميز بتمجيد فردانيةٍ تبترُ من الانسان أبعادَه الانسانية التي هي التسامي (أي الامكانية الدائمة ـ على الاقل ـ لفصل الانسان عن حتمية الحاضر والماضي وخلق مستقبل جديد) والجماعة (أي ادراك ان كلًّا منا مسؤول شخصياً عن مستقبل جميع الآخرين ، واستخدام جميع وسائل العلم والتقنيات والاقتصاد والسياسة والثقافة ، كي يتاح لكل امرأة وكل رجل وكل ولد اظهار كل غناه الانساني وكل قدرته الخلّاقة اللتين يحملهما في ذاته) .

ان مهمتنا بعد الفرص التاريخية الضائعة ، وضياعِ أبعادِ الرجلِ الغربي ، هي استئنافُ حوار حضارات الشرق والغرب ، من أجل وضْعِ حدٍ لحوار الذات الغربي الانتحاري .

ان رجالاً هم الذين صنفوا مجتمعاتنا ، منذ ستة آلاف سنة ، ولأجل رجال ، واغفلوا أو تجاهلوا مُرَكبتها الأنثوية . وان الغرب الذي يُشَكِّلُ جزءاً من البشرية هو الذي صَنَعَ التاريخ منذ قرون . وبخاصةٍ منذ ما يسمى بعصر « الانبعاث » وأهمل واحتقر أو هدم مُرَكِّبَتَهُ الشرقية .

ولذا فإن النمو الواضح في هذا المسلك ، هو نمو البؤس العالمي : **البؤس المادي للعالم الثالث والبؤس الروحي للغرب .**

والغريب ان الغربيين يسمون التقوقع ، في المفهوم الاغريقي

والـوجودَ المُجَـرَّدَ عن الحياة الـذي يعنيـه ، وفي قـوميـةِ « المـدينـةِ » الاغريقيةِ ، وفي المفهوم الروماني للملكية والسيـادة الامبراطـورية ، « انبعاثاً » ـ مستبعدين عنهم كل ما هو « آخر » لأنه « بربريٌ » مخلوقٌ للاسترقاق .

ان إدراكَ هذا النقص وإدراك ما ندين به للثقافات والحضـارات غير الغربية ، هو ، اليوم ، على ما نظن ، السبيلُ الوحيد الذي بقي مفتوحاً أمامنا خارج مأزق الموت . إن ادراك ما نحن مدينون بـه ، اليوم ، للاسلام ، ليس اختصاصَ مؤرخٍ ، ولا مفـارقةَ هـاوٍ ، او لذة حالم ، بل مهمةَ عاملٍ ملتزم مناضلٍ وصانعِ مستقبل .

لم يعـد الاسلامُ « كـافرَ » الحـروب الصليبية ، أو إرهـابي حرب التحـرير الجـزائريـة ، ولا قطعـةَ مُتحف يتفحَّصُها مستشـرقٌ بعين حشراتي ـ حضارات بناءً على « رأي الاستثنائية الغربية المسبق ، ولا ذلك الانفجارَ العلمي المدهشَ الذي عَبَّدَ الطريق لعلومنا « الحديثة » غبّ الخروج من العصر الوسيط ، أو مرحلةً « ما قبل تاريخية لها ، بـل الاسـلامُ هـو رؤيـا الله والعـالم والانسـان التي تُحـدِّدُ ، للعلوم والفنون وكلِ رجل وكل مجتمعٍ مشروعَ بناءِ عالمٍ « إلهي وإنسـاني يتضمن البُعدين الاكبرين : التسامي والجماعة .

لقد أنقذ الاسـلامُ ، في القرن السـابع الميـلادي ، امبرطـورياتٍ كبيـرةً متهاويـة . فهل يستـطيعُ اليـوم أن يحمل لنـا جوابـاً عن قلق ومشاكل الحضارة الغربية التي ظهرت ـ خلال أربعة قـرون ـ خليقةً بحفرِ قبرٍ ، على المستوى العالمي ، وقلب ملحمةٍ انسانيةٍ مبنيةٍ ـ من مليوني سنة ـ على إبداعات وتضحيات ؟

هذه هي المسألة التي يجهد هذا الكتابُ في طرحها ، اذا لم يكن في حلها ؟ .

الاسلامُ دينٌ وجماعـةٌ لا يتجزءان ، وعقيـدةٌ وشرعـةُ حياة . إن ولادته وانتشارَهُ يطرحان مسألةً نوعية :

مِنَ العبث الاكتفاءُ بالقول إنَّ العربيةَ ومكةَ والمـدينةَ ، تقـع على ملتقى طرق تجارية كبيرة وقوافل ذاهبة من الشرق الى الغرب ، ومن أوروبا والشرق الادنى الى الهند والصين ، ومن البحر المتوسط ، الى المحيط الهندي ، لأن ذلك ، قد يعني ، أنه تَمَّ ، في هـذا الملتقى ، تمازجُ ديانات وثقافات لم يكن الاسلامُ سوى محصلتها[٥٣] ومُبْلِغِها ، غير ان الأمرَ معكوسٌ تماماً ، لأن ، من مكة والمدينةِ وشبـهِ الجزيـرة العربية وصحاريها وواحاتها ، أخـذت تشعُّ ـ ولقـرونٍ عديـدة ـ على القارات الثلاث ـ من الهند حتى اسبانيا ومن آسيا الوسطى حتى قلب افـريقيا ـ عقيـدةٌ واحدة وجمـاعةٌ واحـدة انبثقت منها ثقـافـةٌ واحـدة أخصبت وجددت كل الثقافات الأخرى .

إن هذا الانتشار لا يشبه أي انتشارٍ آخر سابق (كنـزوح كُتَلٍ لا تُحصى من بـدو عمق آسيـا) ولا أي انتشـار لاحق (كغـزوات الاوروبيين الكبرى الذين كـانوا يتمتعـون بتفوق عسكـري مطلق ، تَفَوُّق المدفع والبندقية والرشـاش ، لِفَرْضِ أنفسِهم على كـلٍ من اميركا وافريقيا) والعربيةُ لم تكن ، قط ، كثيرةَ السكان ، والعربُ لم يكونوا يملكون أسلحةَ فـارس او بيزنـطة العسكريـة وتقنيتَهما ،

---

(٥٣) مُحَصِّلة : العدد ٨ هو محصلة جمع العددين ٣ + ٥ أو ١ + ٧ وهلم جرا . ويمكن أن يقال بأنها الحاصل .

ولـذا فإن الامبـراطوريـةَ لم تُبْنَ على علاقـةِ قوىً تؤمن لهـا تفوقـاً ساحقاً .

كـما لا تطبق عليهـا ، بصـورةٍ أولى ،الـواحـدةُ أو الأُخـرى من فـرضياتِ مـاركسيةٍ ، جـزئيةٍ مـاسخةٍ ، تُحـاولُ البحَث عـن محركٍ للتـاريخ ، وثـوراته وتحـولاتـه ، في جـوانب التقنيـات والعـلاقـات الاقتصادية وصراعاتِ الطبقات التي تُسببها .

إن بعثة النبي وانتصاره ، في العـربيةِ ، وتقـدمَ خلفائـه الخاطفَ الذين حكموا ـ في أقل من ثلاثة أرباع القرن بعد وفاته ـ غالبيةَ العالم المعروف حينذاك تقريباً ، مُتَعدا قطعة أوروبيةٍ خاملةٍ وصين صاعدةٍ الى ذروتها ، لا يمكن فهمها (أي البعثة والانتصار) دون التعرف في المقام الاول ، على رسالة الاسلام النوعية .

إن ترسانة التفسيرات الاقتصادية والجغرافية والسياسية والعسكرية والديبلوماسية وغيرها قاصرةٌ عن شرح ذلك ، لأن انتصارَ الاسـلام يستغلقُ على الفهم بدون فهم الاسلام كعقيدةٍ وجماعةٍ قامت على هذه العقيدة .

وحتى لو كنا غير مسلمين ، أو لم نعترف بالقرآن كتاباً منزلاً من عند الله على محمد (ﷺ) ، فانه يستحيل على المؤرخ ، أن لا يعتبرَ ظهورَ مصدرِ حياةٍ أَخَذَ يَقْلِبُ أوضاعَ العالم ، حقيقةً يتعذر ردُّها (ولـو أن هـذا الواقـع لم يدخـل في تصورات وآراء الـوضعية المسبقـة) . إن الاعترافَ بهذا الحدث الاساسي ، لا يقتضي منا إطلاقاً ، ان نتخلى عن تفسيره ، بل يقتضي ألَّا نستبعـدَ ـ قبلياً ـ هـذا البُعدَ الحيـاتي أو ذاك ، عن المجمـوعـة الإنسـانيـة التي تتـوالـد وتنمـو ـ دائـماً ـ عَبْـرَ التاريخ .

وإن الغايات تقوم بدورٍ محركٍ ، في التاريخ الانساني المحض مثلما تقوم الاسباب . فإلى جانب ازدواجيات الروح والجسد الباطلة ، والطوبيات والزهد ، والاستلابات والآمال ، خِططٌ يُعِدُّها البشُر لصُنع مستقبلهم ، هي (أي هذه الخطط) أيضاً خميرةٌ فاعلةٌ مثلُ انحرافات وحتميات الماضي التي تدفعهم ـ وعلى وجه الخصوص ـ عندما تَحُلُّ المشاريعُ والرؤى التنبئيةُ مشكلةً وتُحقِّقُ أملاً يعيش في أعماق الجماهير .

ولذا فإن كل « تاريخ مقدسٍ » يكون « نفياً للتاريخ » ، مثلما يكون العمل الفني ـ حسب مالرو[٥٤] ـ نفياً للقدر ، بمعنى أنه ظهورُ جديدٍ كليةً ، يسيرُ في اتجاه معاكسٍ لحتميات الماضي . إن الابداعَ المتواصلَ للعالمِ والانسانِ مُكَوَّنٌ من هذه الأنبثاقات وتحديات القصور الحراري وتبريد الطاقات ونمو الفوضى التي هي قانون العالم المادي وقانونُ التاريخ أيضاً ، كلما استسلم الناس لانحرافاته .

إن انبجاسَ مثلِ هذه الينابيع ، منذ ثلاثة ملايين سنة من التاريخ البشري ، هو خبرةٌ أكثر من مألوفة عن التسامي : فلو لم يكن يحدثُ مثلُ هذا الانبثاق أي ظهورُ ما لا يمكن أن يكونَ مجرد إعادةِ تنظيمِ قوى موجودةٍ سابقاً ، وما لا يكون مجردَ محصلةٍ ، لَمَا كان في العالم شعر ولا ابتكار علمي أو تقني ولا حبٌ ـ تضحيةٌ ولا ثورةٌ ، ولا ابداعُ فني ، ولا أنبياء .

ان ينبوع الحياة هذا ، أي هذا الإبداع الدائمَ ، هو الذي سمّاهُ

---

(٥٤) مالرو : هو أندري مالرو كاتب وسياسي فرنسي (١٩٠١ ـ ١٩٧١) خبرةً أكثر من عادية .

الناسِ ، منذ آلاف السنين ، اللّه وإنَّ النبيَ محمداً (ﷺ) لم يَـدَّعِ أبداً بأنه أتى بديانةٍ جديدةٍ بل أنه أتى لمتابعة واصلاح وأكمالِ عقيدةٍ أوليةٍ وجَدَ التعبيرَ المثاليّ عنها في مِلةِ ابراهيم .

ولسوف نتبعُ ـ بدوائر متراكزةٍ متسعـةٍ أكثر فـأكثر ، مثـل دوائر المسلمـين المتجهين ، في العـالم أجمع ، نحـو الكعبة المقـدسة سـاعةَ الصلاة ـ مداراتِ انتشارِ الاسلامِ المتتابعة ورسالتَهُ العالمية .

إن كلام الرسول الذي يستأنف كلامَ سلالةٍ طـويلةٍ من الأَنبياء ـ وبخـاصـةٍ ابـراهيم ومـوسى وعيسى ـ ظَهَـرَ في فتـرةٍ من انقـطاع التاريخ .

ولنبدأ بعالم مكة الصغير ، حيث تَجَابَهَ ـ في مطلع القرن السابع ـ شكلان من الحياة الاجتماعية ورؤ يا الكون : شكلُ الصحراء وشكلُ الواحة ، أي القبيلةُ والمدنيةُ .

إنَّ قبيلَة ما قبل الاسلام بُنِيَتْ على رباطِ وحدةِ الـدمِ والعائلةِ ، وليس على حيازةِ الأرض أو تكـامليةِ الخـدمات ، كـما هو الحـال في التجمعات الحضرية . وإنَّ التضامن الضروري لديمومة الحيـاة ، في الصحـراء ، لم ينشأ عن وحـدةِ الهدفِ أو عن مشـروعٍ خـارجٍ عن وجـود القبيلة ، لأن هذا الـوجـودَ نفسَـهُ ، كـان غـايتَهـا الخـاصـةَ والاخيرةَ . إنه شـرطُ الهُويـة الشخصية لكـلٍ من أعضائهـا ، دونما اخضاعِهم لتقسيم العمل الـذي تُرسَمُ خُـطوطُه الاولى لـدى تَكَوُّنِ المُدُن في الـواحـات . غـير أنَّ هــذا لا يعني ان القبيلة محكـومــة

بـالجمودية(٥٥) : فحياةُ البـدوي المتنقلِّ عبـارةٌ عن اقتـلاعٍ دائم ، وقصيدتُهُ الجاهليةُ الجميلةُ ، تبدأ دائماً بذكرى منزلٍ مهجورٍ وحنـينٍ الى الحبيبة التي عُثِرَ على آثارها ، ثم تُذَكِّرُ ـ أي القصيدة ـ بمغامرات الصحراء والعواصفِ الرمليةِ ، وتمجّدُ أخيراً جماعة القبيلة ومزاياها : الشرف والكرم والشجاعة والتضامن الذي لا يَسْتَبْعِدُ بل يَسْتَتْبِعُ تأكيدَ الذات ، في الافراح كما في الحب والتضحية بالذات .

وفي الواحات التي صـارت مدنـاً ـ بزراعتهـا وحِرَفِيِّتِهَـاْ وتجارتهـا ومِلكيتها الخاصة ومراتبها الاجتماعيـة والسياسيـة ـ نشأت ثم دالت أشكالٌ أخرى من الجماعة : اذ ان تقسيم العمل المتزايـد وتكامليـة الخـدمات ، أحـدثا روابطَ جـديدةً ومنـافساتٍ وتفـاوتاتٍ ورغبـاتٍ بالتملكِ والسلطةِ وميولاً للترف وشهواتِ السيطرة .

هذان الشكلان للجماعة ، جماعة الصحراء وجماعة الواحة ، كانا يتعايشان ويتداخلان :

ففي داخل المدينة استمرت الجماعةُ القبليةُ وخصومـاتُها . وكـان البـدو مربُّـو الجمال بحـاجة الى المـزارعين الحَضَـر . وكان للبـدوي الراعي المتنقِّلِ ـ بفضل مطاياه السريعةِ ـ تفوت حربيٌ على الفلاح والحرفي والتاجر المرتبطين بالأرض ، فكان يُؤمِّنُ نوعاً من الحماية ، على القوافل التجارية ، مقابلَ أتاوةٍ ، أو كان يتقاضى جزيةً ـ عوضاً عنها ـ بطريق الغزو . وفي جنوبيِّ شبه الجزيرة العربية ، فقط ـ حيث تصدّ الجبالُ الرياحَ الموسميةَ الآتيةَ من المحيط الهندي ـ كانت الامطارُ المنتظمةُ تساعد على أغنى زراعاتِ الحبوبِ والفواكه والخضار والكرمة

(٥٥) الجمودية : تعريب On moblisme ، الفرنسية ، أي مقاومة كل تجديد .

والزهور ، كما ان تطوُّر الري وفنِّ العمارةِ وتنظيمِ المدنِ والملاحةِ ، جعل من هذه البقعة الجنوبية العربية منطقةً مزدهرةً تفتحت فيها حضارةٌ رفيعة متصلةٌ بالهند وافريقيا من ناحية ، وبالبحر الأبيض المتوسط ، عن طريق مصر ومن اليونان (الى سوريا وربما بآسيا الوسطى ، من ناحيةٍ أخرى . وكانت صلاتُ هذه « العربية السعيدة » كما سمَّاها القدماءُ ، مع عربِ الصحراءِ والواحاتِ ، متعددةَ الجوانبِ : إذ انهم كانوا يستعملون البدو ـ طوعاً ـ كمحاربين مرتزقةٍ لحمايةِ قوافلِهم التجارية .

في هذه العربية التي ذكرنا تَنَوُّعها الاجتماعي ، كان الاضطرابُ الروحيُ كبيراً ـ منذ مطلع القرن السابع ـ وكان الجو قلقاً مضطرباً يترقب تحولاً ضرورياً . وإن تعدُّدَ المعتقدات الدينية ، بين القبائل ، زعزع كلَّ توازنٍ بينها رغم الأَشهُرِ الحُرُمِ التي انتُهكَتْ حُرْمتُها ، بما كان يسميه مدونو الأخبارِ العرب ، حينذاك ، « حروب الفِجَار » .

ولأن الجزيرةَ العربيةَ ـ وبخاصةٍ ، مثلث مكة والمدينة والطائف في الجنوب ـ كانت ملتقى حضاراتِ التيارات التجارية ، بين أوروبا والهند والصين ، وبين بلادِ ما بين النهرين والحبشة ، فقد أسهمت في مضاعفةِ ومزجِ المعتقدات والثقافات .

وتكاثرت ، بين الديانات المحليةِ ، أشكالٌ عديدةٌ ، من الشرك مع أرواحٍ وآلهةٍ خفيةٍ ، مثل « جِن » الصحراء ومعبوداتٍ ذات شكلٍ حيوانيٍ أو انسانيٍ ، وأصنامٍ من الحجر ، أو مواقع مقدسةٍ باتت أماكنَ حجٍ تُقام فيها طقوس دينيةٌ سحريةٌ .

غير ان تطلعاً عاماً ، لاله واحد ، أو على الاقل ، الى إله فوق

سائر الآلهة ، ظهر في الحجاز ، عندما اعتُبِرَتْ ثلاثُ الٰهاتٍ بناتِ آلهٍ واحدٍ هو الله .

إن ازمـةَ الضمير التي نشـأت عن تضارب المعتقـدات ، في حين كانت فيه « شرعةُ الشرف » عند البدو تُمَثِّلُ مرجعاً خُلُقيـاً فوق هـذه الوثنيات المتنافسة ، دفعت أنـاساً للبحث عن تمـاسكٍ حيـويٍ أرفع للحياةِ وفْقَ قانونٍ وآلهٍ أوحدين ، فكان الحُنفـاءُ « الذين تخلوا عن مذهب تَعَدُّدِ الآلهة (الشرك) .

إن اصول هؤلاء الحنفاء كانت كثيرة :

كان من بينهم مُشركون قدماءُ أكثرُ تشدداً في عقيدتهم وحياتهم ، انتقلوا من عبادة آلهٍ أسمى من الآلهةِ الأُخرى ، الى عبادةِ الهٍ واحد هو الله . وآخرون في شمالي شرقي الجزيرة العربية ـ على الخصوص ـ تَمَكَّنوا من الإتصالِ بالديانات الايرانيةِ ، فَهل شعروا ـ جَـرَّاء هذا الاتصال ـ أنهمُ مجندون كحواريي زرواستر ، في معركة الخيرِ ، معركة أهورامازدا[٥٦] ، ضدّ قوى الشّرِ في العالم ؟

وكان منهم ـ خاصةً ـ أولئك الـذين يطمحـون للعودة الى عقيـدة ابراهيم الاولى ، عقيدَةِ ـ الاستسلامِ الكلي لارادة الٰـهٍ واحدٍ تفـوق وصاياهُ حكِمَنَا وأخلاقَنَا البشرية . ولم يكن بين هؤلاء يهودٌ فقط ، بل أناسٌ كانوا الى جانب الطقوسيات والخصوصيات اليهودية ، يرجعون الى المنبعِ ، ونصارى تَعبُوا من الحياة ، في جو النزاعات الدينيـة التي كانت تُسَوَّى ، غالبَ الأحيان ، بعنفِ القمع الامبراطوري أو العنفِ الثوري بين الملل .

---

(٥٦) أهورامازدا : مبدأ الخير عند الفرس القدماء .

إن الإمبراطور قسطنطين[٥٧] ، لم يجمع مُجَمَّعَ نيقية سنة ٣٢٥ م لأسبابٍ دينيةٍ بل لدوافع سياسية غايتها دعم امبراطوريته المهددة وربطها بوحدةٍ عقدية (ايديولوجية) . إن تجربةَ الحب التي عاشها يسوع الناصري ، لم تكن تجربة آله مشرعٍ ، مهيمن ومقتدر ـ كما جاء في العهد القديم ـ بل تجربةَ الهٍ صورتُهُ الانسانية هي صورةُ حبٍ إنساني غير مقتصرٍ على اثنين ، بل منفتحٍ على الغير وعلى الناس أجمعين ، إن هذه التجربة قد صيغت ، في هذا المجمع ، بلغةِ الفلسفة الاغريقية وثقافتها الغريبة كلياً عن الوحي النصراني الأساسي . إن طريقةَ الحياة الجديدة ـ التي كشف عنها يسوع الناصري والتي كانت سهلةَ المنال ، بالنسبة للجماهير الشعبية ، والتي قَدَّمت كثيرا من « الشواهد » البطولية والشهداء ، في مواجهة الطغيان الروماني ، ـ أصبحت ، في رطانةِ ارسطو (أي في اللغة الاغريقية) ، تجريداً غير مفهومٍ من الجمهور المُشاهِدِ وضحيةَ نقاشاتٍ « بيزنطيةٍ » بين طوائفَ دينيةٍ متناحرة .

إن « البشارة » الأنجيل ، وهو يكشفُ كيف يُمكنُ لحياة إنسانٍ أن تعاش ـ بكمالٍ مطلق ـ في الحب حتى التضحية بالنفس على الصليب ، إن هذا الانجيل الخالق لحياةٍ جديدةٍ هي حياةُ « البعث » ، كان يَغْرَقُ في هراءِ « لغةٍ » ميتةٍ لا يحتاج اليها أحدٌ للتعبير عن تجربةِ حُبِّه التي مَرَّ بها ، أو عن عقيدته . ومنذئذٍ أَخَذَ

---

(٥٧) قسطنطين : هو المعروف بقسطنطين الكبير ، (٢٧٤ ـ ٣٣٧) أمبراطور روما الذي نقل العاصمة منها إلى القسطنطينية . وهو الذي أعلن حرية الدين في ميلانو سنة ٣١٣ .

النصارى يتحارمون(*) ويتقاتلون ـ طيلة قرون ـ بسبب صيغٍ بعيدةٍ عن الانجيل » : هل الأبنُ « مشاركٌ في الجوهر » للأب ؟

ونشأت ، عن الأَجوبة المعطاة لهذه المسألةِ الباطلةِ ، في الفلسفة الاغريقية ، هرطقاتٌ(٥٨) عديدةٌ لا صلة لها بالرسالة النصرانية .

وفيما كان ، في زمن النبي (ﷺ) ، كل نصراني هرطوقياً بنظر النصراني الآخر (على الأقل في مستوى رؤساء طوائف كنائس الاسكندرية والقسطنطينية وانطاكية وروما وغيرها) ، وكانت المناقشاتُ محسومةً نهائياً ، من قبل امبراطورٍ محترفِ سياسةٍ ، كان الاتجاهُ السائدُ في الشرق اتجاه « النساطرة »(٥٩) (أَتباعِ نسطوريوس بطريرك القسطنطينية سنة ٤٢٨ ، الذي كان تلميذ Théodore de Mopsueste)(٦٠) الذين كانوا يؤكدون ان الله وحده (الأب) لا يمكن أن يكون مخلوقاً او مولوداً .

وان يسوع الناصري لا يمكن ان يكون على ذات المستوى ، وأَن مريم لا يمكن ان تُسَمَّى ، بالتالي « أُم الله » بل أم يسوع . إنَّ هذه النسطورية التي أَخَذَتْ جذورَها من بلاد فارس ، هي التي عرفها النبيُ ـ احتمالاً ـ عندما كان يقود قوافلَ زوجته المستقبلة خديجة ، الى سوريا . وفي الحبشة التي نَصَحَ محمدٌ (ﷺ) بعضَ اصحابه بالهجرة

(*) يتحارمون : يحرم بعضُهم بعضاً .

(٥٨) هرطقات : جمع هرطقة وهي كلمة يونانية تعني بدعة الدين عند النصارى .

(٥٩) النساطرة : نسبة إلى بطريرك القسطنطينية نسطور (٤٢٨ ـ ٤٣٠) حرم المجمع المسكوني سنة ٤٣١ .

(٦٠) Theadore de Mospueste: بابامنذ٦٤٢ ـ٦٤٩ ولد في القدس وتوفي سنة٦٩٤ .

اليها ، عندما تَعَرَّضوا للاضطهاد في مكة ، كان الغالبُ مذهبَ الطبيعة الواحدة الذي يعترف للمسيح بطبيعةٍ واحدة : هي الطبيعةُ الالٰهية ، لا البشرية .

وفي اسبانيا انتشرت « هرطقة » فريدةٌ من نوعها هي البرسليانية(٦١) التي أسسها أسقف أفيلا المدعو برسيليان الذي أُعْدِمَ في تريف(٦٢) سنة ٣٨٥ ، والذي تأثر مذهبُهُ الغنوصية(٦٣) القائلة بأن الوصول الى الله ممكنٌ بالمعرفة والحضور المباشر وأن يسوع لم يكن سوى نبي عظيم .

وأخيراً ، فقد بقي في مصر أريوسيون(٦٤) ، أتباع آريوس الراهب الليبي الأصل الذي عَلَّمَ في الاسكندرية في الفترة التي انعقد فيها مجمعُ نيقية(٦٥) الذي أدانه . يقول آريوس : بما أن الأب وحده غيرُ مخلوق فهو وحده الإلـه . والابنُ ليس سوى وسيطٍ بين الله والعالم المخلوق .

ان المضمون الديني ، في فترة البعثة النبوية ، كان عبارةً عن عباداتِ أوثانٍ مشركةٍ مفرغةٍ من المعنى الانساني ، وطقسية يهودية

---

(٦١) برسليانية : نسبة لبرسليان أسقف أفيلا (مدينة اسبانية هي قشتالة القديمة) .

(٦٢) تريف : مدينة ألمانية .

(٦٣) غنوصية :تعريب Junsticisme ، مذهب بعض الطوائف الهرطوقية ، على حد قول الطوائف المسيحية الأخرى وهي نزعة فلسفية دينية تهدف إلى الهة الأسرار الربانية .

(٦٤) أريوسيون : اتباع آريوس أسقف الاسكندرية (٢٥٦ ـ ٣٣٦) .

(٦٥) نيقية : مدينة في آسيا الصغرى (تركيا) .

خاويةٍ ، وطائفيةٍ نصرانية ، وإن كـل هذه الايـديولـوجيات المتنـافرة المتناقضةِ والمفصولةِ عن الحياة ، قد فاقمت التفكك الاجتماعي .

في هـذا الوقت بـالذات صـدع النبي بعقيدة بسيـطة متينة هي : روح الجماعة الجديدة .

انه لم يدع تأسيس ديانة جديدة ، بل نَشَدَ قيادةَ النـاس ، بوحي من الله ، لتذكيرهم مرةً أخرى ، بالملة الاولى ملة ابراهيم . أي ان لا يُعْبَدَ الا اللهُ الواحدُ ، وأن تُنْبَذَ ، بـالتالي ، الخـرافاتُ الـطفيليةُ والشعائرُ العاريةُ عن الحياة ، وليس القضاء فقط ، على جميع اشكال الشـرك وعبادة الاوثـان ، بـل تنسيب كـل قـدرة وكـل مِلْكٍ وكـل معرفة .

فالله اكبر من أكبر الملوك ، وله وحده الاجلالُ المطلق .

ان في هذا مبدأً حقٍ ـ غيرِ قابـلٍ للتصرف ـ بمقـاومةِ كـل طغيانٍ ومعارضةِ أي تَسَلُّطٍ ، وأساساً إلهياً لمساواة جميع البشر فوق كل مرتبةٍ اجتماعية .

فعندما خاطب محمد (ﷺ) أصحابه آخر مرة ، في مكة المكرمة ، بعد حجة الوداع في شهر آذار سنة ٦٣٢ م ، ركّز عـلى المساواة بـين جميع الناس أمام الله ، دون تمييز عنصري ، أو مالي ، أو دموي ، كما ورد في القـرآن الكريم : « إن اكـرمكم عند الله أتقـاكم » (سـورة الحجرات الآية ١٣) .

ان تأكيداً بمثل هذه الصلابةِ والاصـالةِ عـلى « التسامي » يُشَكِّـلُ أساساً جديداً جذرياً ، للجماعة . وإن التسامي والجماعة (الأمة) هما قطبا الرسالة النبوية اللذان لا ينفصمان .

لا إلـه إلا الله : هي المبدأ المؤسس للعقيـدة ، وهي المسلّمة الاولى من الشهادة التي تحدد الحركة التصـاعديـة للدلالة على ان الله واحد وأنه الحقيقة الوحيدة .

ومحمد رسول الله : هي المُسَلَّمةُ الثانية من الشهادة التي تـدل على حركة العودة ، لان محمداً (ﷺ) هـو النموذج الأعلى لكـل حقيقةَ تُعَدُّ تجلياً من تجليات الله ، وأشارةً اليه .

والقـرآن وسيلةُ اتصال اللهِ بالناس، المُوَجَّهِ اليهم بالكلمـةِ التي أملاها على الرسول لربطهم بهذا المبدأ .

ولا يقتصر هذا المبدأ فقط على التأكيد بأن لا إلّه إلا الله ، بل على انه لا توجد حقيقةٌ أخرى غيره « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . . . . (سورة الشورى الآية ٥٣) .

والرسولُ يُجَسِّدُ كُلَّ الخلق الذي كلُ شيء فيه « إشارة » وكلُ شيء هو مظهرٌ من مظاهر الله . إنَّ كلمةَ آية أي إشارة ، تعني أيضـا آيةً « قرآنية ، أو رجلاً هو مرآة الله أو حقيقةً طبيعية . ولا يملك شيءٌ أن يكون حقيقياً اذا لم يكن إلّهياً ، وأن كل ما يُدرَكُ او يُتَصَوَّرُ ، خارجاً عن عـلاقته بـالله ، هو غـيرُ حقيقي . فلا فصـلَ إذن بين المقـدس والمدنس : كل شيء مقدس بعلاقته مع الله . وقوامُ الكُفر أن ترى الأشياء كما لو كانت مستقلةً عمن هو مصدرُها وغايتُها ومعناها .

ان هذا الكشفَ عن الوحدةِ الإلّهية (التـوحيد) التي تعـطي كُلَّ حياةٍ وكلَّ شيء معنى ـ بنسبته الى الكُل ـ ليس وحدةً ساكنةً أو وحدة الوحدانيةِ (الإيمان بإلّه واحـد) المجردةِ التي تجعـلُ من الله فكرةً ، أو ـ أَقَلَّ من ذلك أيضاً ـ حلوليةً تنافي التسامي . وإلا كان العالم بنظر المسلم ، عالمَ غيبةِ الإله .

ان الوحدة الإلٰهية فعلٌ. إنها إلهٌ مُبْدِع على الدوام ، وفعلُ النبي الذي هو بكلامه الموحى اليه ، ليس وحدَةً أو مجموعةً ، بل فعلُ توحيدٍ وتجميعٍ ، وكذلك فعلُ كلِ إنسانٍ مُدْرِكٍ بأن لا إلٰهي وحقيقي الا الله ، يربُط ، في كل لحظةٍ كل شيء وكل حادثٍ وكل عمل ، بمبدئه . ولا يمكن فهمُ انتشار الاسلام وإشعاعهِ ولا حاليَّتَهُ اليوم ، دون التأكيد على جانبين أساسين ظَهَرَا منذ بعثةِ الرسول :

١ ـ إن تقرير الإسلام بأن الوحدةَ فعلٌ يُثْبِتُ ، بادىء ذي بدء ، سُخْفَ من يعتبر الإسلام مؤدياً الى القدرية .

إنه على العكس ، يُقَدِّمُ الأساس الأَمْتَنَ لمسؤوليةِ وحريةِ الانسان . فاسمُ الاسلام ذاته ، يعني الخضوعَ لإرادة الله . وكل شيءٍ في مفهوم الاسلام خاضعٌ (مُسْلِمٌ) للوحدة والمجموعة : الشجرةُ في إزهارها ، والحيوانُ في نموه ، والحجرُ في سكونه ، ولكن هذا الخضوع لا يتوقف عليها ، لأنها لا تستطيعُ الخروج على القانون الذي يَحْكُمُهَا . الانسانُ وحده يستطيع ان « يَنْسَىْ » طبيعته الحقيقية: « قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها » (سورة طه، آية١٢٦) .

فالمسلمُ يصبح إذن مسلماً بالإختيار ، وهو يتذكر القانون الاوليّ قانونَ الوحدة والمجموع الذي يعطي معنىً لحياته . إنه مسؤولٌ كلياً ، لأن لديه إمكانيةَ الرفض .

وإنه لغريبٌ ، حقاً ، أن تُعتبرَ قدريةً، عقيدةٌ دفعت المسلمين ، خلال ثلاثة أرباع القرن ، الى تجديدِ أربعِ حضاراتٍ كبيرة ، والإشعاعِ على نصف المعمورة . إن دينامية(٦٦) الفكر والعمل هذه ،

(٦٦) دنيامية : Dynamisme ، وتعني فعاليّة .

هي نقيضُ القـدرية : انها حَمَلَتْ مـلايين النـاسَ ، الى اليقـين بـأن الانسان يستطيع العيش على نحو آخر .

٢ ـ والملاحظةُ الثانيةُ تتنـاولُ ، تحديـداً ، هذه الـطريقةَ الجـديدةَ للحياة . فإذا كان الاسلامُ قد استطاع ان ينتشر ، بمثل هذه القوة ، وتلك السرعةِ ـ في كُلٍّ العربيـة أولاً ، ثم ومن المحيط الاطلسي الى بحر الصين ـ فلأنه عادَ وأعطى معنىً لحياة شعوبٍ تائهةٍ بسبب تفككِ جماعاتها وثقافاتها وعقيدتها .

وكان في جوهرِ كل هذه التجديداتِ إرادةُ العودة الى مِلَّةٍ أوليـة : ملة ابـراهيم التي كانت تُتَـرْجَمُ بأفعـالٍ تُنَسِّبُ المراتبَ الاجتمـاعية والثرواتِ وحِكَمَ الناس وتُجْهَدُ لتحقيق المشروع الإلٰهي . لقد اعترف القرآن بصدق أنبياء الكتاب المقدس ، وبأنهم رُسل اللٰه واحد : وان شريعة مـوسى وانجيل عيسى همـا كلام الله . وأمـا بالنسبـة لأهلِ الكتاب ، أي اليهود والنصارى ، فقد أوصى بـألاَّ يُجادلـوا الا بالتي هي احسن [. . .] ، وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والٰهنا والٰهكم واحد ونحن له مسلمون » (سورة العنكبوت آية ٤٦) . إن كلَ واحدةٍ من هذه الديانات ، وهذه « التنزيلات النبوية » حلقةٌ من حقيقة آلهية واحدة ، ولو ان الرسالة تَعَرَّضَتْ للتشويه .

والمسلم يكـرِّم ابـراهيم ومـوسى وعيسى (تـوجـد في الاسـلام « مساجدُ مريم » وفي ليبيا يُحتَفَل بعيد ميلاد « يسوع النبي » وتُكـرم مريمُ العذراء) .

« قـولوا آمنـا بـالله ومـا أنـزل الينـا ، ومـا أنـزل الى ابـراهيم ، واسماعيل ، واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ،

وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (سورة البقرة آية ١٣٦) ولا يُستطاعُ أن يكون هناك حوارٌ حقيقيٌ ، اذا لم نُقِرَّ بأن في القرآن (أياً كان الرأيُ الذي يكون لدى غير المسلم عن مصدره) ومضةً إلٰهيةً . إن المشركين أنفسهم المعتادينَ على الحج الى الكعبة في مكة ، اكتشفوا فوق ألوهاتهم القبلية ، عقيدةً تَدْمُجُهُمْ في الكُلِّي الذي كان يُعطي معنى لحياتهم ، ولكل شيء وقاعدةً لسلوكهم .

ولم يكن لدى كل من تَلَقّى رسالةَ النبي شعورٌ بالتخلي عن دينه ، بل شعورٌ بإعادة اكتشاف عقيدةٍ ووسيلةٍ ـ تحت ركام الخرافات والطقوس والعقائد، وبعيداً عن (الاكليروس)(*) رجال الدين المتحكمين بالعقيدة والمحلّين أنفسهم مَحَلَّ الله كرعاةٍ للحقيقة ـ يُعيدان اليهم الأملَ الوطيدَ بتغييرَ العالم .

فلا وسطاءَ ، أي رهبان ، جعلوا من أنفسهم أدواتٍ تيوقراطيةً مزيفةً ، ولا ملوك أو امراء يدّعون أنهم قائمون مقام الله على الأرض ، لأن الله نفسه كان يُملي شرائعَهُ . ولا يستطيع أحدٌ بعد اليوم ، أن ينتهك المحرّم .

إن عقيدةً تربُطُ الانسانَ بمصدره ومصيره ، أعطت معنىً لحياته انطلاقاً من الأركان الخمسة في الاسلام :

١ ـ الجهر بالعقيدة التي ذكرناها: لا الٰه الا الله محمد رسول الله: صار للعالم كله معنى ، وظهر المطلقُ في النسبي ،باشارات ورموز، فكانت الطبيعةُ والناسُ كما يؤكد القرآن ، ظهوراً وتجلياً لله .

(*) إكليروس : رجال الدين النصارى .

« تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليماً غفورا (سورة الاسراء آية ٤٣) .

٢ ـ **الصلاة** : مشاركةُ الانسان الواعيةُ في نشيد الحمد ، الذي يربط كل مخلوقٍ بخالقه « عُدْ الى نفسك ، تجدِ الوجودَ كله مختصراً فيك » .

فالصلاة تدمج المؤمن في هذه العبادة الكونية : ان جميع المسلمين الذين يقومون بها ، مولين وجوههم ، شطر مكة المكرمة ، وجميع المساجد التي تدل محاريبها على اتجاه الكعبة الشريفة ، ان هؤلاء جميعا مندمجون ، بدوائر متراكزة ، في هذا الانجذاب الرحب الى المركز الذي هو البيت العتيق . والوضوء قبل الصلاة شعيرةٌ ترمز الى عودة الإنسان لطهارته الاولية التي يطرح بواسطتها ، عن نفسه كل ما يُغَشِّي صورة الله ، ليصبح مرآةَ خالقه الكاملة .

والصوم : وهو الانقطاع الطوعي عن الايقاع الحياتي ، وتأكيد حرية الانسان بالنسبة « الى ذاته » ورغباته ، وفي ذات الوقت ، التذكير بحضور الجائع في ذاتنا . كأنه ذاتنا الاخرى التي يجب علينا ان نسهم في انتشالها من البؤس والموت .

٤ ـ **والزكاة** : ليست الصدقة بل نوعاً من عدالة داخلية شرعها الله مؤسسةً ملزمةً تجعل تضامن المؤمنين فعّالا ، أي تضامن أولئك الذين يعرفون كيف يتغلبون ، في ذواتهم ، على الانانية والبخل . انها التذكير الدائم بأن كل ثروة ، مثل كل شيء ، ملك لله ، وان الفرد لا يتمكن من التصرف بها على هواه ، وان كل انسان هو عضو في جماعة .

٥ ـ والحج الى مكة : لا يُجَسِّدُ حقيقة الجماعة المسلمة العالمية ، فحسب ، بل ينشط ، في داخل كل حاج ، الرحلة الداخلية في ذاته . ان الموضوع الرئيسي ، في الاسلام هو ـ بكل مظاهره ـ هذه الحركة المزدوجة ، حركة مدّ الانسان نحو الله ، وجزر الله نحو الانسان وانبساط وانقباض قلب المسلم « انا لله وانا اليه راجعون » (سورة البقرة آية ١٥٦) .

هذه الطريقة في ادراكِ التسامي والعقيدة وعيشهما ، تقوم على نموذجِ حياةٍ اجتماعية جديدة ، رُسمت خطوطُها الرئيسية في المدينة المنورة . فعندما أُصبح النبي سنة ٦٢٢ ، مؤسسَ دولةٍ في المدينة ، أعطى ـ واقعاً ـ أولَ مثالٍ عن جماعةٍ من نموذجٍ مجهولٍ حتى ذلك التاريخ : لأن الجماعة لم تعد جماعة القبيلة المتحدة بروابط الدم عند الرحل ، او الجماعة المشدودة الى الأرض عند الحَضَرِ ، كما لم تعد « أمةً » بالمعنى الغربي للكلمة ، تقوم على وحدة أرضٍ او سوقٍ او لغةٍ أو تاريخٍ أي على معطيات العنصر أو الجغرافيا أو التاريخ ـ وبالتالي ، على الماضي ـ بل جماعةً « نبوية » قائمةً على تجربة مشتركةٍ في الإيمان بسمو الله .

ان التأمل في جماعة المدينة يتيح استخلاصَ القاسم المشترك لكل المجتمعات الاسلامية التي تريد أن تكون أمينةً لتعاليم النبي .

ففيما يتعلق بالسلطة السياسية : ان المبدأين الاساسيين ، مبدأ « المُلْكُ لله » الذي يُنَسِّبُ كل سيادةٍ اجتماعية ، ومبدأ « الشورى الذي ينبذ كل وساطةٍ بين الله والشعب ، يُبعدان معاً ، كُلَّ طغيانٍ استبداديٍ يُقَدِّسُ السلطةَ ويطمح الى جعل الحاكِم إلٰهاً على

الأرض ، كما يستبعدان كلَّ « ديمقراطيةٍ » من النمط الغربي ، أي فردانيةٍ كميةٍ إحصائيةٍ مفوضةٍ ومرتهنة .

وفيما يتعلق بالمِلكية :

وبما ان كل مِلكيةٍ هي لله ، وأنَّ الانسانَ لا يملكُ منها ، بجُهده ، سوى حق الانتفاع ، فإنَّ المفهوم القرآني النبويَّ عن المِلكية هو نقيضُ المفهومِ الغربي والبرجوازي .

والملكيةُ في الشريعة الاسلامية ليست خاصيَّة فردٍ او جماعة ، بل وظيفة اجتماعية منظمة وفْقَ الشروطِ الالهية ، « في الأمر بالمعروف » . أو ليس التسامي والجماعة هما الاسهام الذي يُقدِّمه الاسلامُ ، اليوم ، لصنع مستقبلٍ انساني ، في عالمٍ ـ استبعَدَ التسامي ، ودمرَّ الجماعةَ ، بفردانيةٍ ونموذجِ تنميةٍ جنوني ـ فَجَعَلَ الوضع الراهنَ غير محتمل ، كما جعل الثورات التي هي من الطراز الغربي ، مستحيلةً ؟

إن جان جاك روسو اسْتَنَدَ في كتابه « العقد الاجتماعي » الى مفهومُ مجردٍ عن الفرد ، ولم يتمكن في آخر الأمر ، من تَصَوُّرِ التكامل الاجتماعي إلَّا من خلال خُرافةِ « الارادة العامة » التي دَلَّتْ تعابيرُها التاريخيةُ الملموسةُ ـ عبر برلمانات وأحزاب ـ على ما تقتضي ، هذه الارادةُ العامةُ من تفويضٍ ونقلٍ للسلطة ، تجعلها كاريكاتور « ديمقراطيةٍ » كما دَلَّت على انَّ مشاركةَ الشعب في السلطة ، أصبحت وهماً أو خداعاً .

وكان الشيءُ ذاتهُ ، بالنسبة للملكية : لأن تعريفَ الملكيةِ الفردانيةِ الرومانيةِ والبرجوازيةِ ، أوصلها ، الى نظريةِ « النفع العام »

المزعومِ ، القائلةِ بأن النفع العام يتحقق ، اذا جرى كل واحد وراء نفعه الشخصي . إن قرنين من الاضطرابات الاجتماعية الناجمة عن هذه « التحررية الاقتصادية » التي لم تمت بعد (أي تحتضر) قد عرّيا هذه الاكذوبةَ الاقتصادية التي هي « النفع العام » وكذلك الاكذوبة السياسية التي هي « الارادة العامة » .

ان التجارب المسماة « اشتراكية » التي بدّلت هذه الخرافاتِ ، بخرافةِ « حزبٍ » واعٍ وحامٍ يُجَسِّدُ ، بدوره وباسم طبقةٍ قيل إنها حاملةُ مستقبلٍ ، دونَ ان تستشار قط ـ هذه الارادةَ العامةَ أو هذا النفعَ العامَ ، أن هذه التجارب قد أدت الى مآزق أُخرى . نحن لا نسعى أبداً لِأَمثلَةِ انجازاتِ كل المجتمعات الاسلامية التاريخية ، بل نفكر بأن الادعاء باستخلاص تشريعٍ صالحٍ لكل الازمنة ، من نصٍ موحي به ، يصدر عن تماميةٍ[٦٧] ضارَّة . ألم يرد في القرآن الكريم : ولكل أمةٍ رسول (سورة يونس آية ٤٨) .

وورد بصورة أدق ، وما ارسلنا من رسول إلاّ بلغة قومه ليبين لهم (. .) (سورة ابراهيم آية ٤) .

واليوم ، اذا كان الاسلامُ لا يَتَسَّمرُ في ماضيه ، ويَعْرِفُ حلَّ مشاكِل زمننا بروحِ جماعةِ المدينةِ المنورة ، متذكراً قول جوريس (السياسي الفرنسي ١٨٥٩ ـ ١٩١٤) : ان الوفاء للاجداد هو في نقل الشعلة ـ من موقدهم ـ لا الرماد ، وان وفاء النهر لمنبعه يكون في اتجاهه نحو البحر ؛ عندها يمكنُ أن ينفتح ـ لا للمسلمين وحدهم بل

---

(٦٧) تمامية : مذهبٌ يحاول الاحتفاظ بتمام نظامٍ ما ، ويرفض كل تطور ويأبى مجاراة الحياة الاجتماعية الحديثة .

للناس أجمعين ـ أُفقٌ اشتراكيةٍ غير مشلولةٍ بعلمويةٍ وضعيةٍ ، وفردانيةٍ غربيةٍ ملقحةٍ بالقيمِ الاساسيةِ التي بَعَثَتْهَا ، قبلاً ، جماعةُ المدينة ، قبساً من رجاء هي : التسامي والجماعة .

ان انتشار الاسلام لا يمكن ان يُفَسَّرَ بأسبابٍ خارجيةٍ فقط ، كضعفِ البلادِ المفتوحةِ أو تفككِ الامبراطورياتِ المهزومةِ (الامبراطورية الرومانية الشرقية ، والامبراطورية الفارسية الساسانية ، وامبراطورية (ويزيقوط اسبانيا)[٦٨] ولا بأسبابٍ محض عسكرية . فالامبراطوريتان الرومانية الشرقية والفارسية الساسانية ، الكبريان في تلك الحقبة ، أنهكتا بعضهما بعضاً ، بحروب متواصلةٍ فيما بينهما ، من أجل السيطرة والهيمنة على الشرق الادنى وبخاصة بين سنتي ٦٠٤ و٦٢٨ .

وصحيحٌ أيضاً أن الامبراطوريتين المتخاصمتين قد زجتا القبائلَ العربيةَ في أمورها عندما استخدمتا فُرسانَ الصحراءِ المحاربين مرتزقةً ، للدفاع عن « تخوم » دولتيهما المتقدمة ، وان الفرس الساسانيين ، أنزلوا في الحيرة ، قريباً من طيسفون[٦٩] عاصمتِهم ، قبيلةَ بني لخم التي جعلوا منها أسرةً مالكةً عربية (اللخميون) وكلّفوهم ـ كتابعين ـ بمناوشةِ الرومان باستمرار ؛ وأن أباطرةَ بيزنطة ، اختاروا ، بالمقابل ، عائلةً عربيةً أخرى (الغسانيين ، وهم بدُو شرقي الأردن الحالية) وجعلوا منهم سنة ٥٢٩ ، الأمراء

---

(٦٨) ويزيقوط : فرع من القوط . استولوا على روما سنة ٤١٠ وبعدها على جنوب غرب فرانسا وقسم من أسبانيا . وهزمهم العرب سنة ٧١١ .

(٦٩) طيسفون : هي مدينة المدائن حالياً ، الكائنة في العراق قرب بغداد .

الغساسنة الذين تحولوا ، بسرعة الى نصرانية الطبيعة الواحدة (التي رفضت الاعتراف بطبيعة يسوع المزدوجة) المنتشرة شعبياً من سوريا الى مصر .

كانت هذه عواملُ مؤاتية لانتصارات العرب المسلمين القادمةِ ، غير أن الاسباب الجوهرية لهذا الانتشار الخاطف ، التي أتاحت - غداة انتقال النبي سنة ٦٣٣ - خلال اثنتي عشرة سنة من تاريخه - تأمينَ السيادة العربية على فلسطين وسوريا وبلاد ما بين النهرين ومصر (لم تتوقف هذه الموجةُ الاولى إلاّ أمام الحواجز الطبيعية : كسلاسل جبال طورس في آسيا الصغرى وايران الشرقية وصحاري النوبة (Cyrenaique)[٧٠] كانت أسبابا داخلية مرتبطةً بجوهر الاسلام ذاته .

ان التأكيد الجذري ، على سمو الله طَرَحَ - وهو يُنَسِّبُ جميع القدرات كما رأينا - مُسَلَّمَةَ المساواة المبدئية بين الجميع ، فأصبح ، خميرةَ تحريرٍ من جميع المظالم السياسية والاقتصادية أو الدينية ، وحقّق آمال جميع المظلومين ، وهو (أي هذا التأكيد الجذري) هو الذي يُفَسِّرُ سبب انهيار الامبراطوريات (كامبراطورية الويزيقوط في اسبانيا وامبراطورية فارس) وتسلم العرب أغنى المقاطعات في الامبراطورية الرومانية الشرقية (سوريا ومصر وافريقيا الشمالية ، بعدها بقليل) أمام أول انتصار عسكري على كل واحد من الطواغيت الحاكمة (هرقل سنة ٦٣٦ في الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ويزد جرد ، بعد سقوط عاصمته طيسفون سنة ٦٣٧ ، في الامبراطورية الساسانية

---

(٧٠) Grénaique : صحراء شمال شرق ليبيا .

الفارسية أو بعدها سنة ٧١١ . انتصار حفنة من محاربي طارق ، على ملك الوزيقوط رودريك[٧١] ، على نهر برباطة في اسبانيـا . وفي كل حالٍ ، كان ضحايا الطغيان الاجتماعي أو السياسي أو الاضـطهاد الديني يستقبلون العربَ كمحررين ، كلما انهزمت الطبقةُ الحاكمة ، المكروهة من الشعب .

وكان انتصار العرب ، (بالنسبة للنصارى اتباعِ الطبيعة الواحدة الـذين اتهمتهم الامبـراطـوريـة الـرومـانيـة الشـرقيـة بـالهـرطقـة ، واضـطهـدتهم ، لهـذا السبب ، وبـالنسبـةِ للنصـارى النسـاطـرة ، والقبائلِ البربرية التي كانت تساند الدوناتيين[٧٢] قديماً - في وقت كان القـديس اغسـطين[٧٣] ، يستعـدي ، امبـراطـور رومـا ، عليهم ويدعوه ، لقمع هرطقتهم عسكرياً وبوليسياً - وكذلك بالنسبةِ لليهود والنصارى الأريوسيين وبرسيبليي أسبانيا الذين نَكَّلَ بهم رجالُ الدين (الاكليروس) المتزمتون ، والفلاحين الاقباط في مصر الخاضعـين ، لابتزاز كبار ملاكي الاراضي البيزنطيين) ، كـان انتصارهم[*] عـلى اسيادهم ومضطهديهم ، تحريراً لهم من هذه المظالم .

إن صورة الاخلاص ، في القرآن تقول :

---

(٧١) رودريك : آخر ملوك الويزيقوط قتله العرب سنة ٧١١ .

(٧٢) الدوناتيين : اتباع الاسقف دوناتو القرطاجي المتـوفي سنة ٣٥٥ الـذي انفصل عن الكنيسة الرومانية ، وكان عدو القديس أغسطين .

(٧٣) القديس أغسطين : أشهر أباء الكنيسة اللاتينية (٣٥٤ - ٤٣٠) حارب المانوية والدوناتية ، واتباع الراهب بيلاجيوس منكر الخطيئة الأصلية ، والقائل بحرية الارادة التامة .

* ويسميه العرب : وادي كلّة .

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن لـه كفؤا أحد » .

إنَّ كل نصراني من أتباعِ الطبيعة الواحدة ، نسطورياً كان أم أريوسياً ، يستطيع ـ بعيداً عن مماحكاتِ اللاهوتيةِ الدقيقةِ ـ أنْ يكتشف إيمانَهُ الخاصَّ الاساسِيَّ ، كما أكَّد ذلك ، بوضوح مُجمع لتران (Latran) المنعقد سنة ١٢١٥ ، لإدانة مفهوم (Joachim de Flore) عن الثالوث . إنَّ هذا المُجَمَّعَ الذي عاد وأكد ـ متأثرا بالثنائية الاغريقية ـ الوحدةِ المطلقة « للجوهر والذات أو الطبيعة الإلٰهية » ، حَدَّدَهَا بأنها حقيقةٌ سامية مبهمة ، تَجِلُّ عن الوصف (. . .) وهي وحدها مبدأ كل شيء (. . .) وان هذه الحقيقة لا تلد ولا تولد » .

لقد استشهد الاسقف (Duchesne)[٧٥] في دراساته عن أوضاع الكنيسة في القرن السادس في سوريا بقول ميشال السوري : إنَّ الٰه الانتقاماتِ ، اقتاد أبناءَ اسماعيل ، من الجنوب ، كي يخلصونا من الرومان ، عندما رأى خُبثَهم ونهبَهم الوحشيَّ لكنائسنا وأديرتنا ، حيثما حَلُّوا ، وحُكْمَهُمْ إيَّانا ، بلا رحمة (. . .) إنَّ تَحَرُّرنا من قسوةِ الرومان وخبثهم وغضبهم ، وحَسَدِهم الطاغي ووصولَنَا الى الطمأنينة ، لم يكن مكسباً بسيطاً .

وفي الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط ، حصل تحريرٌ اجتماعيٌ ودينيٌ معاً :

---

(٧٤) لتران : إحدى أكبر أربع كنائس في روما ، قريبة من قصر عقد فيه خمسة مجمعات مسيحية ، كان أحدها المجمع الذي انعقد سنة ١٢١٥ ، وهو الذي يعنيه المؤلف .

(٧٥) **Duchesne** : عالم فرنسي له دراسات حول التاريخ القديم (١٨٤٣ ـ ١٩٢٢) .

لقد بَيَّنَ (Jgnacio Olagüe) ، كم كان مستبعداً فتحُ اسبانيا ، من قِبَلِ سكان الحجاز ، حين قال : كيف استطاعت حفنةٌ من البدو الآتين من عمق الجزيرة العربيةَ ، فَرْضَ لُغَتِهِمْ وشريعتِهم الاسلاميةِ على خمسة عشر مليونا من السكان يعيشون على ستمائة ألف كيلومتر مربع في شبهِ الجزيرة الايبرية ؟

ولكن دور الصراعات الدينية والسياسية في اسبانيا ، كـان مُهماً ، في هذا الفتح ، وأكثر قابليةً للتصديق . ففي سنـة ٤٧٦ قطعَ ملِكُ الويزيقوط Eurie)[٧٦] علاقتـه مع امبـراطور بيـزنطة ، وجعـل من الأريوسية ، دينَ شبهِ الجزيرةِ الرسمي كُلِّها ، في حين أن مَلِكاً آخرَ يـدعـى (Recarède)[٧٧] ارتَـدَّ عن الاريـوسيـة ، في مجـمـع (Tolède)[٧٨] سنــة ٥٨٩ ، وأَنَّ الاريـوسيـين والـبـرسيـليـين والفنوصيين ، اعتنقوا الاسلام بسهولةٍ ، حالما شعـروا بأنهم قـريبون منه .

ان غلبةَ الاسلام في اسبانيا ، ظهرت في جوهرها ، وكأنها نتيجةُ « حـربٍ أهلية » وإنَّ الاسـلامَ الذي أَلَّفَ بـين المذاهب« المُوحدة» (التي ترفض تعريف الثالوث على الوجه الذي صيغ في نيقية ، وترى في يسـوع نبياً ، وتـرفض بالتـالي تسمية مـريم « أم الله ») ان هـذا الاسـلامَ بدا ، حتى للكنيسـة الرسميـة « هرطقـةً نصرانيـةً » لا ديناً

---

(٧٦) **Euric** : ملك الويزيقوط حكم من (٤٦٦ ـ ٤٨٤) في اسبانيا .

(٧٧) **Récarède** : ملك ويزيقوطي في اسبانيا (٥٨٦ ـ ٦٠١) .

(٧٨) **طليطلة** : مدينة اسبانية على نهر التاج استولى عليها العرب سنة ٧١١ واستعادها الفونس السادس سنة ١٠٨٥ .

جديداً . هكذا اعتبره القديس (Jean de Damas)[٧٩] المتوفي سنة ٧٤٩ ، لأن « دانت »[٨٠] نفسَهُ ، لم يضع محمداً في عداد الملحدين ، بـل في عداد الهـراطقة « في الحلقـة الثامنـة » من كتـابـه « الجحيم » (النشيـد ٢٨) ، وهي ذاتُ حلقـةِ البـابـواتِ نيقـولا الثـالث[٨١] وبونيفاس[٨٢] الثـامن وكليمـان[٨٣] الخـامس . هؤلاء المـوحّـدون المؤيَّدون من بعض قبائل البربر ، في الريف ، لم يحتاجوا الاَّ لمعـركةٍ وحيدةٍ بين جبل طارق وقادس ، كي ينتصروا على « الارثوذكس » . وكان تأثير التُّجار العـرب ، فاصـلاً أيضاً ، وبخـاصةٍ الأثـر الحاسم لـ «فكـرةٍ ـ قوةٍ»* (Ideé-force) كتلك التي لـلاسـلام ، وكـذلـك إرسالُ بعض القادة العرب ؛ وأخيراً سياسةُ الأسلمـة العظيمـة التي اتَّبعها عبد الرحمن[٨٤] ، الأميرُ الأموي الذي هرب من بغداد ووصل الى اسبـانيـا سنـة ٧٥٦ ، أي بعـد خمس وأربعـين سنـة مـن الـ « معركة » .

---

(٧٩) Jean de Damas : حنا الدمشقي . قديس ، ولد في دمشق في القرن السابع . كان مستشار الخليفة الأموي .

(٨٠) دانت : اكبر شاعر ايطالي (١٢٦٥ ـ ١٣٢١)، ألف كتاب الجحيم الذي صور فيه بأن جهنم من تسع حلقات ، في كل حلقة فئة معينة من الخطاة . كما صور الجنة بأنها مؤلفة من تسع حلقات ايضاً تتناسب مع اختلاف درجات المؤمنين .

(٨١) البابا نقولا الثالث : ولد في روما (١٢١٠ ـ ١٢٨٠) .

(٨٢) البابا بونيفاس الثامن : ولد في إيطاليا (١٢٣٥ ـ ١٣٠٣) .

(٨٣) البابا كليمان الخامس : (١٣٠٥ ـ ١٣١٤) .

* فكرة ـ قوة : كلمة حديثة وتعني المبدأ الأساس .

(٨٤) هو عبد الرحمن بن معاوية حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك ، وسمي بالداخل ، لأنه دخل اسبانيا هرباً من العباسيين ، وأصبح خليفة فيها سنة ٧٥٦ .

كتب المستشرقُ (Dozi)[٨٥] في كتابه « تاريخ مسلمي أسبانيا » الجزء (الثاني صفحة ٤٣) : ان الفتح العربي كان خيراً لأسبانيا : لأنه أحدث ثورةً اجتماعيةً هامة ، وقضى على قسم كبير من الشرور التي كانت ترزح البلادُ تحتها منذ قرون (. . .) لقد حكم العرب وفقاً للنهج التالي :

لقد خففوا الضرائب كثيراً بالنسبة لضرائب الحكومات السابقة ، ونزعوا من الأغنياء الأرضَ الموزعةَ الى مناطق إقطاعيةٍ شاسعة ، والمزروعةَ من قبل مزارعين أقنانٍ أو أرقاء مقهورين ووزعوها بالتساوي ، بين الذين كانوا يشتغلون في التربة ، فعمل هؤلاء فيها بحماس بالغٍ ، ونالوا منها أجود الغلال .

وتحررت التجارةُ من قيودها ومكوسِها الفادحة التي كانت تسحقها وتطورت كثيراً . وأجاز القرآن للأرقاء أن يتحرروا مقابل تعويضٍ عادلٍ ، فأضاف طاقاتٍ جديدةً للمجتمع .

كل ذلك أحدث حالة من الارتياح العام الذي كان سبَبَ الترحيبِ الحاصلِ في بداية السيادة العربية .

إن انتشار الاسلام لم يتخذ ، غالباً ، طابعَ اجتياحٍ حتى ولا طابع استعمار . لقد اعلن الكاتب (Blasco Jbañez)[٨٦] في كتابه « « في ظل الكاتدرائية » : أن اسبانيا رقيقةَ الملوكِ اللاهوتيين والاساقفةِ

---

(٨٥) Dozi : مستشرق هولندي (١٨٢٠ ـ ١٨٨٣) اهتم بحضارة العرب وبخاصة الاسبانية .

(٨٦) Blasco Jbañez : كاتب اسباني (١٨٦٧ ـ ١٩٢٨) .

المِحْرَبِيّين*، استقبلت غُـزاتَها ، بـذارعين مفتـوحـين (. . .) ففي سنتين استولى العربُ على ما استلزم سبعةَ قرونٍ لاسترجاعه . لم يكن هناك اجتياحٌ مفروض بالسلاح ، بل مجتمعٌ جديدٌ يمد جذوره القويةَ في جميع الانحاء .

لقد كانوا حريصين على مبدأ حرية المعتقد ، حَجَرِ الزاويـة الذي تقـوم عليه العـظمةُ الحقيقيةُ للأمم، انهم قبلوا الكنيسـة النصرانيـة والكنيس اليهودي ، في المدن التي كانوا أسيادها .

واذا بحثنا في قاموس السياسة المعاصرة ، عن تعبير ينطبق على ميزة هذا الانتشار أمكننا الكلامُ عن « أزمةٍ ثورية » ، أي تَحَوُّلٍ اجتماعي ناشيءٍ عن سقوط نموذجٍ اجتماعي بالٍ يقف في وجه الـطموحـات الشعبية ويُطلق امكاناتٍ جديدةً (بفضـل اصلاح زراعي عـلى وجه الخصوص) .

ان السلاح الرئيسي في مثـل هذه الحـرب لم يكن عسكريـاً ، بل اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ، يحمل شكلاً جديداً من الثقـافة . إنَّ الاسـلام ، كـما قلت وأكـرِّرُ عقيـدةٌ جـديـدةٌ وجمـاعـةٌ جـــديـدة لا تنفصمان .

والسمةُ الثانيةُ التي تفسر سرعةَ انتشاره ، هي انفتاحهُ وتسامحُه . لقد أوصى القرآن الكريم باحترام وحمايـة « اهل الكتـاب » ، (أي

---

* المحربي : هو لامُحبُّ الحرب .

الكتاب المقدس) ، اليهود والنصارى الذين هم كذلك ورثةُ ملةِ ابراهيم التي كانت المرجعَ المشترك . وقد شمل هذا التسامحُ زرواستري فارس والهندوس ، لأن المسلمين لم يقاتلوا منهم ـ إبّان استتباب السيادة العربية على بلاد فارس ـ سوى المشركين ، وأما الباقون فلم يُحارَبُوا ، بل هاجَرَ عددٌ ضئيلٌ منهم الى الهند ، حيث لا زالت ذراريهم فيها ، حتى اليوم ، تُشَكلُ الجماعات « الفارسية » .

وان القبولَ باليهود والنصارى الذين رفضوا اعتناقَ الاسلام ، والوثوقَ بهم كان يُمَكِّنُهُمْ من الوصول الى اعلى مناصب الدولة .

فَجَدُّ القديس حنا الدمشقي (Jean Damascene) المدعو ابن سرجون[٨٧] كان الوزيرَ الاول للخليفة الأموي في دمشق . وقد عهد الخليفةُ للجَدِّ المذكور نفسِه بالإشرافِ على ادارة مالية الامبراطورية في دمشق .

وقد ظل هذا الانفتاحُ بعد سنة ٧٥٠ م في عهد العباسيين في بغداد : عندما أنشأ الخليفةُ المأمون سنة ٨٣٢ « بيت الحكمة » مع جامعتهِ ومِرصدِه ، وعَهِدَ بادارة هذا المركز الثقافي ، في الامبراطورية ، الى طبيبٍ نصراني نسطوريٍ هو حنين ابن اسحق[٨٨] .

---

(٨٧) ابن سرجون : هو منصور ابن سرجون مدير مالية يزيد بن معاوية ومعاوية . وكان ابنه سرجون رفيق يزيد والأخطل في معاقرة الخمرة في باب توما في دمشق ، وبقي في مركز والده حتى خلافة الوليد .

(٨٨) حنين ابن اسحق : (٨٠٩ ـ ٨٧٣) ولد في الحيرة ، وكان ابن اسحق يساعده في الترجمة وإدارة المكتبة والمتحف .

هذا الموقف يتيح لنا أن نُعيدَ الى الجهاد معناه وبُعْدَه. ان الغربيين يترجمون الجهاد « تقليدياً » بـ « الحرب المقدسة » اي الحرب المباشرة لنشر الاسلام . وان محرر مقالة « الجهاد » في الموسوعة الاسلامية المستشرق (D. B. Maedonald) بدأ بالتأكيد (على ان نشر الاسلام، بالسلاح ، هو واجبٌ دينيٌ على كل المسلمين) . غير ان الجهادَ لا يعني حرباً ، لأن لهذا كلمة أخرى تعنيه ، بل تعني « الجُهدَ » في سبيل الله .

والقرآن الكريم واضح تماماً في قوله : « لا إكراهَ في الدين » .

ان جميع النصوص التي استندوا اليها ليجعلوا من الاسلام فَزَّاعةً ، و « دينَ سيف » كانت دوماً مفصولةً عن سياقها .

لقد ، أطلقوا ، مثلاً ، على الآية الرابعة من سورة التوبة ، اسم « آية السيف » .

فإذا انسلخ الاشهرُ الحُرُمُ ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصُروهم واقعدوا لهم كُلَّ مرصد ، فإن تابوا وأَقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلُّوا سبيلهم ان الله غفور رحيم ، إذْ فصلوا منها « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » عن الآية السابقة « الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظهروا عليكم أحدا فاتموا اليهم عهدهم الى مُدتهم إن الله يحب المتقين » التي حَدَّدَتْ بدقةٍ أَن المقصود هو مقاتلةُ الذين عقدوا اتفاقاً » ثم نقضوه ، أَو أولئك الذين يريدون منع المسلمين من الجهر بعقيدتهم وممارستها .

وبكلمة واحدةٍ ، اذا لم تكن الحربُ غيرَ مستبعدةٍ في الاسلام ،

فهي غيرُ مقبولةٍ إلّا للدفاع عن العقيدة عندما تكون مهـددةً ، وليس لِنَشْرِ الدين بالسلاح .

ولا مُسَوغَ للحرب ، كما يَنُصُّ القرآن ، إلّا عندما يكون المسلمون ضحيةَ اعتداءٍ او انتهـاكٍ وهي أفعالٌ يُحَـرِّمُهَا المسلمـون على أنفسهم بصورةٍ قاطعـة ، نزولاً عـلى حكم القرآن : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (سورة البقرة ، الآية ١٩٠) .

ان الكفاح المسلح ، بالنسبة لمن يُمارسُ الجهاد (أي المجاهد) ليس سوى الوجه الثاني من الجهاد :

هنـاك حديثٌ شهـيرٌ يُمَيِّز بين الجهـاد الأَصغرِ ، أي الـدفـاع عن العقيدة بالقوة ضد عدوٍ خارجي يُهَدِّدُها أو يضطهدها ، والجهادِ الأكبر الذي هو النضالُ الداخلي ، للتغلب على أنانيتنا والتحكم بغرائزنـا ، وأهوائنا وتركِ المكان كُلِّهِ لإرادة الله .

ان الجهادَ الاكبر كفاحٌ ضد الذات والميولِ التي تَجُرُّ الانسانَ بعيداً عن مركزه ، تَجْرِفُهُ نحـو رغباتٍ جـزئيةٍ تؤدي بـه الى صُنْعِ أصنـام لذاته ، وتمنعه بالتالي من الاعتراف بوحدانيـةِ الله . إن التغلبَ على هذا الشرك الداخلي أَصْعَبُ بكثيرٍ من التغلب على مشركي الخارج .

إن في هذا درساً بليغاً لكثيرٍ من الثوار الذين يطمحون لتغيـير كل شيء ما عدا تغيـير ما بـأنفسهم ؛ كما كـان ، في الماضي ، كثـيرٌ من « المحاربين الصليبيين » الذين أرادوا أن يفـرضوا عـلى الآخرين ـ في القدس وأسبانيا أو ضد هنود اميركا ـ نصرانيةً كانوا يسيئون اليها بكل تصرفٍ من تصرفاتهم .

ان فصلَ الحياة الخارجية عن الحياةِ الداخليةِ يَحْكُمُ على الذات بأن لا تَنْشُرَ ـ تحت اسم النصرانية والاشتراكية ـ سوى وثنياتٍ دموية .

ان أحد النماذج الاكثر سطوعاً ـ عن التحقيقِ الانساني لهذا الجهادِ المزدوج ـ هو نموذجُ الامير عبد القادر[٨٩] الذي لم يكن فقط ، قائداً حربيا نَظَّمَ المقاومةَ المسلحةَ طيلة خمسةَ عشر عاما ـ ضد مجتاحٍ يمتلك قدراتٍ عسكرية لا سبيلَ الى مقارنتها مع قدراتِهِ ـ عن شعبه ودينه ، بل كان أيضاً واحداً من أكبر مُتصوِّفةِ العصر ، وتابعاً لابن عربي الذي كان متصلاً به ، ببنوة مسارية[٩٠]

انه ، في كتاب المراحل (Livre des étappes) يورِدُ تأملاته حول التعليم الاساسي لصوفيي الاسلام ، فيقول : « ان الحقيقـةَ العميقة للمخلوقـات هي اللهُ ، واللهُ ليس الوجـودَ فحسبُ بـل أيضـاً كُـلُّ الممكناتِ غيرِ الناجزة ، وفعلُ الحريةِ الذي يولدها . إنه حَمَىْ ونَجَّى ، من الموت ، أربعة عشر ألفا من نصارى دمشق ، ـ خلال الهيجانات الشعبية ضد الأجانب سنة ١٨٦٠ ، عندما كـان منفياً إليهـا من قبل الحكومة الفرنسية ـ فمنحه البابا نفسُه وسام بيوس التاسع .[٩١]

هذه الشخصيةُ الفروسية الفذة ، كتب في كتابه « المراحـل » هذه السطور التعريفيَّة ، عن انفتاحِ الاسلام : (اذا خطر ببالك ان الله هـو هذا الـذي تبشر بـه المدارس الاسـلاميـةُ ، أو النصـرانيـةُ ، أو

---

(٨٩) الأمير عبد القادر الجزائري : (١٨٠٨ ـ ١٨٨٣) حارب الفرنسيين منذ ١٨٣٢ حتى ١٨٤٧ وتوفي في دمشق .

(٩٠) متعلق بالمسارة والمسارة إطلاع الآخر على السِّر .

(٩١) بيوس التاسع : (١٧٩٢ ـ ١٨٧٨) بابا منذ ١٨٤٦ حتى ١٨٧٨ .

اليهوديةُ ، أو الزرواسترية ، او يبشر به المشركون وجميع الآخـرين ، فاعلم حقيقةً ، انه هو ذلك ، وأنه ، في ذات الوقت ، غيرُ ذلك » .

ان هذا المفهوم الرفيع للجهاد ، الجهدَ في سبيـل الله ، يُعَبَّرُ عنـه بطريقةٍ أخرى أيضاً ، في الدور الذي يقوم به « الاستشهادُ » في منظور المجاهدِ الاسلامي .

وان آية الله مطهري[٩٢] المسلم الايراني الذي ناضل ، في الحركة الدينية ، ضد الطغيان منذ سنة ١٩٨٠ ، يُحَدِّدُ في كتـابه « الشهيـد » الاستشهـادَ بمميزتـين أساسيتـين : » الشهيد » ، « الشـاهد » يـواجه الموت باسم قضيةٍ مقدسة ، ويفعل ذلك وهو على علمٍ تامٍ بالخطر ، « ولا تَحسبَنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بـل احياءٌ عنـد ربهم يرزقون » (سورة آل عمران آية ١٦٩) .

ان تضحية الشهيد هـذه يمكن ان تَحْدُثَ في معـركة يُؤَمَّـلُ النصرُ فيها ، كما حصل في معركة أُحُد التي قاتل فيهـا النبي (ﷺ) والتي تشير اليها هذه الآية القرآنية . كما يمكن أن تكون موتاً مقبولاً سلفاً ، رغم التأكد من الهزيمةِ المُداهِمة ، وكـان استشهاد الحسـين سبطِ النبي المقتولِ في معركة كربلاء نموذجَ هذا الاستشهادِ في الإسلام الشيعي . إن للاستشهاد هنا ، مدلولاً آخر يتجاوز الهزيمة والموتَ ، لأنـه شهادةٌ باسم الحق والعقيدة ، وهـو في حَدِّ ذاتـه ، اسهامٌ بِنُصـرةِ هذا الحق والعقيـدة . وإن نداء « الله أكبر » الذي جَنَّـدَ في إيران ، مـلايـينَ الرجالِ والنساءِ العزّلِ من السـلاح ، في مواجهـةِ جيشٍ مؤمركٍ ، ونصرهم على هذا الجيش بعد استشهادِ عددٍ كبـيرٍ من المؤمنين ، إن

---

(٩٢) آية الله مطهري : من مفكري الثورة الاسلامية في ايران .

هذا النداء كان يُدَوي في التاريخ الاسلامي كله ؟

إنه بَعَثَ الرجاءَ والشجاعةَ لمواجهةِ الاضطهاد والطغيان ، منذ معارك النبي الأولى حتى ثورة المهدي[93] في السودان - في أواخر القرن التاسع عشر - ضِدَّ الرشاشات البريطانية ، وإلى بطولةِ المجاهدين الجزائريين - مرةً أخرى ، ضد قواتٍ عسكرية متفوقةٍ للغاية - التي ادركت انتصارَ العقيدة على السلاح .

ان اللاهوتي المسلم ، علي شريعتي ، أَحَدَ مُرشدي المقاومةِ ضد الطغيان ، في ايران ، كتب سنة ١٩٧٢ : بأن الاستشهادَ ليس بُعْداً اسلاميا فحسب بل هو جوهرُ الاسلام ، الذي يُجَدِّدُ - بلا فصل - المقاومةَ ضد عدو العقيدةِ الخارجي، مع النضال الداخلي، ضد ترددات الأنانية والخوفِ الاكثرِ بهيميةً فينا .

ونحن عندما نحاول عرضَ الأسبابِ العميقةِ لانتشار الاسلام ، وفي ذات الوقت تخليصَ مفهومِ الجهادِ من رُكامِ قرونٍ من التعصب المناوىء للاسلام ، والاستعمارِ والافكارِ العنصريةِ المسبقةِ ضده ، فاننا لا نريد أَمْثلَةَ الاسلامِ التاريخي ، بل - وَبِبَساطةٍ - التذكيرَ بأنه في مبدئه ، يرفض الحروبَ الصليبيةَ ومحاكمَ التفتيش ، تماماً كما ترفضهما النصرانية في مبدئها ، رغم أن الذين اقترفوا بأسمها الجرائم (من نهب القسطنطينية ، ومذابح القدس ، الى محارق

---

(٩٣) المهدي : محمد أحمد بن عبد الله المهدي (١٨٤٣ - ١٨٨٥) سوداني ، فتح الخرطوم . ادعى انه المهدي المنتظر .

(Torquemada)[94] في اسبانيا ، وابادة هنود اميركا) كانوا نصارى وكان ملوكهم ورهبانهم وباباواتهم نصارى صميمين :

ومن الجدير بالذكر ان هذا التسامحَ الاسلامي ، لم يكن بلا خطورةٍ على صفاء العقيدة ، فمنذ أن اغتصبت السلالةُ الاموية الخلافةَ سنة ٦٦١ واستقرت في دمشق ، لم تتأثر بنفوذ الامبراطوريةِ الرومانية البيزنطية ولم تعتمد بُناها ومراتبَها الاجتماعية فحسب بل حصل تحولٌ خطير في التاريخ الاسلامي :

هو أن الأمويين اهتموا بالسلطة السياسية ، في حد ذاتها ، اكثرَ بكثيرٍ من اهتمامهم بمعناها الديني الذي كان موضوعَ اهتمامِ الخلفاء الراشدين الأربعة ، فكان هذا الفصلُ ، تخلياً عن مبدأ الاسلام . ومن ناحية أخرى ، فإن أخلاقاً جديدةً انتشرت ، بعد نقل الخلافةِ من شمالي الجزيرة العربية المتقشفِ الى الترفِ البيزنطيِ في دمشق . فقد تكاثر توزيعُ الأراضي على الحُكَّام العرب ، في الاقاليم المفتوحة : ونشأت ملكياتٌ كبيرة لحساب مواطنين عرب ، يعيشون من العائدات التي يقدمها لهم مزارعوهم الفقراء .

وثقلت الضرائب المفروضة على غير المسلمين، وضَرَبَ الأسيادُ الجُدُد الذين أسسوا سلالةً مالكةً من الأمراء ورثةِ التاجِ ، عملات ذهبٍ وفضةِ الامبراطوريةِ البيزنطيةِ والفارسيةِ، وضَرَبُوا، عرضَ الحائط ، بمبادىء الاسلام ، فَتَحَوَّلتِ الخلافةُ الاسلاميةُ الى

(٩٤) **Torquem ade** : مفتشٌ عام في كل الجزيرة الايبيرية . دومينيكي اسباني (١٤٢٠ - ١٤٩٨) اشتهر ببربريته واللاإنسانية ضد المسلمين هناك ، إذ كان يحرقهم أحياءً .

امبراطوريةٍ عربيةٍ . وانطلاقاً من بلاط البذخ في دمشق ، حيثُ تَصُبُّ كُلُّ ثرواتِ البلاد المفتوحةِ والأنسجةُ والخمورُ والأرقاءُ ، والأعمالُ الفنيةُ ، تَأَصَّلَ الانتشارُ على ثلاثة محاور :

محور آسيا الصُّغرى ، حيث انتهت ثلاثةُ حصاراتٍ للقسطنطينية الى الاخفاق .

ومحور آسيا الوسطى حيث فُتِحَتْ افغانستان سنة ٧٠٠ ، وبخاري[٩٧] بين (٧٠٦ ـ ٧٠٩ م) ، وخوارزم[٩٨] وسمرقند بين (٧١٠ ـ ٧١٢ م) ، وفرغانة[٩٩] بين (٧١٣ ـ ٧١٤) .

ومحور الجنوب حيث بلغ القادةُ العربُ الهندوس سنة ٧١١ ، وافريقيا الشمالية واسبانيا .

يقول Sthendal[٩٦] : نحن الذين كنا برابرة تجاه الشرقِ عندما عَكَّرناهُ بحروبنا الصليبية . ونحن مدينون ـ بالدنيا من نبلٍ في أخلاقنا ـ إلى هذه الحروب وعرب اسبانيا .

وفي سنة ٦٧٠ أُنشِئَ معسكرٌ في القيروان[١٠٠] ، وسقطت قرطاجة[١٠١] سنة ٦٩٨ ، ومراكش[١٠٢] سنة ٧٠٨ ، وفي أيار سنة

---

(٩٦) ستندال : كاتب فرنسي (١٧٨٣ ـ ١٨٤٢) .

(٩٧) بخارى : مدينة في ولاية أوزبكستان ، المقاطعة التي ضمها القياصرة إلى روسيا) مدينة فقهاء وعلماء مسلمين أفذاذ .

(٩٨) خوارزم : بلدٌ مسلم شمال بحر الخزر ضمه القياصرة إلى روسيا .

(٩٩) فرغانة : مدينة من مقاطعة تركستان .

(١٠٠) قيروان : مدينة تونسية ، شهيرة بمساجدها . أنشأها عقبة ابن نافع .

(١٠١) قرطاجة : انقاض مدينة قرب مدينة تونس .

(١٠٢) مراكش : مدينة في المغرب الأقصى ، أسسها المرابطون في القرن الحادي عشر .

٧١١ ، عبر القائدُ العربي طارق بن زياد الى اسبانيا واحتل ـ على رأس نصارى مُنْشَقِّين قرطبة ثم طليطلة . وفي ٧٣٢ تصادمت مفرزةٌ يقودها عبد الرحمن الغافقي العائد ـ على وجه الاحتمال ـ من حملة على (SaintMartindeTour)، في بواتيه[١٠٣]، مع جيش Charles)[١٠٤] (Martel فرسم هذا الصدامُ الحدَّ الأقصى للتقدم الاسلامي باتجاه شمال الغال* ، ولو ان العرب بلغوا في السنوات اللاحقة (Narbonne)[١٠٥] ووادي الرون ومقاطعة (Provence)[١٠٦] المتوسطية .

لقد أشار أناتول فرانس[١٠٧] ـ بدعابة ـ في كتابه Lavie en) (fleur الى معنى معركة (بواتييه) هذه التي أرادَ التاريخُ الغربيُّ أن يجعل منها رمزاً للمجابهةِ بين الشرق والغرب ، كما حصل قديماً لمناوشةِ (Maratton)[١٠٨] بين الفرس والأغريق فقال :

سأل (M. Dubois) مرة السيدةَ (Nozière) عن اليوم الذي كان الاشأم في التاريخ ، فلم تعرفه فقال لها « إنه يومُ معركة بواتييه

---

(١٠٣) **Poitiers** : مدينة تبعد ٣٢٩ كلم جنوب غرب باريس .

(١٠٤) شارل مارتيل : (٦٨٥ ـ ٧٤١) .

* الغال : هي تقريباً فرانسا الحالية .

(١٠٥) **Narbonne** : مدينة على قناة (روبين) المتفرعة عن نهر (أود) .

(١٠٦) **Provence** : مقاطعة قديمة ، ضمت الى فرانسا سنة ١٤٨١ .

(١٠٧) أناتول فرانس : كاتب فرنسي (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤) نال شهادة نوبل سنة ١٩٢١ .

(١٠٨) **Marathon** : قرية تبعد /٤٠/ كلم عن أثينا . تغلب فيها الاثينيون على الفرس سنة ٤٩٠ قبل الميلاد .

عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية سنة ٧٣٢ أمام البربرية الفرنجية » .

لم تكن فرحةُ أناتول فرانس خاطئةً إلّا في تاريخ الحدث ، لأن تَفَتُّحَ ثقافةٍ وحضارةٍ مسلمتين ، لم يبدأ حقاً إلّا بعد ثورة ٧٥٠ لأنها كانت ثورةً بالفعل لا انقلاباً سياسيا فقط ، أو تبديلَ سلالةٍ حاكمة .

ان الاسلام خَلَقَ ، قَبْلَ ازدهار ثقافتِهِ الذاتيةِ ، الشروطَ الضرورية لنهضة الحضارة وتَفَتُّحِ بدايةِ عالمٍ جديد ، بدءاً بخلقِ حيزٍ عالمي للتبادلات التجارية والثقافية ـ من واقع سِعَةِ هذه الامبراطورية الناشئة ـ حيث أخذت تتمازج فيه ثرواتُ وثقافاتُ القارات الثلاث أي اوروبا الهلينية والرومانية ، وافريقيا وآسيا من ايران ، الى الهند والصين .

لقد حمل الاسلام الى هذه الجماعة الهائلةِ ، لغةً مشتركة هي اللغةُ العربية الخليقةُ بنقل كُلِّ قوى الحياة في أقدم وأغنى ثقافاتِ العالم ، الى كُلِّ أراضيها ، كما حمل ، أيضاً ، عقيدةً مشتركةً يستطيع كل انسان أن يجد فيها المنبع دون ان يَكْفُرَ بحكمته أو الهِهْ .

ان تغييراً كهذا ، يُلامس جميع جوانب الحضارة ، فَجَّرَ جميع البُنى القديمة . وإن دعوة الاسلام العالمية ، لا يمكن ان تعبّر عن نفسها ، من خلال حكم الامويين فقط .

ومنذ سنة ٧٥٠ ، برزت ـ مع السلالة العباسية ـ جماعةٌ جديدة عربيةٌ مسلمة ، كان للمسلمين غير العرب فيها ، مكانةٌ خاصة . ووجدت الأمةُ الاسلاميةُ (وليس العَربية فقط) أساسَها الديني ـ وفق اهداف النبي الأولى ـ الذي أُخْفِيَ ، غالبَ الأحيان ، إبّان الحكم

الأموي السياسي . وغيَّر الخليفةُ عاصمتَهُ : فأسس عاصمةَ الامبراطورية ، بغداد ، سنة ٧٦٢ ، على شاطىء دجلة ، قرب طيسفون عاصمة الفرس الساسانيين القديمة ، فكان في هذا التغيير أكثرُ من رمز :

ان البُنى السياسيةَ والادارية والموظفين القائمين عليها ، أقربُ للامبراطورية الإيرانية القديمة ، من نمط حكم الامويين البيزنطي .

ان هذا التحوُّلَ العميق تجلّى بتغيير السياسية الخارجية والداخلية :

ففي الخارج لن يكون ، من الآن فصاعداً ، « فتح » كبير ، بل دفاعٌ عن الحدود ، وفي داخل هذه المساحة الجغرافيةِ الشاسعة انطلق ، بالمقابل ، توسعٌ تجاري لا مثيل له : اذ بلغ التجار المسلمون القادمون من بغداد الى الهند ، عن طريق البصرة ، وأنشأوا فيها وكالاتٍ تجارية واتصلوا بتجار الصين، ووطدُّوا، عن طريق البر، اتصالاتٍ كبيرةً مع سوريا ومصر ، وكذلك مع آسيا الوسطى والصين ، عبر ايران .

وأخيراً فإن البحر الأبيض المتوسط الذي تنتهي اليه دروبُ القوافل الصحراوية ، أصبح بعد فتح صقلية وكريت ، بحيرةً مسلمةً ، كما ان البوصلة والسُّكَّانَ(١٠٩) هَيَّئا للمسلمين ـ ولقرون عديدة ـ تفوقاً بحرياً مطلقاً .

قال ابن خلدون(١١٠) »لقد تَغَلَّبَ المسلمون ، طيلةَ هذه الحقبةِ ، على

---

(١٠٩) السُّكَّان : دفة السفينة .

(١١٠) عبد الرحمن بن خلدون : ولد في تونس سنة ١٣٣٢ وتوفي في القاهرة سنة ١٤٠٦ . مات أبواه بالطاعون سنة ١٣٤٩ . اشتهر بمقدمته .

أكبر قسمٍ من البحر الأبيض المتوسط ، وكانت أساطيلُهم تجول فيه ، وفي كل الاتجاهات (. . .) أما النصارى ، فلم يتمكنوا حتى اليوم ، من تقويم ألواحٍ خشبية فيه .

ومنذ سنة ٧٥٠ م حتى منتصف القرن الحادي عشر ، أي حتى اللحظة التي تضاعفت فيها التهديداتُ على طرفي الامبراطورية (تهديدات الأتراك في إيران وبغداد ، والنصارى في فلسطين وأسبانيا التي انهارت فيها خلافةُ قرطبة) عَرَفَت السيادةُ العربيةُ الاسلاميةُ ، ثلاثةَ قرونٍ بلغت فيها الذروةَ ، وحملت الى الحضارة العالمية ، أوَّلَ مساهمةٍ رئيسيةٍ ، في جميع مجالات الثقافة .

وقبل دراسة الحقبة التي مَهَّدَ الاسلام ، فيها ، للانبعاث الغربي ، وقبل أن يُحقِّق الاسلامُ انبعاثَه الذاتي ويشُق ، اليوم ، طريقَ مستقبلٍ جديد ، سنحاول تقويمَ ازدهاره الأول .

ملحمة الايمان : الصوفية

ان التصوفُ بُعْدٌ من العقيدة الاسلامية : إنه بعدُها الداخلي . وكلُ محاولةٍ لجعله ـ منحىً مُستقلاً او مهمةً منفصلةً ، تُحُطُّ من قيمته : وإن فصلَ التأمل عن العمل ، والداخلَ عن الخارج ، يخالُف الاسلام ، دينَ « التوحيد » .

والتصوفُ شكل من الروحية اسلاميٌّ نوعاً ، وهو في جوهره ، توازنٌ بين الجهاد الاكبر (أي النضال الداخلي ضد كل رغبةٍ تحرفُ الانسانَ عن مركزه) والجهادِالأصغر (أي العمل لتوحيد وتنسيق الامة المسلمة ضد جميع أشكال وثنية السلطات ، والثروات والمعارف المزيفة التي تُبعدها عن سبيل الله) .

ولذا ، فمن الخطأ مماثلةُ التصوف الاسلامي بالتصوف المسيحي أو بالتأمل الهندوسي . ومما لا شك فيه أن اتصالاتٍ وتبادلات حصلت ـ بسبب انتشار الاسلام ـ مع آباء الصحراء وتَصَوُّفهم النصراني ، ومع

غنوصيي الاسكندرية وكتابات افلوطين[111] ، وحِكَمِ الهند والنسك البوذي ، وأن هذا التلاقح تمكّن من إثراء رؤ يا كل منها ، ولكن منابعَ التصوف العميقة تبقى في القرآن .

ولكي نُلفتَ الى هذا الجانب ، لِنَقُلْ بوضوحٍ كلي إن كتاب (ماسينيون)[112] الرائعَ نفسه ، قد انزلق الى جعل الحِلّاج ، في تَصَوُّفِهِ ، قريباً من التصوفِ النصراني ، عندما شَدَّد فيه ـ من خلال أعمال حسين منصور الحلاج ـ على حياةِ هذا الاخير وموته في بغداد سنة ٩٢٢ وعلى قداسة هذه الحياة واستشهادِه و « آلامه » وابتعادِه عن العمل السياسي ، ومسيحيته[113] وتمجيد الحب الالٰهي .

لكنَّ بين التصوف الاسلامي والتصوف المسيحي ـ أيةً كانت عظمةُ الواحد أو الآخر ـ فرقاً أساسياً في الهدف والمنهج .

ان التصوف النصراني حوارٌ مع شخص المسيح الذي يَحُلُّ اللهُ بواسطته في حياةِ النصراني . غير أن يسوع لم يكن سوى نبيٍ عظيم بالنسبةِ للمسلم ، لأن الله لا يكشف عن ذاته ، بل يكشف كلامه وشريعته . وإن الاعتقاد بأن الكلمة صارت جسداً « أو اطلاقَ اسم « الأب » على الله هو ، عند المسلم اساءةٌ لسمو الله .

---

(١١١) أفلوطين : (٢٠٣ ـ ٢٧٠) زاهد وصوفي وفيلسوف ، ولد في مصر ، وحاول التوفيق بين الفلسفة اليونانية والمعتقدات الدينية الشرقية ، جمعت تعاليمه تحت عنوان Ennéades .

(١١٢) ماسينيون : مستشرق فرنسي (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢) تعمق في بحث التصوف ، وبخاصة الاسلامي .

(١١٣) مسيحيته ـ اعتقاد يختصر بانتظار مجيء المسيح .

فـلا تماثُـلَ بين الخـالق والمخلوق ، ولا يملكُ أحدٌ ـ حسب بعض المتشددين ـ التكلمَ عن « حب الله » .

ان بعض التماميين المسلمين ، عابَ على المتصوفـين ، استعمالهم هذا الاسلوب وعنايَتهم بهذه التجربة .

ومع هذا ، فـان حُبَّ الله للانسـان ، وحبَّ الإنسان لله ، ليس غريباً عن الاسلام .

يقول القرآن الكريم : « قل ان كنتم تحبون الله ورسوله فاتبعوني يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفـور رحيم » (سورة آل عمران ، آية ٣١) .

ويقول : فسوف يأتي الله بقوم يُحبهم ويُحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (سورة المـائدة آيـة ٥٤) . ولا يمكن ، مع ذلك ، أن توجد هذه الالفة مـع الله ، التي يتميز بها أكابرُ الصوفيين النصارى .

وبالمقابل ، فان في مسيرة الصوفي المسلم ، مرحلةً ساميةً ، لا تبدو له الشريعة فيها أمراً خارجياً عنه بل مكاناً وصل فيه الى قدرٍ من انطفاءِ رغباتهِ ، يُمَكِّنُ ارادةَ الله من مـلء كلِ كيـانه : أي أن هـذه الارادةَ تصبُح مركَزَ ذاته . تلك هي الحريةُ العليـا للصوفي الـذي لا يعمل ، بعد بلوغها ، إلاّ من أجل الكل ، ووحدة الكل .

وإن مناهجه تختلف أيضا عن مناهج التصوف النصراني :

انه لا يستطيع البقاء مستغرقاً في هذا التأمل المُوحِّد . انه يستمد،

فقط ، من هذه التجربة التي مرّ بها ، في الوحدة السامية ، القوةَ لتوجيه عمله نحو «الأمر بالمعروف» وتحقيق وحدةِ البشرِ والوصاية على الأشياء ، لأن الانسان كما يقول القرآن ، في الآية ٣٠/ من سورة البقرة ، خليفةُ الله على الأرض المسؤولُ عن توازنِ وتناسقِ الطبيعة ، كما هو مسؤولٌ عن الناس . وإذَنْ فانَّ برهةَ التأملِ هذه ، هي البرهةُ التي يجمع الانسانُ ويبأورُ ، فيها ، قُوىً قادرةً على هَزِّ العالم .

ولا ريب ، أن ثمة نقاط تلاقٍ وصلاتٍ بين الصوفية النصرانية والتصوف الاسلامي :

كضرورة الزهد ، عند الواحد منهما أو الآخر ، وهو التعليم الدائم لدى الصوفيين . فأبو الحسن النوري[١١٤] يقول في تعريف المتصوفين : « انهم لا يملكون شيئاً ولا شيء يملكهم » . ويقول الجنيد[١١٥] : « التصوف هو ان يميتك الله في ذاتك لتُبْعَثَ فيه » ويقول ابو يزيد[١١٦] البسطامي : « عندما تنمحي الأَنا ، عندها يكون الله مرآةَ ذاته في ذاتي » .

وهنا نجد تعليماً قرآنيا يقول :

« أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون». (سورة الانعام آية ١٢٢). وبعد الزُهد، يصبح

---

(١١٤) أبو الحسن النوري .

(١١٥) الجنيد : أبو القاسم الخراز ـ زاهد بغدادي ، توفي سنة ٩١٠ .

(١١٦) ابو يزيد البسطامي : طيفور بن عيسى شروسان ـ من بسطام .

ممكناً حصولُ حب أصيل ، لا يكون بعدها ، حبَ اشتهاءٍ أناني ، بل حب عطاءٍ وإيثار .

وإذن فَتَرْكُ الناس يعتقدون أن هذا الحب ، بشكله الرفيع ، غريبٌ عن الإسلام ، يعطي صورةً كاريكاتوريةً عنه . إن الاسلام عكس هذا تماماً - كما سنثبت في معرض البحث في الشعر الاسلامي - فابن داود[117] البغدادي ، وابن حزم القرطبي[118] ، وروزبهان الشيرازي[119] سبقوا ، بل ربما ألهموا « دانت » في (Les fideles d'amour)[120] و شعراء (Occitanie)[121] الجوالين في (L'amour courtois) (وهذا إسهام اسلامي - نوعياً - في الازدهار الانساني) . ومع صوفيي الاسلام ، تجدنا بعيدين جداً عن المفهوم الافلاطوني للحب ، او مفهوم (Phédre) أو (Banquet)[122] الذي ننتقل بمقتضاه ، وبسيرٍ متواصلٍ ، من حُب جمالِ الاجسامِ الى حُب جمال الارواح ، ومن ثم الى الجمال في ذاته ، جمالِ الخير . والإسلامُ لا يمكن أن يتلاءم مع ثنائيةِ الروح والجسد ولا يمكن - بخاصةٍ - للتسامي الاسلامي أن يقبل هذا التواصل :

---

(١١٧) ابن داود البغدادي : خراسان (٨٠٤ - ٨٧٥) .

(١١٨) ابن حزم القرطبي : علي ابن أحمد المعروف بابن حزم ، ولد في الأندلس (٩٩٤ - ١٠٦٤) .

(١١٩) روزبيهان الشيرازي : صوفي فارسي (١١٢٨ - ١٢٠٩) .

(١٢٠) **Les fidèles d'amour** : المخلصون للحب ، أو العُشّاق .

(١٢١) **Occitanie** : مجموعة البلاد التي تتكلم لهجة ٥٢ وهي المقاطعات الفرنسية القريبة من البحر الأبيض المتوسط .

(١٢٢) **Phédre et Banquet** : حواران من اصل ثلاثين حواراً لأفلاطون .

كتب روزبيهان الشيرازي (١١٢٨ ـ ١٢٠٩) في كتابه ـ ياسمين العشاق ـ « إن الوجود الإلٰهي هو ذاته الحبُ والمحبُ والمحبوبُ ، منذ ما قبل وجود العوالِمِ وحدوثِها » . ثم وبعد أن دَلَّ على الطريق قال روزبيهان : « ليس هناك سوى حبٍ واحد ، وعلينا ان نتعلم قراءةَ قانونِ الحب الالهي ، في كتاب الحب الانساني » .

وهكذا فإن روزبيهان ، الذي يرى الجمالَ البشري « أيقونة » الجمال غير المخلوق ، حَوَّل الحب البشري الى ما هو أبعدُ من الاشتهاءِ فقال : « ان الصوفيةَ تتعارض مع الاباحة » . وقد شرح (Henry Corbén) ذلك بقوله :

الحبُ لا ينتقل من موضوعٍ الى آخر ، ومن موضوعٍ إنساني الى موضوع الٰهي ، ولكنه استحالةُ الذات التي تتكامل . ثم أضاف لدى ذكره قصيدةَ المجنونِ وليلى ، للنظامي والجامي ـ حيثُ يكون المجنونُ ممتلكاً « بجنون الحب » ويصبح « مرآة الله » .

« ان الله ذاته يتأملَ ملياً وجْهَهُ السرمدي ، في نظرة المحب الى حبيبه » .

وقد عبَّرت عن هذه التجربة في الحب الإلٰهي أمرأةٌ شهدت في القرن الثامن ولادةَ الصوفية ، هي رابعة البصرية[١٢٣] التي كتبت قبل القديسة الكبيرة (Thérese d'Avila)[١٢٤] بمثانية قرون :

أحبك حبين ، حب الهوى وحباً لأنك اهلٌ لذاكا

---

(١٢٣) رابعة البصرية : هي رابعة العدوية (٧١٤ ـ ٨٠١) عاشت في المنسك .

(١٢٤) Thèrèse d'Avila : راهبة اسبانية ولدت في افيلا (١٥١٥ ـ ١٥٨٢) ، متصوفة ، وعاصرت القديس Jean le la croix .

فأما الـذي هـو حُبُ الهـوى فَشُغْـلي بـذكـرك عَمَّن سـواكـا
وأمـا الــذي أنتَ اهــلٌ لــه فكشفُك لي الحُجْبَ حتى أراكا
فــلا الحمــدُ في ذا ولا ذاك لي ولٰكِنْ لَـكَ الحمـدُ في ذا وذاكـا

وأخيرا فان نقطة التلاقي الثالثةَ بين التصوف الاسلامي والتصوف النصراني ، بَعْدَ الزهد والحب ، هي الشعرُ .

ان التصـوف ولـدّ بعضِ أرفـع الأعمـالِ الشعـريـةِ العـالميـة . وسأستشهد هنا بعملٍ واحد هو إحـدى قمم الشعر إن لم يكن قمـة الشعـر في العـالم ، إنـه عمـلُ جـلال الـدين الـرومي (١٢٠٧ - ١٢٧٣) . فمثنوي جلال الدين الرومي - هذا التأملُ الشعريُ الرائعُ في القرآن - يُعبِّرُ لنا ، بلغة الشعـر ، عما لا يمكن التعبيرُ عنه بـوجهٍ آخر : أي ذلك الذي يَجِلُّ عن الوصف ولا يمكن تحديده بالتصور ، بل بالدلالة عليه بالرمز فقط (مثـل القديس (Jean de la Croix) الــذي بــدأ مـؤلَّـفَـيْــه (Lanuit obscure) و La Monteé du Carmel) أو (Lavie en flamme)[127] بقصيـدةٍ يـدور المُؤلَّفُ كلهُ حَلْ شرحها ، لينقل الينا تجربتهِ التي تفوق الوصف) .

ان ميزةَ الشعر الكبـرى ، وميزة المـوسيقى والمسجد ببـريقِ ضياءِ قبـابهِ ، وتـرتيلَ القـرآن ، والكاتـدرائية بنشيـدَها الغـريغوري[128] وزجاجاتها هي في خلق مشاركةٍ حيَّةٍ في تجربةٍ عميقةٍ واحدة ، وتألُقِ

---

(١٢٧) الحياة مشتعلة .

(١٢٨) غريغورية : نسبة للبابا غريغوار (٥٤٠ - ٦٠٤) الذي نظم بعض التراتيل الدينية .

الحياةِ بالفن ، أي في خلق أقصرِ طريقٍ بين إنسان وآخرِ .

ولكن هذه التماثلات مع الصوفية النصرانية ، لا ينبغي أن تحجبَ ميزةَ التصوف الاسلامي كتعبيرٍ عن التقوى الاسلاميةِ ، أي برهةِ تأملٍ داخلي في المنظور الإجمالي لعمل نَظَّمَتْهُ الشريعةُ الإلٰهيةُ من أجلِ صياغةِ الجماعةِ الانسانية .

ومهما كانت مثيرةً ـ بالنسبة لبعض النصارى ـ روحيةُ كبارِ الشعراءِ الصوفيين ، كأنا شيد جلال الدين الرومي أو ديوان الحلاج ، فلا يسعنا أن ننسى بأن الإسلامَ لا يُمكِنُ أن يُنْظَرَ اليه من خلال الحلّاج بل من خلال القرآن ونَبِيِّهِ ، وأن الصوفيةَ ليست سوى جانبٍ من حياةٍ تأمليةٍ فاعلةٍ مناضلةٍ ، كما كانت عند محمد وعلي وعبد القادر .

لقد حدَّد ابن خلدون ، في مقدمته ، موقع الصوفية في المنظور الإجمالي للاسلام فقال : « ان التصوف شكل من أشكال معرفةِ الشريعةِ التي نشأت في الإسلام .

وإليك أصله :

إن السبيلَ الذي تبعه المتصوفةُ ـ من اصحاب النبي واتباعهم وأخلاف هؤلاء ـ كان دائماً سبيلَ الحقيقةِ والعملِ الصالح . وهو يقوم على الممارسة الدَقيقة للتقوى والايمان المطلق بالله ، والابتعاد عن تفاهات العالم ، واللذات ، والثروات ، والأمجاد التي يبحث عنها سوادُ الناس ، والانقطاعِ الى الصلاة في فترات الخلوة بعيداً عن العالم .

كل ذلك كان معروفاً بين اصحاب النبي والمسلمين الأولين . « وبعدها ، وبدءاً من القرن الثاني للهجرة (القرن الثامن للميلاد)

تفشّى الميلُ لأعراض الدنيا وانصرف الناس الى المُتَعِ الأرضية ، فاطلق اسم اولئك صوفيين على الذين ذهبت طموحاتهم الى أبعد من ذلك . . . إن الصوفيين يتميزون بالتقشف والزهد والتقوى . ثم انهم طوّروا نوعاً خاصاً من المعرفة : هو الوجد . . . والمريدُ الصوفي يتقدم من مقام الى آخر حتى يصل الى تجربة الوحدة الالٰهية (التوحيد) » .

فيتحصل ، بوضوح ، من تحليل ابن خلدون التاريخي ، أن التصوف لا يمكن أن يكون « اختصاصاً » يَفْصِلُ التأملَ عن العمل ، بل إن غايته هي - على العكس - وعيٌ أعمقُ للوحدة الإلٰهية وتنسيق الارادة الانسانية ، قُدُماً ، مع إرادةِ الله .

لقد اهتم سقراط بالانسان فقط ، دون ان يكون لله والطبيعة دورٌ جوهري . وآخرون ، من (Lucrèce)[129] الى (André Cide)[130] ذَوَّبوا الانسانَ في نسيج الطبيعة او في مَدِّ الرغبات . وأخيراً انصرف غيرهم ككثير من متصوفي النصارى ، من آباء الصحراء الى فئات الرهبان المتصوفين - انصرفَ كلياً الى معرفة الله التوحيديةِ ، دون أن يسعى الى التدخل في بناء الأمة . وأما كلياً الى معرفة الله التوحيديةِ ، دون أن يسعى الى التدخل في بناء الأمة . وأما في المنظور القرآني ، فإن الانسان ليس خليفةَ الله على الأرض المسؤول عن الطبيعة وتوازناتها ، على المستوى العالمي فحسب ، بل إن عقيدته هي أساسُ عمله وقوانينُ جماعته . وإن السياسة والاقتصاد

---

(١٢٩) Lucrèce : شاعر لاتيني ، ولد في روما (٩٨ - ٥٥ قبل الميلاد) .
(١٣٠) Andre ' Gide : كاتب فرنسي (١٨٦٩ - ١٩٥١) .

والعلم والفنون ، لا يمكن ان تنفصل عن العقيدة التي تُحَدِّدُ لها أغراضَها الإلٰهية والانسانية ، وان الحياة ، في جميع أبعادها تجد وحدتَها في الله . « هو الأولُ والآخرُ ، والظاهرُ والباطنُ ، وهو بكل شيء عليم » (سورة الحديد ، آية ٣) . إن ميزةَ جميع التصوف ـ انطلاقاً من هذه الرؤية القرآنية لله ، ـ هي أن تجعل من الانسان كلّاً ، بدمج جميع أبعاده ، واعادتها كلها ، الى مركزٍ واحد .

والانسانُ المُجَزَّرُ بشهواته والاغراءاتِ الخارجيةِ مُهَدَّدٌ دائماً ، بالتبعثر في الكثرة . لكن الصوفية تعكس هذا الإتجاه .

إن الوصول الى هذه الوحدة ، أي الى مركز الذات هذا ، هو العاملُ الاولي في تنشيط وإحياء الجماعةِ المسلمة .

إنه « أي التصوفِ) لا يدعو الى الانعزال عن العالم : بل يقود الى التَجَرُّدِ الداخلي الذي يُتيح ـ وحده العملَ الحقيقي ، العمل الذي نُتِمُّهُ ، تبعاً « للكل » وليس تبعاً لمقاصدنا الانانية ومتعاتنا وأطماعنا .

وهناك أكثر من تشابهٍ ، بل ربما بُنُوَّةٌ غيرُ مباشرةٍ بين هذا التصور الاسلامي للعمل ، وتصور (Spinozza)[١٣١] : العمل لصالح الكل والانتقال من علم الاخلاق والآداب الى الدراسة اللاهوتية ـ السياسية . ولعل هذا هو ما استخلصه سبينوزا من المأثور الاسلامي وبخاصة من المدينة الفاضلة للفارابي (٨٧٢ ـ ٩٥٠) عبر الفيلسوفِ اليهودي موسى الميموني (١١٣٥ ـ ١٢٠٤) .

ان مصدر الصوفية هو في القرآن . وان استبطان القواعد الاساسية

---

(١٣١) **Spinozza** : فيلسوف هولندي يؤمن بوحدة الوجود (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) .

للاسلام ، لا يكون بالابتعاد عنها ، بل ـ على العكس ـ بأن نحياها ، بوعي أعمق لمعناها .

وأعود فاذكر بهذه القواعد :

١ ـ **الجهرُ بالايمان** : وهو وسيلةُ تمييز الحقيقي من الظاهرِ غير الحقيقي ، وفي جزئه الأول : « لا آله الا الله » الذي هو ، في جزئه الثاني : « محمد رسول الله » ، رَبْطُ كل شيء في الطبيعة والتاريخ ، بمبتداه ومنتهاه أي بالله ، لأنه رسالته و « آيته » .

٢ ـ **والصلاة** : هي شعور بالتبعية لله ، وعكسُ كل كفاية ، أي كلِ ادعاءٍ بالتقيد في حدود قدرةِ ومعرفة الانسان فقط ، وهي انتظارٌ ، لظهورِ ما ليس نتيجة أو مصلحةً لقوىً عاملةٍ في الماضي .

٣ ـ **والصيام** : هو تأكيد القدرة التي يملكها الانسان لانتزاع ذاته من مدّ المتطلبات البهيمية .

٤ ـ **والزكاة** : التي تدمج الحياة الاقتصادية بالحياة الروحية ، تشير الى التضامن الاجتماعي مع العقيدة . (إن كلمة الزكاة في الأصل وطبقاً للاشتقاق تنطوي على فكرة الطهارة ، وهي تطهيرٌ للمال) .

٥ ـ **والحج** :هورمز المسير ـ عبر المراحل الصوفية ـ نحو حرية الله المطلقة ، بالنسبة لمن يخضع لمشيئته . وفي المعراج ، عندما عرج النبي الى السماء ـ في ليلة القدر التي يصبح كل شيء فيها ممكناً ـ تكشّفت له الحقيقةُ قبلُ الاخيرة (لأن الله لا يكشف عن ذاته بل يكشف كلامه فقط) .

والايمان بالله هو اعادةُ دمج كياننا المبعثر بالوحدة والحرية الالٰهيتين ، اللتين هما مصدرُه ، وهو المشاركةُ بشريعةٍ تهدف الى غايةٍ

أخيرةٍ هي الجماعةُ العالمية المنسجمة : « كان الناس أمةً واحدةً ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً منهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بأذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم (سورة البقرة ـ آية ٢١٣) .

وما كان الناس الا أمةً واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمةً سبقت من ربك لقضي بينهم فيما يختلفون (سورة يونس آية ١٩) وفي ختام مسيره ، يعي الصوفي ويعرف ما هو عليه الانسان وما هو عليه العالم ، والهوةَ التي تفصله ، بعدُ ، عن الله .

إن فهم الحياة في مجموعها هو ، قبل كل شيء ، استيعابُ حقيقةِ أن الكون ليس لعبةَ قوى لا واعية ودون هدف ، ولا اختباراً خارجياً للأحداث فقط ، بل اكتشافٌ داخلي للمعنى .

كتب الصوفي المصري ذو النون[١٣٢] سنة ٨٠٦ فقال : « يا الٰهي أنا لا انحني لاصغي الى صوت حيوان ، والى حفيف الاوراق في الشجر ، وخرير الماء ، وزقزقةِ العصافير ، ولا أُرهف سمعي قط الى دعوة الظل المحببة ، والى دَوِيِّ الريح وزمجرةِ العاصفةِ الا وأجد بأنها تشهد لك ، بأنك الأحد » . (مختارات الصوفية لحواء بروفيتش) . والإنسان ، الذي يُصبح كاملاً في خاتمةِ المسيرةِ الصوفيةِ ، هو الانسان العالمي ، أي العالم الصغير : « إعلم أن

(١٣٢) ذو النون المصري : اسم ثوبان (٧٧١ ـ ٨٥٩) من النوبة . متصوف .

الانسان العالمي يحمل في ذاته توافقاتٍ مع جميع حقائق الوجود » . ولا تُكْشَفُ فيه جميعُ مستويات الوجود الكوني فحسب ، بل الانسانيةُ في مجمل تاريخها وثقافاتها . « إن صفته كانسان تُعَيِّن طبيعتَه الجامعةَ (التي تتضمن ، تقديرياً ، كلَّ الطبائع المخلوقة الأخرى) . وقابليتَه لاحتضان جميع الحقائق الجوهرية (. . .) هذا هو الانسان ، الحادث الأزلي والنشيءُ الدائم الأبدي ، على الدوام ، (. . .) بوجوده اكتمل الكون (. . .) ويرى نفسه بأنه مؤتمن على الصيانةِ الالٰهيةِ للعالم .

إن خيار الصوفي هو أن يجعل نفسه مكاناً لتجلي الله ، حتى يصبح ذلك الكائنَ البسيط المستقيمَ ، شبيهَ قصبةٍ تمر فيها نسمةُ الله وتغني .

« لا يوجد ، في الكون كله ، مكانٌ لتجلي الوحدة ، أكمل منك عندما تبلغُ مركز ذاتك ، بعد أن تكون قد قطعت كل ما يربطك (. . .) وما من واحدةٍ من جميع الصفات الالهية ، ولا واحدٍ من الاسماء الالهية المخلوقةِ ـ التي تخصك ـ يرجع بعدها اليك . إن حالَ الانسان هذا أكملُ مكانٍ في الوجود لتجلّي الوحدة » (لابن عربي في فصوص الحكم) .

وأخيراً ، وفيما يتصل بالله ، فان ابن عربي (رَسَمَ في الفصل المخصص لنوح من كتابه فصوص الحكم La sagesse des prophètes منهجين للكلام عنه :

١ ـ منهج اللاهوت السلبي ، (أي التنزيه) الذي يُشدِّد على سمو الله ، ويُبعِدُ عنه كل مشابهةٍ مع كائنٍ من كان .

٢ ـ ومنهج المماثلة (أي التشبيه) الذي يُعَرِّفُ الله بواسطةِ رموزٍ

وصورٍ مستعارةٍ بالضرورةِ ، من عالم المثولية .

فإن قلتَ بالتنـزيه كنت مقيـداً وان قلت بالتشبيه كنتَ مُحدِّدا
وان قلتَ بالأمرين كنتَ مسدداً وكنت إماماً في العلوم وسيِّـدا

ولكن الله يظل في سره الخفي ، بعيداً عن هذه الجـدليةِ ، وهذين المنهجين المتلازمين والمتنافيين في وقتٍ واحد .

إن تعاسة تاريخ الديانات المقارن تَكْمُنُ في أنه يحمل في الغرب ، طابعَ العصر الذي كُتِبَ فيه ، أي طابعَ عصر العقلانيـةَ الوضعية ، ويَستبعدُ ـ مبدئياً ـ كل ما يتجاوزه . في حين أنـه (أي التاريخ الغربي) يقف في مواجهـةِ الاسلام ، بـديلاً عن نصـرانيةٍ عقديةٍ متعصبةٍ تعلن صحة كشفها وترفض صحة كشف الاسلام .

إن وجهة نظر القرآن وأبرز مفكـري الاسلام ، كـانت مختلفةً ، وبخاصةٍ ، فيما يتعلق بأهل الكتاب . فالقرآن لا يفتأ يُكَرِّرُ بأن الله أرسل لكل شعبٍ رُسُلَه :

« ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فـاستبقوا الخيـرات ، الى الله مرجعكم جميعـاً فينبئكم بمـا كنتم تعلمون » (آية ٤٨ من سورة المائدة) .

وكذلك فإن ابن عربي ، جهـد في كتابـه « فصوص الحكم » ، (من آدم الى ابراهيم ومن موسى الى عيسى ومحمد) في تحديـد مساهمةِ كلِّ نبيٍ في الكشف الإلٰهي .

كتب الغزالي : لقد سمعتُ هذا الحديث عن النبي « كُلُّ مولودٍ يُولد على الفطرةِ فأبواه يُهَوِّدانه ، أو يُنَصِّرانه ، أو يُمَجِّسانه » .

ولقد تأكدت بأن أولاد النصارى لا ينشأونَ إلَّا على النصرانية ، وفتيانَ اليهود إلَّا على اليهودية ، وصغارَ المسلمين إلَّا على الاسلام - (المنقذ من الضلال) .

نحن نؤثر ، باختيارنا ، النهجَ الاسلامي ، على المناهج التي يقال عنها إنها « علمية » (هذه المناهج التي تجهلُ مُسَلَّماتها الذاتية ، وتحديداً المُسَلَّمَةَ الوضعية ، التي تستبعد - قبلياً - كل امكانيةٍ لوجودِ كينونةٍ فوق الوجود المادي ومفارقةٍ له ، أي على الاقل ، ظهورَ جديدٍ ، جذرياً ، في التاريخ ، وتنغلق في حكمٍ مسبق مفادُه ان شيئاً ما لا يولد اذا لم يكن نتيجةَ وحصيلةَ الماضي .

نحن ندرس الديانات ، في بداءةِ الأمر ، انطلاقاً من التجربةِ وشهادةِ الذين يؤمنون بها . وعلى هذا الاساس يُمْكِنُنَاْ - على مستوى العقيدةِ - تقديرُ إسهامِ الاسلامِ الممكنِ ، في حيواتنا الحاضرة .

ان الذي يُمَيِّز حيواتنا ، حالياً - في نمط التنمية الغربي ونمطِ الثقافة التي تدعمه ، هو تَفَكُّكُ الانسان وتفتتُ المجتمع . وإن الانسان الغربي قد أضاع كل وحدةٍ ، في علاقته مع الطبيعة ، والمجتمع والله ، وانفصل عن الطبيعةِ التي ظن ، أنه سيدُها ومالكُها : واعتبرها ، تأسيساً على هذا الظن ، خَزَّاناً للمواد الاوليةِ ومستودعاً للفضالات ، وعَبَثَ بها - دون حياءٍ - عبر تقنياتٍ أعطته القدرةُ على تخريب الأرض وما عليها ، ولم يَبْقَ لها عنده أي « معنى » .

والنصرانيةُ - بسبب تَحَفُّظِها الأَوَّلي تجاه الطبيعة ، وانضمامِها

منذ القرن الرابع للثنائيةِ الاغريقية ، وتراجعاتِها المتعاقبةِ منذ الانبعاث أمام « علمويةٍ » تزعم أنها تحل جميعَ مشاكل الحياة ـ لم تُساعد الانسانَ على الاحتفاظ بهذا البعد الكوني ، وذلك الاتحادِ المحببِ ، مع جميع الكائناتِ ، الذي عَرَفَ القديسُ François) (d'Assise وحدَهُ تقريباً ـ في التقليد النصراني ـ كيف يحفظهما .

والاسلامُ يستطيعُ مساعدتَنا على إدراكِ هذه الوحدةِ التي هي عقيدتُه المركزيةُ والأوليةُ ـ عندما لا تحرفه الرؤيةُ الغربيةُ المشوهةُ المفروضةُ عليه من الاستعمار .

والانسان في مجتمعاتنا الاوروبية ، محكومٌ عليه بالعزلة والإنفراد عن باقي الناس بفردانيةٍ لا تزال تتفاقم منذ « عصر الفاتحين » (أي المغامرين الأسبان الذين غزوا اميركا) حتى الانحطاطِ الأخير « للجماهير المنعزلة » بسبب اتساع المنافساتِ الضاريةِ في اقتصاد العرض والطلب وسحق الأكثرِ حاجةً من قبل الأقل ذمةً ، وتقنيات الطمع والرغبة والشهوة التي تجد التعبير الفظ عنها في الدعاوة ودراسة السوق ، التي تضيف حاجات مصطنعةً كبدائلَ حقيقةٍ عن الرغبة الأنانية . إن اسلوب الحياة هذا ، يُولدُ ، العنفَ ، بالضرورة ، وبخاصةٍ لدى الفتيان المحرومين من أشياء عُلِّمُوا على تَمَنِّيها ، في حين أن المنعم عليهم ـ ورثةَ الثروة والمعرفة ـ يمتلكونها بالمضاربة أو بالخداع .

إن اعلان حقوق الانسان والمواطن أعلن أن « حريتي تقف حيث تبدأ حريةُ الغير » . فحريةُ الغير اذن ، تعتبر حداً لا شرطاً لحريتي الخاصة . والحرية تكون اذن ، حالةً خاصةً من الملكية « مسجّلة »

مثلها . إن فردانيةً كهذه ، تهيء ، بالضرورة ، حرب الجميع ضد الجميع ، حتى تحين اللحظةُ التي تتحول فيها ، وبمنطقها ذاتـه ، الى ضدها ، أي « الكليانية »(١٣٣) (الشمولية) :

إن فرداً من مجموعةٍ منتصرةٍ ، يرأسها ويصبح رمزاً لها ، يمسخ جميعَ الآخرين خداماً للمجموع الوهمي ـ دولةً كان أو حزباً أو أمة أو طبقة .

وإن مجتمعاتنا الغـربية (وتلك التي صيغت على غـرارها ، في العالم الثالث ، أو تلك التي تُقَلِّدُها) لا تزال تتذبذب ، منذ أربعة قرون ، بين فردانية الغاب وشمولية المـأرضة(١٣٤) . ان النصـرانية في هدفها الاسـاسي والأول كانت تحمـل تريـاق هذه الفـردانية ، بمفهومها الثالوثي عن الشخص ، القائل بأن مركزي ليس في ذاتي بل في الآخر وفي كل آخر ـ ترياق هذه الفردانيـة ـ لكنها وبعـد أن قبلت ضـلالات الثنائية الاغريقية ، على نطاق واسع ، لدرجةٍ انها فَسَّرت التعارض بين الله وقيصر ، (هذا التعـارض الذي كـان في مبدئه ، معارضةً جذريةً لرغبات قيصر الشمولية) بأنه ثنائيةُ العقيدة (الدين) والسياسة ، وتركت لقيصر ، منذ قسطنطين سلطةً مـطلقةً في الحياة السياسية والاجتماعية بل إنَّها ساعدته ، في مهمته ، لأنه جعل الدِّين ـ بهذه الثنائية الباردة ـ شأناً خاصاً لا دخل له في تنظيم

(١٣٣) الكليـانية : نـزعة نـظام كلياني وهـو نظام سيـاسي ذو حزب واحـد لا يقبل أيـة معارضة ، وتسيطر فيه السلطة السياسية على جميع مظاهر الأمة وطاقاتها المنتجة .

(١٣٤) المأرضة : مكـان تعيش فيه دويبـات تقرض الاعشـاب في البلاد الحـارة وتخضع لسلطة (ملك وملكة) منها .

شؤون الأمة . وهكذا أصبحت السياسة مستقلة ، تحمل في ذاتها غاياتها الخاصة ، دونما صلةٍ بالإنسان او الله .

والاسلام ، إذ يرفض ثنائيات الدين والسياسة ، الخاطئة ، وينهانا عن مزج العلاقات بين السياسة والدين (التي هي علاقاتٌ بين بعدين إنسانيين) مع العلاقات بين الكنيسة والدولة (التي هي علاقاتٌ بين مؤسستين تاريختين) ، ويربط التسامي والأمة ، برباط لا ينفصم ، يستطيع ، مساعدتنا على إعادة احياء النصرانية ذاتها والتغلب على أزمة تفكك اللحمة الاجتماعية .

وأخيراً فإن الاسلام يستطيع أن يأتي ـ في علاقاتنا مع الله أي مع نمط من حِكَمٍ وسلوكٍ يُنَسِّبُ كل سلطةٍ ومِلك ومعرفة ـ بخميرة كفاحٍ ضد عماهات وتلاعبِ الانسان « بالحاجات » المزعومة الآتية من الخارج والتي تجُرُّ الانسان خارج ذاته ومركزه . كما أنه نجح أحياناً ـ في مقاومة الاستلاب الاستعماري ، وبَعْثِ دور المعارضة والتحرير : مِثْلَ الذي حصل بالنسبة للمجاهدين في الجزائر وافغانستان وإيران ايضا (إلاَّ اذا استأثر الملائيون التماميون بالدين ـ والحزب ـ على حساب التقاليد الاسلامية ـ وصادروا مبادراتِ الشعب ، وبهتوا ضياء الثورة الاسلامية المبدئية) .

ولكننا نرى من المناسب للغربيين في هذا المجال أن يطرحوا على انفسهم ، سؤالين اثنين يعيدانهم الى التواضع والاعتدال ، بدلاً من تنصيب أنفسهم نقاداً للنظم السياسية المستندة للاسلام ، هما :

١ ـ ما هو نصيبُ الغرب المستعمر في المسؤوليةِ عن بعض

الانطواءات التمامية في الاسلام ؟ إن المحافظة الصلبة ، كانت في ظل الحكم الاستعماري ، الطريقة الوحيدة الممكنة لشعب مسلم يريد المحافظةَ على هويته : فمذ كَيَّفَ المحتلُ كلَّ شيء وفق شروطه ، بدءاً من الاقتصاد الى السياسة ومن اللغة الى التربية ، بقي الاسلامُ في طُهره ، البعدَ الوحيدَ ، في الحياة ، الذي لا يمكن أن يُعاش وفق الطريقة الغربية .

٢ ـ إن ابسط قواعد النزاهة البدائية تقتضي منا ألاَّ نقارن بين نظامٍ إسلامي كما هو ، مع نصرانيةٍ أو اشتراكيةٍ كما ينبغي ان تكون .

إني أجيب من يسألني بسخريةٍ حمقاء : أين هو الاسلام الذي تؤمثله على الخريطة ؟ أجيبُهُ بلا تردد : ضع اصبعك على خريطة العالم ، ودلني فيها على مكانِ وجودِ مجتمعٍ نصراني أو مجتمع اشتراكي مثالي .

ليس في نيتي الدخولُ في هذه المناقشات لمقابلة انجازات البعض بانجازات البعض الآخر ، كما أنه لا يليق « بالحضارة الغربية والنصرانية » ـ على صعيد المسؤوليات والويلات ، منذ الحرب الصليبية حتى الاستعمار ومن الانظمة السياسية القمعية الى تبادلات المجوِّعين المتفاوتة ـ لا يليق بها أن تدَّعي القيامَ بدورِ قاضٍ ومرشدٍ حسنِ السلوك .

إن قصدي خلاف ذلك :

فأمام المشاكل التي هي اليوم مشاكلُنا ، والتي نراهن فيها على بقائنا وتأكيد معنى لحياتنا بالذات ، تبقى نصرانياتُنا واشتراكياتُنا ـ أياً

كان خورها التاريخي وفشلها في الماضي - خمائر معارضة ومشاريع ، ولكنها لم تُجَنِّبِ الغربَ الجريَ الى الضياع وجَرَّ العالم اليه ، بسبب هيمنته المادية .

ان هذا الشكل من التنميةِ والثقافةِ المفروضَ من الغرب بقوةِ السلاح والتجارةَ وتوزيعَ العمل والتبادلاتِ المتفاوتةَ ، والارسالياتِ والمدارسَ قد أوقفت حتى الآن ، وحالت دون حصول أنماطٍ جديدةٍ من التطوير والابداع . لقد قادنا والكوكبَ معنا الى حافةِ الافلاس والفوضى ، وقد آن لنا - بل لعلنا تأخرنا جداً - أن نستنطق حِكَمَ ودينَ العوالمِ الثلاثةَ ونحاولَ أن ندركَ ونحيا أشكالاً أُخرى من الوجودِ ، كيلا نُكرِّس أنفسنا لحيواتٍ دون معنى ولا هدف ، ونَحْكُمَ على أنفسنا بالموت .

ان الانسان يحيا في عالمٍ يملك القدرةَ على تحسينه وإعلائه ، وان المجتمعَ ينهارُ كلياً عندما يفقدُ الحاجةَ الى التفوقِ على الذات . فماذا يستطيع الاسلام ان يقدم لنا كي نُعِدَّ أنفسنا للقيام بالمسؤولياتِ التي يَفْرِضُها اليومَ سلطانُ العلمِ والتقنيةِ على بني البشر ؟ المشكلة كوكبية .

والجواب لا يمكن الا ان يكون كوكبياً .

الدين والسياسة :

سنحاول هنا اتباعَ النهجِ الاسلامي ، أي أن لا نفصلَ المسائلَ الدينيةَ عن المسائل المدنيةِ ، مع الابقاء على الوحدةِ بين التسامي والأمةِ ، وبين الوحدةِ وتَجَلّيها .

ماذا يمكن ان تكون الانجازاتُ التاريخيةُ والاجتماعيةُ في

الاسـلام ، في مادةِ الاقتصـاد والقانـون والسيـاسـةِ ، انـطلاقـاً من المبادىء الاسلاميةِ الاساسية التالية :

١ ـ الله وحده يملك .

٢ ـ الله وحده يشرع .

٣ ـ الله وحده يأمر .

أولاً ـ الاقتصاد :

« لله مـا في السموات ومـا في الأرض » . (سـورة البقـرة آيـة ٢٨٤) .

لقد عرضنا ، انطلاقـاً من نموذجِ الجمـاعةِ في المـدينةِ الـذي أسسهُ النبيُ ، بأن مفهومَ المِلكيةِ هذا ، يقودنا واقعياً ، الى نقائض المفهومِ الروماني .

فـالملكيـة في القــانـون ، هي « الحق بــالاستعمـال واســاءة الاستعمال (Jus Utendi jus Abutendi إن هذا المبدأ الرئيسيَ هو في أساس التشريع الفابليوني وكلِ النظام الاقتصادي البرجوازي ، إنه يعطي المالكَ « حقاً إلٰهياً : لأنه ـ أي المالك ـ يستطيعُ اتلافَ مِلكهِ » دون أن يخشى عقاباً ولو كان يحرم ، بعمله هذا ، المجتمعَ من أموالٍ ضروريةٍ لحياته ، كما يستطيع اكتنـاز هذه الأمـوال كما يشاء وبدون حِدود .

ولما كان المشروعُ في القانـون الفرنسي ، يُعَـدُّ امتداداً للذمـةِ المـاليةِ فـإن الشارع يُخَـوِّل واضعي اليد عليـه ، إيقافَ نشـاطِه أو نَقْلَهُ ، أو صرف مجموعةِ الموظفين فيه . وإن مختلف التشريعات حول الاستملاكـات من أجل المنفعـة العامـة ، والتدابيـر المتخذة

تحت ضغط الأُجَرَاء لم تَنَلْ إلا قليلاً من هذه الامتيازات التي يتوقف وضع حدٍ لها في كل لحظةٍ ، على علاقـةِ القوة بين المستفيـدين والمتضررين منها .

إن المفهوم الاسلامي يتعارضُ أصلاً وبشدةٍ مع هذا النظام لأن تنسيبَ المِلكيةِ ، بإستنـادها لله ورجـوعها اليـه ، ليست حقاً لفـرد (ولا لمجموع أو دولة) بل هي وظيفةٌ اجتمـاعيةٌ . وعلى المـالك كائناً من كان ، أن يُقَدِّمَ حساباً عن مِلكيته الى الجماعةِ ، لانه ليس سوى مديرها المسؤ ول .

هنا نجد مبدءاً دافع عنه آباءُ الكنيسـةِ النصرانيـةِ في الماضي ، لكنـه نُسِيَ ، في الغرب من زمنٍ بعيـد : « ليست السرقـةُ أَخْذَ مـا نحتاجُ إليه من مال الغير ، بل هي تكديسُ مـا لسنا بحـاجةٍ إليـه » هكـذا كانت مقتضياتُ ومفهومُ الجماعةِ للدين .

وكم هو معبرٌ ذلك الذي لا ينقطع القرآن عن لعنهِ : « ويلٌ لكل همـزةٍ لمزةٍ الـذي جمـع مـالا وعـدَّده . (سـورة الهمـزة ، الآيـة الاولى) . كلا إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولّى ، وجمع فأوعى » (سورة المعارج ، آية ١٧) .

« وتحبون المالَ حباً جماً » . (سورة الفجر ، آية ١٨) . بيد إن الاسلامَ يُقِرُّ المِلكيةَ الشخصية المكتسبة بالعمل او الإرث أو الهبة . ولكن العمل يقوم بالدور الرئيسي . وقد حدَّد حديثٌ نبـوي ، هذا بدقةٍ (إن الأرض لله ولمن يعمرها) .

وقد لاحظ (Charles Gide)[١٣٥] في كتابه رسالة الاقتصاد السياسي (Traite d'exonomic politique) بأن التشريع الاسلامي لا يُقرُّ الملكية الفردية في الأرض إلا للذي يعمرها » . والقرآن لم يَكْتفِ بتحريم الربا . والانتصار العسكري في بدايات الانتشار الاسلامي ، لم ، يُعط الحقَّ بالاستيلاء على الأراضي ، بل بتقاضي أتاوةٍ عنها .

ولم ينشأ نظام الملاكين غير المقيمين في أراضيهم الذين كانوا يستغلون جهود المزارعين ، الا بعد تقهقر المثال الاسلامي الأولي .

« انهم لا يملكون شيئا ولا شيء يملكهم » هو المبدأ الاساسُ عند المتصوفة ، الذي أعلنهُ أبو الحسن النوري وهو ليس سوى حالةٍ خاصةٍ ، كما هو الحال في مؤسسات الرهبانية المسيحية .

ولكن الأكثر أهمية في القانون الاساسي لمجتمع ما ، هو المفهوم الإسلامي عن السوق :

إن السوق ، في الغرب ، هو ، في جوهره ، (كما كان مفهوماً بصوره مُثْلَىْ ، في مذهب الحرية الاقتصادية المعارضة لتدخل الدولة) استفتاءٌ شعبيٌ دائمٌ تُعَبِّرُ به حاجاتُ مجتمعٍ ما عن نفسها . غير أن الآيةَ انقلبت ، في عهد انحلال النظام الرأسمالي أي عهد الاحتكارات ، خَلَقَ المنتجون الأكثر قدرةً ، أسواقاً لتصريف بضائعهم .

---

(١٣٥) شارل جيد : (١٨٤٧ ـ ١٩٣٢) عالم اقتصادي فرنسي .

ولكن الاقتصاد الاسلامي ـ لا يتّفق في مبدئه على الأقل مع هذا المفهوم الرأسمالي سواء كان هذا المفهوم حراً أو احتكارياً ، ولا يقف على الحياد تجاه القوى المتخاصمة . وعلى السوق الذي يُقِره الاسلام ، أن يسد الحاجات الحقيقية ، ويَحترمَ ، في نشاطه ، الضوابط الاسلامية ، التي تفرض توزيعاً عاد لا للدخول ، ورفضاً للاحتكارات التي تمنع الأسعار من أن تعكس الاثمان الحقيقية .

كما ينبغي على السوق ، أن يكون تابعاً ، في وسائله وغاياته ، لحكومة موجهة الى هدفٍ يتجاوز السوق والمجتمع الذي ينشط في داخله .

ولا يقتصر الأمر على مراقبةِ انتظام الصفقات فحسب ، لأن هذه المراقبة تَدْخُلُ ـ وفقاً لشرح ابن خلدون ـ في وظيفة « المحتسب » أو مراقب التجار « كما سَمَّته البلدياتُ الغربيةُ التي نقلت هذه المؤسسة الى الغرب بعد الحروب الصليبية) لأن المهم في المجتمع الاسلامي ، هو الغايات ، والسوق ليس سوى وسيلةٍ لبلوغها .

يذكر القرآن في سورة النور ، الآية ٣٧ :

« رجال لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكر الله وأقام الصلاة وايتاء الزكاة . . . . . »

والزكاةُ هي ، كما رأينا ، أحد اركان الاسلام الخمسة ؛ انها ضريبةٌ مفروضةٌ ، ليس على الربح فقط ، بل على رأس المال ، وتتيحُ بالتالي ، إجراء « تحولاتٍ اجتماعيةٍ » .

إن هذا الشكل الاولي عن الضمان الاجتماعي الذي لم تصل

اليه بعضُ الدول الغربية (كفرنسا) الا في منتصف القرن العشرين ، بعد صراعٍ طبقيٍ قديم ، كان مقرراً في الاسلام كفريضةٍ دينية . قبل ثلاثةً عشر قرناً . وكان الرئيس عبد الناصر يرى ، في الزكاة ، إحدى السمات الاصلية في بناء الاشتراكية الاسلامية .

وهناك ابتكارٌ اسلاميٌ ، بنوع خاص ، هو فرضُ ضرائبَ غير مباشرةٍ على السلع الكمالية ، وانشاءُ احتكاراتِ دولةٍ ونظامُ جمارك مميز ، لكل المنتجات التي يتوقف عليها أمنُ وطمأنينةُ الجماعةِ . وكانت مبادىء هذا النظام ، موجودةً في القانونَ العام الاسلامي ، منذ القرن العاشر . إن الغرب اعتبر فريدريك الثاني إمبراطور المانيا وملك صقلية ، الذي كان يتكلم العربيةَ ، ومعجباً كبيراً بثقافةِ العرب ، أولَ رجلِ دولةٍ حديثة ، لأنه احتذى هذه المبادىء وأدخلها الى المانيا وَنَشَرَ هذا التشريعَ في اوروبا .

والخلاصة فان الاقتصادَ المنبثقَ عن مبادىء الاسلام هو :

١ ـ أنه على نقيض النموذج التنموي الغربي الذي يَعُدُّ الانتاجَ والاستهلاك غاياتٍ في ذاتها :

انتاج واستهلاك أي شيء اكثر فأكثر ، واسرع فأسرع ، مفيد أو غير مفيد ، ضار أو قاتل لا فرق ، دون مبالاة ، بالأغراض الانسانية . بينما الاقتصادُ الاسلامي ، في مبدئه القرآني **لا يستهدف النمو بل التوازن .**

٢ ـ ولا يمكن له ان يتماثلَ مع الرأسماليةِ (من الطراز الاميركي مثلاً) ، ولا مع الجماعية (من الطراز السوفياتي مثلاً) . وان ميزته

الاساسيةَ هي في عدمِ الخضوع للآليات العمياء في اقتصادٍ يحملُ في ذاته غاياتهِ الذاتية ، بل في كونه منظماً لغاياتٍ أسمى ، غاياتٍ انسانيةٍ والهيةٍ ، لأن الانسان لا يكون إنسانياً ، حقاً ، الا بامتثاله للّه .

ثانيا ـ في القانون :

وكما ان الله هو المالكُ الوحيدُ ، فهو المُشرِّعُ الوحيد .

هذا هو المبدأ الاساسي في الاسلام ، في نظره للوحدة (التوحيد) .

ان الجماعة فيه ليست مبنيةً على « إعلانِ حقوق الإنسانِ » بل على إعلانِ واجباتها .

ونحن لن نطيلَ الوقوفَ عند تعدد « المذاهبِ » المختلفةِ : الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والحنبلي ، وتفرعاتها في هذه البقعة او تلك من بلاد الاسلام .

إنَّها تتمايز باختلافِ درجات التمامية : « فالبعض يريد أن يقف بدقةٍ ، عند حَرْفيةِ القرآن القابل ـ برأيهم ـ للتطبيق في كل مكان وزمان ، والبعضُ الآخر يجعل نصيبا أكبر لحديث النبي واصحابه الاقربين الذين كانوا يستلهمون القرآنَ لِحَلِّ مسائلَ واقعيةٍ بأسلوبٍ مجددٍ . وآخرون يشددون على استشارةِ كبار الفقهاء (الشورى) . وأخيراً أولئك الذين يرون الأَخذَ بالمماثلةِ وليس بالقياسِ فقط ، للاجابة على جميع الحالات المستجدة .

ثم يأتي بعدهم أولئك الذين تأثروا بقصدٍ أو دون قصد بالقانونين السابقين الروماني البيزنطي أو الساساني : بينما كانوا يعتقدون انهم

في العالم الآخر ولا يقيمون وزناً الا لرأي الجماعة .

ولنقل بوضوح، بأن هـذه النزاعـات بين المذاهب أصبحت في ذمةِ التاريخ ، وانه كلما أُعْلِنَ سدُّ بابِ الاجتهاد ، أي كلما اعتُبِرَتْ كُلُّ محاولةٍ للتأويل (الاجتهاد) مروقاً ، كنا نَشْهَدُ جموداً بل تقهقراً في الثقافة والسياسةِ الاسلامية .

وليست هـذه الظاهـرةُ وقفاً على الاسـلام فقط ، لأن التمـاميـةَ النصرانيةَ ، أيضاً جَذَّبت الفكرَ والعملَ النصرانيين ، كالحرمانات ، من نـوع حرمـان (Syllabres)[١٣٦] سنة ١٨٧٠ ، التي أدانت كـل تجديدٍ باسم مذهبٍ ثـابتٍ ، ومحاولاتِ تجميـدِ الفكرِ في فلسفـةٍ واحدة (Thomisme)[١٣٧] هي التومائية ، أو في شكل واحد للعمل هو « المذهبُ الاجتماعيُ » للكنيسةِ .

ان التماميةَ (التي تقوم على مزج الثقـافةِ أو المعتقـدِ بالشكـلِ الـذي تَمَكَّنَتْ من اتخاذه في هـذا الـزمـان أو ذاك من التـاريـخ ، والحيلولـةَ دون بقـائهـا حيـةً أي خـلاقـة) هي شؤمٌ ، على كـل حضارة . ان التعليم القرآني الأساسي ـ وخلافاً لفردانيات الغاب ـ لا يعتبـرُ الانسانَ حقيقـةً معزولـةً ، بل جـزءاً من كـلٍّ أكبـر : هـو الجماعةُ ، ويُعَرِّفُ هذه الجماعةَ ـ في ذات الـوقت ـ بأنهـا منظمـةٌ لغاياتٍ أرفعَ منها .

---

(١٣٦) **Syllabres** : لائحـة الاخـطاء التي أذاعهـا بيـوس التـاسـع سنـة ١٨٦٤ ، التي تستوجب الحرم .

(١٣٧) **Thomisme** : مـذهب القـديس تـومـا الـلاهـوتي والفلسفي والمعلم المـدرسي الكاثوليكي . (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) .

والقول بأن الانسان جزء من كل أكبر ، ليس له - في المنظور الاسلامي المعنى الذي تأخذه هذه العبارةُ في الغربِ الذي لا يُتَصَّورُ فيه خيارٌ آخَر عن الفردانية ، غَيْرَ الشمولية (Totalitaresnae)* والكُلُّ الذي يكونُ المسلمُ جزءه ليس « المجموعةَ العضويةَ » كما عرفها (Hegel)[١٣٨] ، ولا التصور الفاشي الذي ليس فيه للانسان كفرد ، معنىً ولا قيمة ، ولا حتى حقيقة ، الا بالنسبة للدولة . وان العلاقة بين الفرد وهذا « الكل » الاكبر من الجماعة ، ليست علاقةً بيولوجيةً، تحت إنسانية، بين خليةٍ والجهاز الذي تنتمي اليه، وهي ليست كذلك علاقةً «وظيفية» اجتماعيةً ، مقررةً لكل واحدٍ وفقَ تقسيمٍ للعملِ يجعلُ منه كائناً جزئياً محبوساً في قائمةٍ تقنيةٍ اقتصاديةٍ أو سياسيةٍ ، تستلبه تُشوِّهُهُ . ولا يُمكن لهذا النوع من العلاقةِ أَنْ يوجدَ الا في مجتمع هو في ذاته غايةً لذاته ، أي مجتمعٍ لا يحملُ أي مشروعٍ سوى مشروع النمو والتسلط .

بيد أن الجماعة المسلمة تسعى الى أَهدافٍ محددةٍ من الله ، تسمو عليها . إن هذا التسامي المزدوجَ : سمو الجماعة بالنسبةِ للانسان ، وسمو الله بالنسبة للجماعة يحولُ والحالة هذه ، دون نمو طبقةٍ واضطهادِ انسان لانسان .

والمساواةُ ، مثل الحرية ، لها أَيضاً اساسٌ يختلفُ جذرياً عن أَساس المساواةِ عندنا ، إنهما ليستا صفتي الفردِ المنعزلِ ، بل التعبيرَ

* مذهب سياسي يأخذ بالحزب الواحد ، ولا يقبل أية معارضةٍ منظمة ، تسيطر فيه السلطة السياسية سيطرة صارمة على جميع مظاهر الأمة وطاقاتها المنتجة .

(١٣٨) Hegel : هيجل : فيلسوف الماني (١٧٧٠ - ١٨٣١) قال إن الكائن والمعقول هما مبدئياً شيء واحد . والفكر يبدأ بذاتية مجردة ثم ينتقل إلى ما يناقضه ثم يخطو إلى الوحدة التي تضم وتضم معه أضداده .

والنتيجةَ لارتباطِ كل واحدٍ بالمطلق وحضورِ الالٰهي فيه الذي يتيحُ له الابتعادَ بعداً لا نهائياً عن المؤسساتِ وكل طموحٍ انساني للسيطرة . صحيحٌ أن هذا الاساسَ القرآني للحقِ ، لم يُتَرْجم الى واقعٍ تاريخيٍ ملموس - حتى في أوج الحضارةِ الاسلاميةِ - ولكنه صحيحٌ أيضاً أنَّ النصرانيةَ ذاتَها لم تر - وبخاصةٍ - في زمن السيادةِ الكنسيةِ ترجمةً واقعيةً ملموسةً في التاريخ ، في مجتمعٍ مُكَيفٍ وفقاً لتعليم يسوع الناصري . ولا مجالَ اليومَ - ونحن غارقون ، وأحياناً مجروفون ببعضِ انحرافات عصرنا (كانحرافات النماء الأعمى ، وإرادةِ السيطرة لدى الدول والهيئاتِ الدولية والعنفِ « وتوازناتِ الرعب » على جميع المستوياتِ دولاً وأفراداً وجماعاتٍ - والتبادلاتِ المتفاوتةِ ، التي تُفَاقِمُ هَيْمَنَةَ البعضِ ، وبؤسَ العددِ الأكبرِ من الناس ، لا مجال لفتح ملفات الجدارات التاريخية أو مَلَفَّاتِ أهمال البعضِ والآخر مثالَهُ ، بل لاستخلاص «الفِكَرِ - القوى» - من تلاقح المشاريع الأساسية لكلِ طرفٍ بالمشاريع الاساسية للطرف الآخر : الفكر - القوى الكفيلة بتعبئةِ الجماهيرِ العريضةِ في العالم أجمع من أجل تحقيق مشروعٍ مشتركٍ قادرٍ علىَ انتزاعنا من حمّى الكارثة العالمية وسلاحِ الكبارِ النووي وجوعِ الملايين ، وإذلالِ وإفساد الجميع . لقد رأينا بأن المبادىء الفردانية للانبعاث الغربي ، والثورات البرجوازية بعدها ، قد جرّتنا الى الفوضى ، وان المحاولات الشمولية لقلب هذا التيار ، عن طريق خداعِ « الأمة » (في الفاشية) أو خداعِ « الطبقةِ » (في الاتحاد السوفياتي) تقودنا الى (Goulag)[١٣٩] الكولاك . فما هو

---

(١٣٩) Goulag : نظامٌ سياسي جائر يشبه معتقلات الأشغال الشاقة في الاتحاد السوفياتي .

الإسهام الذي يُمكن أن يقدِّمه اليوم لنا قانونٌ قائم على المبادىء الاسلامية السامية ؟ صحيح أن النصرانيةَ كانت تُذَكِّرُ بذات المبادىء السامية، ولكنها مذ تلوثت بالثنائية الفلسفية الاغريقية، وضلَّت بِبُنَى الامبراطورية الرومانية المستبدة ، فَسَدَتِ العلاقاتُ بين الدين والسياسة ـ منذ قسطنطين ومجمع نيقية ـ ومازالت فاسدةً حتى أيامنا هذه . على أن المحاولاتِ التحريرية التي ظهرت عند كثير من النصارى ـ وبخاصةٍ خلال العشرين سنةً الماضية ـ يمكن تلقيحُها اليوم ، بتبصّرٍ بَنَّاءٍ في المشروع الاسلامي .

لقد حصلت هذه الظاهرةُ وينبغي لنا أن نبينً الاسهامَ الاسلاميَّ في القانون الدولي :

اذا كان صحيحاً أن المسلمين سابقاً مارسوا القرصنةَ في البحر الأبيض المتوسط «(كما حصلت فيما بعد ، حرب القرصنةِ ، من قبل الكاثوليك ، لحساب « الملوك النصارى الصميميين » ملوك اسبانيا والبرتغال وفرنسا، ومن قبل « الطهريين (Punitains)[١٤٠] في هولاندا وبريطانيا) فهو صحيح ايضا انهم وضعوا قواعد التجارة البحرية ، حتى في زمن الحرب .

واما في الغرب فقد قُنِّنَتْ هذه القواعد حوالي سنة ١٣٤٠ ، في قنصليةِ البحر ، في برشلونة ، حيث صاغ القديس (Louis)[١٤١]

---

(١٤٠) **Punitains** : الطهريون وهم جماعة بروتستانتية في إنكلترا ونيوانكلند في القرنين السادس عشر والسابع عشر طالبت بالتمسك بأهداب الفضيلة .

(١٤١) القديس لويس : (١٢١٤ ـ ١٢٧٠) ملك فرانسا من ١٢٢٦ ـ ٦٢٧٠ .

مشروعَها على نسقِ قواعدِ المسلمين ، بعد عودته من الحملة الصليبية الاولى . ان أوَّلَ مجلدٍ للقوانين المجموعةِ في مُصَنَّف ، من قبل الفونس[١٤٢] العاشر (الحكيم) (Las siete Partidas) ، يتضمن في قسمه الثاني ، تشريعاً عن الحرب هو عبارة عن مجموعة نصوصٍ اسلاميةٍ حول الموضوع ، كانت قد جُمعت سنة ١٢٨٠ في أسبانيا المسلمة ، في كتاب « الولاية » (Villayet) الذي ، يعالج حماية الاولاد والمسنين والنساء والعجزة واحترام التعهدات المتخذة وقواعد الاستقامة التي ينبغي احترامها ، في زمن الحرب .

ولم يظهر التأثير الاسلامي الا في بحوث القانون :

ان الجدير بالملاحظة هو أن أطباءَ عرباً قَدِمُوا ـ خلال أعْتَى حملةٍ صليبيةٍ في فلسطين ـ الى المخيم النصراني (الذي يقر بجدارتهم الفائقة) لمعالجة جرحى الحرب .

وان روحَ صلاح الدين الفروسيةَ ، الذي طرد الصليبيين من القدس ، اصبحت أسطورية ، وان أخلاقَ فرسانِ الغربِ الهمجيةِ ، جداً وبشكل عام ، كَسبت ظرفاً وتهذيباً ، بمخالطة أخصامهم المسلمين في « الأرض المقدسةِ » وفي صقلية حيث زار الفرسانُ الجرمان ، بلاطَ فريدريك الثاني المعجبِ الكبيرِ بالحضارةِ العربيةِ .

ويجب ان يكون لدى الغربيين كثيرٌ من هذا « التعصب » (الذي يُلصقونه غالباً بالمسلمين) كي لا يعترفوا بتأثير الحضارةِ الاسلامية ،

---

(١٤٢) الفونس العاشر : (١٢٢١ ـ ١٢٨٤) ولد في طيطلة ، ملك قشتالة وليون وامبراطور المانيا من (١٢٦٧ ـ ١٢٧٢) .

التي أخصبت الثقافةَ الغربيةَ ، طوال ألف سنة تقريبا ، على القانون الدولي - بدءا من (Grotius)[١٤٣] الى (Michel Servet)[١٤٤] .

وان الحرب الكلامية حول وضع المرأة في الاسلام ، هي مَثَلٌ نموذجي عن هذا (التعصب) الغربي .

وسيكون مفيداً ، مرةً أُخرى ، أن نقوم بتمييزٍ مزدوج :

أولاً بين التعليم القرآني وتطبيق البلدان المسلمة له ، بالاضافة الى مقارنةٍ منصفة بين التطبيق الحقيقي للشعوب النصرانية والتطبيق الحقيقي للشعوب المسلمة (وليس بين نظرية البعض وتطبيق الآخرين) .

فمن وجهة النظر اللاهوتية (الدينية) ، لم يُشِرِ القرآنُ الى ذات العلاقة التبعية الغيبية ، بين الرجل والمرأة :

ان المرأة ، في القرآن ، لم تُخْلَقْ من ضلع آدم ، إنها « نصفٌ توأم » لأن الله خلق البشرية ، مثل كل شيء آخر « أزواجاً » ولأن القرآن لا يعتبر أن المرأة كانت مسؤولةً عن الخطيئة الاولى .

ولذا فان التوبيخ موجهٌ لآدم :

« ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (سورة الذاريات آية ٤٩) » .

---

(١٤٣) Grotins : فقيه ودبلوماسي هولندي (١٥٨٣ - ١٦٤٥) ، الملقب بأب القانون الدولي العام .

(١٤٤) Michel Servet : طبيب أسباني ولاهوتي بروتستنتي (١٥١١ - ١٥٥٣) . أنكر مبدأ الثالوث والوهية المسيح ، ولكن ما لبث أن القي القبض عليه وأحرق .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها . . . . » (سورة النساء الآية الاولى) .

« فـأكلا منهـا فبدت لهـما سؤاتهما . . . وعصى آدمُ رَبَّـهُ فغوى» (سورة طه آية ١٢١) .

وصحيح ان القرآن يمنح الرَجُلَ ـ مثل الانجيـل والتوراة ـ سلطةً على المرأة . لكن هذا التفاوت سمةٌ ثابتةٌ في كل المجتمعات الأبوية . وهو (أي هذا التفاوت) إلى اليوم لم يختف كلياً في أي بلد .

ولكن ، اذا قارنا بين القواعد القرآنية وقواعد المجتمعات السابقة له ، نجد بأنها تدل على تقدم أكيد ، وبخاصةٍ ، بالنسبة لأثينا وروما اللتين كانت المرأة فيهما تعد قاصرةً الى الأبد . وفي القرآن ، تستطيع المرأةُ أنْ تتصرف بأموالها ، وهو حقٌّ لم تعترف به ، غالبيةُ التشريعات الغربية ـ وبخاصةٍ في فرانسا ـ الاّ في القـرن التاسـع عشر أو القـرن العشرين . وفي الإرثِ ، صحيحٌ أن حصةَ البنت تعادلُ نصفَ حصةِ الصبي ، غير ان كل الموجبات تقع ـ بالمقابل ـ على عاتقه ، وبخاصةٍ أعباء الإنفاق على سائر اعضاء العائلة بينما المرأة معفاةٌ منها .

والقـرآن والحديث يُعـطيان المـرأةَ حق طلب الـطلاق ، الـذي لم تكسبه المرأة في الغرب الا بعد ثلاثة عشر قرنا . « الطلاق مـرتانِ ، فإمساك بمعروف أو تسريح باحسـان ، ولا يحل لكم ان تـأخذوا ممـا آتيتموهن شيئاً إلا أن يخـافا ألَّا يقيـما حدود الله فـان خفتم ألَّا يقيما حدود الله ، فلا جُناح عليهما فيـما افتدت ، تلك حـدود الله ، فلا تعتـدوها ، ومن يتعـد حدود الله فـأولئك هم الـظالمـون ، (سـورة البقرة ، الآية ٢٢٩) .

وان تعـدد الزوجـات معترفٌ بـه ، في القرآن ، ولكن القـرآن لم ينشيء هـذا التعدد بـل هو مـوجودٌ قبله . وهـو يفرض لـه حـدوداً (كـاشتراط عـدالة اقتصـاديةٍ وعـاطفيةٍ وجنسيـةٍ كـاملة بـين مختلف الـزوجات) يُصبـح التعدُّدُ معهـا مستحيلاً ، إذا طُبِّقَتِ التعليمـاتُ القـرآنيةُ بحـرفيتها . مضـافاً ، الى ان اللَّبس بـين الجانب القـانوني للزواج المرتبط بمجموعة البُنى الاجتماعيـة والعلاقـات الشخصية في الحب والجنس ، يتضمن كثيراً من النفاق .

وليس للزواج الأحادي الضيق ـ المقنَّن في مجموعة نابليون بتشريعٍ للزواج ، والذي كان الفرض الجوهري منه ، الحفاظ على شكـل ما من الملكية والإرث ، ليس لهذا الزواج سوى عـلاقةٍ جـد بعيدةٍ عن الاخلاق .

واذا كـان الزواج الأحـادي ، في تقليـدنـا الغـربي ، مـدرجـاً في القوانين : فإن تعدد الزوجات في هذا التقليد ، مدرجٌ في الواقع .

إن هـذا القول جـد صحيح لأن الجـوهـريَّ في أدبِ الحبِ ، في الغرب أو في غيره ، يُمَجِّدُ الحُبَّ غيـرَ الزوجي .

إن حق المرأةِ المسلمةِ ـ في القرآن ـ بالمسـاواة الاجتماعيـة والملكية الشخصية والطلاق ، وكذلك الشروط المستحيلة عملياً ، المفـروضة لتعدد الزوجات ، مَكَّنَتْ ، على سبيل المثال ، مؤتمرَ النساء المسلمات المنعقـدِ في تـونس (أيـار سنـة ١٩٧١) من المـطالبـة بـإلغـاء تعـدد الزوجات ، واحترام كرامتهـا تأسيسـاً على نصـوص القرآن . إن في البلدان الاسلامية وغيرها بوناً كبيراً بين القـوانين والـواقع . والمثـل النموذجي على ذلك هو وضعُ الحجاب الذي لا نجد في القرآن أقل

مبررٍ لهذه العادةِ التي كانت موجودةً قبل الاسلام ، في بلدان شرقية كثيرة ، وبخاصة في فارس الساسانية . ويجدر أخيراً ، ألا ننسى بأن جميعَ شغافياتِ الحب وتمجيدَه ، وعبادتَه الشبيهةَ بعبادة الإيمان الأرفع ، التي ظهرت في الغرب عند شعراء (Oecitanie) الجوالين في (L'amour courtois) وفي (Les fidèls d'amour) « لدانت » ـ هي كما سنبين في معرضِ البحث حول التأثيرات الاسلاميةِ على الغرب ـ انها جميعها من اصل عربي ـ اسلامي ، سواء كان المقصود « كتاب الوردة » لابن داود في بغداد أو كتاب (ياسمين العشاق) ، (Jasmin des fidels d'amour) لروزبيهان الشيرازي في القرن الثاني عشر ، في إيران ، أو طوق الحمامة لابن حزم القرطبي زمن الخلافة ، في القرن العاشر .

٣ ـ السياسة :

إن حقيقةَ أنْ لا سلطة الا سلطة الله ، في المنظور الاسلامي تؤدي في السياسة ، الى نتائجَ شبيهةٍ بتلك التي كشفنا عنها ، على مستوى الاقتصاد والتشريع . وبما أن الاسلام يُنَسِّبُ كل سلطة («الله أكبر») كما يُنَسِّبُ كُلَّ ملك وكلِ ثروة ، فانه لا يمكن لنظام اقتصادي أمينٍ على مبادىء الاسلام أن يتفق مع الرأسمالية ولا مع الجماعية(١٤٥) ، مثلما لا يمكن لنظام سياسي أمينٍ على مبادىء الاسلام ، أن يتفق مع التيوقراطية(١٤٦) ، ولا ملكيات « الحق

(١٤٥) الجماعية : تعريب **Collectivisme** ، وتعني سيطرة الدولة أو الشعب على جميع وسائل الانتاج والنشاطات الاقتصادية .

(١٤٦) تيوقراطية : حكومة الٰهية يشرف عليها رجال الدين .

الالهي »[147] في المغرب ، ولا مع « ديمقراطياته » من الطراز البرلماني .

إن اعتبار القرآن كتاباً يتضمن تشريعاً صالحاً لجميع الشعوب وجميع الازمنة ، هو بالتأكيد تأويلٌ ضيقٌ ومميتٌ لمستقبل الإسلام . لأن القرآن ذاته لا يفتأ يُذَكِّرُ بأن الله أرسل لكل شعبٍ رسولاً قادراً على نقل الرسالة ، بلسان وثقافة هذا الشعب وهذا الزمن . « ولقد ارسلنا رسلاً من قبلك . . . وما كان لرسول أن يأتي الا بأذن الله ، لكل اجل كتاب » . (سورة الرعد آية ٣٨) .

والمسلمون يحبون الاستشهادَ بالاقوال التي رواها القديس حنا ، عن يسوع نفسه ويعتبرونها بلاغاً عن مجيء النبي محمد : « عندي أشياء كثيرة لاقولها لكم ، ولكنكم لستم ، حالياً، أهلاً لتحملها ، وعندما يأتي روح الحق سيوصلكم الى الحقيقة كلها » . (انجيل القديس حنا ١٦ و١٢ ـ ١٣) . إن الأمر يدور ، في الواقع ، حول ذات الكشف ، ولكن مسؤولية التطبيق تقع على عاتق الانسان ، في كل بلد وكل عصر ، بصورة تتفق مع ، روح ، وشروط هذا البلد وذلك العصر .

وسيكونُ ، من المحال أيضاً الادعاءُ ، باستنباط قوانين سياسية عالمية أبدية ، مباشرة من القرآن ـ كما فعل الماوردي ؛ بروعةٍ ، في زمانه ، في كتابه (الاحكام السلطانية) عن مبادىء الحكم ، وتخيُّل

(١٤٧) ملكيات الحق الالهي : التي كانت ترمي أنها حاكمة بأمر الله ، الذي اختارها لحكم الناس .

خليفةً مثالياً ، في العصر الذي كان فيه الخليفةُ العباسي يحمل الطابعَ التاريخي ، لملكياتِ بيزنطية وفارس الساسانية - كما يكون من المحال أيضاً الاعتبار بأن « السياسة المستمدة من اقوال الكتاب المقدس » ، لبوسويه (Bossuet) ، التي ضمنت ملكية لويس الرابع عشر المطلقة وجعلت من الملك « قائمقام الله على الأرض » قد حَدَّدَتْ سياسةً نصرانيةً مؤبدةً ، أو أن « المذهب الاجتماعي » المزعوم للكنيسة ، يجب ان يكون مفروض الطاعة حرفياً على النصارى في كل الازمنة وفي كل الامكنة .

ويمكننا ان نعرف حق المعرفة ما يستبعد تعليم ، يسوع وحياته ، وموته وقيامته ، بالنسبة للنصارى ، وما يستبعدُه القرآن بالنسبة للمسلمين .

فالقرآن يستبعدُ ، مثلاً ، ملكيةَ الحق الالهي ، وتيوقراطيةً بالمعنى الغربي للكلمة ، لأن لا كهنوت في الاسلام ولا كنيسة ، **مخولان** التكلم والأمر باسم الله ، وانه من الخطأ بالنسبة للاسلام والنصرانية معاً ، خلطَ المبادىء بالشكل الذي استطاع ، الواحد منهما او الآخر ، اتخاذه في هذه الحقبة أو تلك من تاريخه .

فالخلافةُ مثلاً ، لم تُصبح وراثيةً ، أو سلالية الا جرياً على تقليد الاتوقراطيات البيزنطية أو الساسانية . والقرآن يستبعد بذات الطريقة ، واستناداً الى المساواة التي أوجبها على جميع الذين يشتركون في العقيدة - نظامَ ديمقراطيةٍ من الطراز البرلماني أي ديمقراطية قائمة ، من ناحية ، على فردانية المواطنين الذين لا غاية لهم سوى نفعهم الشخصي ، من غير اهتمامٍ بمنافع الجماعة ، ومن ناحيةٍ أخرى على

مفهوم التفويض ، و « نقل » السلطة (كما كان يقول روسو) الذي أقام وسطاء بين الله وجماعة العقيدة (الايمان) .

كلُ « تمثيلٍ » خدعةٌ . ولا يمكن أن يكون هناك بديلٌ عن الشعب . والديمقراطية يجب أن تكون مباشرةً والاّ لا تكون .

إن الجماعة ليست ثمرةَ « عقدٍ اجتماعي » . إنها جماعةُ العقيدةِ المبنيةِ على يقين كل واحد فيها ، بوجود غايةٍ تتجاوز المنافعَ الفرديةَ بل ومنافعَ المجموعةِ ، مهما كانت متسعةً (قبيلةً ، أو مدينةً أو طبقةً ، أو أمةً ، أو كتلةً ايديولوجيةً) .

هذه « الجماعةُ » تعني كل الانسانية في مجموع تاريخها ومشروعها . إن الجماعة المسلمة (الامة) هي حاملةُ هذه العالمية ، لأن كلاً من أعضائها متحدٌ مع جميع الآخرين (بعيداً عن أيِّ فرقٍ عنصريٍ ، أو اقليميٍ ، أو ماضٍ تاريخي) بإيمانٍ واحد في الوحدة الالهية السامية .

ان « الأمة » من وجهة النظر الاسلامية الخالصة ، مرضٌ غربي وتركةُ تجزئةٍ استعمارية ضارةٍ بالجماعة المسلمة . والشيء ذاته بالنسبة « للديمقراطية » في مجابهاتها ومواجهاتها أفراداً ومجموعاتٍ مفتتةً بالمنافسةَ ، ومُكَتَّلةً بتلاعبات « الإعلام » المزعوم الاعلام الموَحَّد والدعاوة ، واستبارات الرأي العام ، ومجموعاتِ الضغط ، وتكييفِ نظام الإنتاج والاستهلاك) التي لا تُمُتُّ بصلةٍ الى مبدأ شورى الناس الذين لا يرتبطون فيما بينهم برباط المنافسةِ الأفقي بل برباطٍ عموديٍ يربط كلاً منهم ، بالأحد المطلق .

ان السلطة ، مثل الملكية ، منظمةٌ لغايات تتجاوزها .

وإن تعليم القرآن أحدثُ من أي تعليمٍ آخر ، في قرننا الذي عَلَّمتْنَا تجاربهُ :

- بأنه لا يمكن أن توجد اشتراكيةٌ ، في داخلِ نموذجنا التنموي الأعمى ، بلا قصديةٍ إنسانية .

- ولا يمكن ان توجد اشتراكيةٌ ، انطلاقاً من فردانيتنا الغربية التي شكلهُا واساسُها ، الرأسمالية .

- ولا يمكن ان توجد اشتراكيةٌ دون تسامٍ ، أو امكانيةٍ دائمةٍ للانقطاع عن حتمياتنا والتخلّي عن استلاباتنا . ولأن الانسان الغربيَّ لم يشعرُ بعد ، بالحاجةِ الى التسامي ، فان الوضعَ الراهنَ أصبَحَ لا يطاق وان الثورة باتت مستحيلةً .

ان كل ثورةٍ تُخْفِقُ إذا أراد الانسان تغيير كل شيء ، إلاّه .

وإن تغيير الانسانِ اليوم ، هو - كأيام حكماء (Rishis)[١٤٨] الهند الفيدية ، أو (Lao-Tseu)[١٤٩] الصينية ، وابراهيم، ويسوع الناصري ، أو النبي - في رَبْطِهِ بالمطلق ، وتذكيره بقدرته على التَخَلُّصِ والإنقطاع عن كل ما يُوجَدُ ويُعْمَلُ بدونه ، ابتداءً من النماء والتَسلط والعنف .

---

(١٤٨) **Rishis** : الحكماء والقديسون .

(١٤٩) **Lao-tsene** : مؤسس الطاوية في الصين .

العلوم والحكمة

ان تـاريخ العلوم والتقنيـات ، كـما هـو مفهـومٌ عـامـةً في البـلاد الغربية ، يقوم على مسلمةٍ ضمنيةٍ هي التالية :

يجب أن نقيس « تقدم » العلوم والتقنيات اعتماداً على معيارٍ واحد هو فعاليتُها في تأمين قدرةٍ فائقةٍ للسيطرةِ على الطبيعةِ والناس .

إن هـذه المسلمـةَ تعـريفٌ كمـويٌ محضٌ مفـادُه أن ارادةَ التسلطِ والسيـطرةِ (ولـو أدت هـذه الارادةُ ـ قبليـاً ـ الى تهـديم الـطبيعـةِ والناس) ، والعلومَ والتقنياتِ التي تخدمها أُصبحت الهـدفَ الساميَ والقيمةَ الوحيدةَ ، وديانةَ « التقدم والنماء » .

ان الغربَ يَنصِّبُ نفسه قاضياً على جميع الحضارات الأُخرى ـ لأنه يَعْتبر أن المسار الذي يتبعه مثاليٌ وانه المسارُ الوحيـد الممكنُ ـ ويحكم بالتالي ، على شعبٍ وحضارةٍ وعلمٍ أو تقنيةٍ بأنها « بدائية » أو نـامية « أو متخلفة » وفقاً لنقطةِ وجودها على هذا المسار ، أي وفقاً لكثرةِ أو قلةِ تشابهها معنا .

ويبدو لأنصار هذه الديانةِ (ديانة النماء والتقدم) المخدوعين ، بأن طرح السؤال التالي على أنفسهم ، شاذٌ وظلامي :*

هل أن اوروبا ومن بعدها الغربُ ، قد أخطئا الطريقَ منذ « الانبعاث » (أي منذ ولادة الرأسمالية والاستعمار المتزامنين) الذي نمت فيه ايديولوجيةُ تبريرِ الرأسماليةِ والاستعمارِ ، التي حَدَّدَتْ ـ للعلومِ والتقنيات ـ هدفاً وحيداً هو جعلُنا « سادةَ ومالكي الطبيعة كما قال « ديكارت »[١٥٠] في كتابه (Discours de la méthode) ، وليس تأمين ازدهار الانسان ، كل الانسان ، وكل انسان .

« وكل » الانسان ، يعني الانسانَ في جميع ابعاده : بما فيها بُعْدُ علاقاتنا الجمالية مع الطبيعة ، كمشاركةٍ سعيدةٍ في حياته ، لا مجرد مستودعٍ للموادِ الاوليةِ ومزبلةٍ لنفاياته ، وبُعْدُ علاقاتنا ، مع الناس الآخرين ، التي ينبغي ان لا تكون علاقاتِ منافسةٍ ومجابهةٍ وتسلط ، كما حددها[١٥١] Hobbes بقوله : « الإنسان ذئب بالنسبة للانسان » الذي جعلنا « جماهيرَ منعزلةً » بلا هدفٍ ولا محبة ، وبُعْدُ علاقاتنا مع الجمال ومع مستقبلٍ غيرِ ممثلٍ بالآلة الضخمةِ الرهيبةِ التي تطحننا بين عجلاتها ، يكون بزوغاً شعرياً لجديد

(*) أي معارض لتثقيف العامة من الناس .

(١٥٠) ديكارت : (١٥٩٧ ـ ١٦٥٠) فيلسوف فرنسي اشتهر بكتابه مقالة الطريقة الذي كان له الأثر البليغ في الفكر الغربي .

(١٥١) Hobbes : فيلسوف انكليزي (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) ، مذهبه مادي ، يحاول أن يفسر كل حقيقة بأنها عمل الجسم المتحرك .

جذريا ، وهو ما لا تستطيع العلوم والتقنيات أن تعطيناه .

ونعني بتفتح كُلِ انسان ، ذلك الذي سَلَبَتْهُ ديانةُ « النماء » و « التقدم » من الغالبيةِ العظمى من الناس : في البلدان المسماة « متطورة » ، ولا سيما في البلدان المسماة « متخلفة » لأن النماء ، على النمط الغربي ، لم يكن ولن يكون ممكناً ، الا بنهب ثرواتها المادية والبشرية . مضافاً الى انه لا توجد ، في الحقيقة ، بلدانٌ متطورةٌ وأخرى نامية ، بل بلدانٌ « مسيطرةٌ » وأخرى « مُسَيْطَرٌ عليها » ، بلدانٌ « مريضةٌ » وأخرى « مخدوعة » . فالبعض هم مرضى نمائهم والآخرون مخدوعون بسراب هذا النماء الانتحاري الذي تقوم به « صفواتُهم » المنشَّأةُ في الغرب الذي توصَّل الى إقناعِهم بأن مستقبلهم هو في السير على ماضي البلدان المريضةِ وتقليدِها .

ان هذه الخرافةَ القديمةَ والقائلةَ عن « العلموية » ـ أي الاعتقاد بأن العلوم الوضعية والتقنية المتطابقة معها تستطيع حلَّ جميعِ المشاكل ، وأن أيةَ مشكلةٍ انسانيةٍ لا تخرج عن المشاكل التي تطرحُها وتَحلُّها ، سُمِّيَتْ ، خطأً بـ « الحداثة » التي تحملُ أرعنَ الشعاراتِ الانتحاريةِ وأشدَّها القائلَ « لا وقفَ للتقدم » !

١ ـ لقد استغرقَ ذبحُ سبعين ألف شخص لدى استيلاءِ تيمورلنك على أصفهان وتكويمُ جماجمهم في أهرامٍ ، أياماً وأياماً ، وأما في « هيروشيما فقد حصلت النتيجةُ ذاتها في بضع ثوان . إن هذا تقدم علمي وتقني أكيد !

٢ ـ ان عالمنا اليوم ، أعد ما يعادل مليون قنبلةٍ كقنبلة هيروشيما (أي ما يجعل خمسة اطنان من المتفجرات التقليدية على رأس كلٍ

ساكنٍ في هذا الكوكب) .

وهذا تقدم آخرٌ علميٌ وتقنيٌ أكيد . « ولا وقف للتقدم » !

٣ ـ ان الثورة الخضراء وبذورَها العجيبةَ ترفعُ لدرجةٍ كبيرةٍ ، محصولاتِ الأُرُزِّ في جنوب شرق آسيا . . . خلال خمسة اعوام . وان التقنياتِ الاوروبية ، في الفلاحات العميقة المفروضة على بعض أراضي العالم الثالث ، تطمر طبقات الدُبال(*) الرقيقة .

والغربُ يبيع الاسمدةَ الكيماويةَ المتخمةَ بالطاقة ، إلّا ان الجزءَ غيرَ النفطي من العالم الثالث والمدينَ أكثر فأكثر ، لا يستطيع أبداً شراءها .

٤ ـ وإنَّ في تحسين الغرب تقنياتِهِ لقطع الاحراج ، وفي إتقانهِ الزراعة الاحادية ، تعريةً لسفوح جبال هملايا ، وفي طوفاناتِ بنغلادش أو مجاعاتِ الساحل . (تقدم تقني وعلمي أكيد ، يؤدي سنة ١٩٨٠ الى موت خمسين مليوناً في العالم الثالث ، وسيبلغُ هذا الرقم، خلال خمس سنوات، خمسة وثمانين مليوناً « لا وقف للتقدم» ! .

فمتى نُدركُ ان « نموذجَ التنميةِ الغربي » مشوهٌ ، وانه ظاهرةٌ تاريخيةٌ مرضية ؟ ومن يستطيع الحدَّ من طغيانِ العلومِ ، اذا لم يكن لها هدفٌ غير ذاتها ، واذا تُرِكَتْ تتضخّم على حساب سائرِ القيمِ الاخرى ؟

ان هذا « التطورَ المسخَ » وتَضخُّمَ المعرفةِ المفصولةِ عن الحياة ، وضمورَ جميع أبعادِ الانسان الأُخرى : (وهي الحب ، والابداع الفنيّ ، والتأملُ في غايات الحياة ، ومجردُ الطموح الى التوازنِ

---

* السماد .

والانسجام ، في علاقاتنا مع الطبيعةِ وعلاقاتنا الانسانية) ، لا يمكن اعتبارُها النموذجَ الذي يمكن أن نقيس عليه ، تَطَوُّرَ الحضاراتِ الأُخرى ، وعلومَها وتقنياتها . ولا يمكن الحكمُ على « تَطَوُّرَ » العلومِ والتقنياتِ ، في نطاقِ حضارةٍ معينةٍ ، دون مراعاة الحاجات التي ينبغي اشباعُها والبرنامجَ الثقافيَّ لهذا المجتمع . ولا يكفي التساؤ لُ عن كيفيةِ تَحَقُّق إِنجازاتِ العلومِ والتقنياتِ ، بل يجب التساؤ لُ لماذا هي كذلك ، ولأيةِ غاياتٍ هي مرصودة ؟

فلا العلومُ الصينية ، ولا الهندوسية ، ولا الاسلاميةُ كانت منظمةً بمعزلٍ عن الانسان ، بل كانت في خدمته . إن التركيز على الغاية الانسانية لم يُعِقْ قط ازدهارَها (أي ازدهار تلك العلوم) . واذا كانت العلومُ الاسلاميةُ لم تأخذ بمنهجِ التطورِ الغربي ، منذ القرن السادس عشر ، فليس مَرَدُّ ذلك الى نقصٍ فيها ، بل لرفضِ المسلمِ بحثَ اي فرعٍ منفصلاً عما يعتبرُه الاسلامُ غايةَ الوجودِ ومعناه .

ان علوم الصين والهند ، وما بين النهرين ، والاسلامِ ، عَرَفَتْ إزدهاراتٍ عجيبةً ، في حقبةٍ كانت فيها أوروبا جاهلةً ، انتقلت بعدها من الجهل البربري الى بربريةٍ عالمة . وليس المقصودُ إنكارَ أو دحضَ ما قدَّمته الحضارةُ الاغريقيةُ أو المسيحيةُ ، او الانبعاثُ ، أو القرنُ العشرون الغربي ، بل المقصودُ هو اعادتُها الى قِيَمِها الحقَّة : ان المساهمة الغربيةَ في ترقيةِ الانسان بالانسان ، وبخاصةٍ في أنسنة الانسان ، لم تكن الوحيدة ، ولا الأهم .

بهذه الروح نريد ان نُجْهِلَ تقويمَ العلوم الاسلامية ومستقبلَها كيلا نرى فيها ، كما رأى مؤرخونا في أغلب الاحيان ، مجردَ نقلٍ للعلوم

الاغريقية والهندوسية أو الصينية أو مجرد حلقةِ اكتشافات واقعةٍ في ما قبل تاريخ العلوم « الحديثة » لا فائدةَ فيها (محض تاريخية) الا بقدرِ ما كانت ـ تُمَهِّدُ لعلومِنا التي نُسمِّيها ، بغرورٍ واعتدادٍ ، العلومَ الغربية .

وامَّا بخصوص العلوم الاسلامية فينبغي لنا ، كي نفهمها في خصوصيتها ومغزاها أن لا نفصلها عما يحددُ أهدافَها : وهو العقيدةُ الاسلاميةُ ، القوةُ الحيةُ التي كانت روحَ هذه العلوم . ان مبدأ التوحيد الحجَرَ الاساسَ في التجربةِ الاسلاميةِ ، ينفي الفصلَ بين العلم والايمان . ولأن كلَّ ما في الطبيعةِ « آيةٌ » على الوجودِ الالهي ، فإن معرفةَ الطبيعةِ تُصبحُ مثل العمل ، شكلاً من الصلاة ، أو سبيلاً للتقرب من الله .

إن القرآن والأحاديثَ تدأبُ على تمجيد البحث العلمي وتُشَجِّعُ على التعلُّمِ ، حتى من الذين لا يشاركون في العقيدة المسلمة . وهذا ما يُفَسِّرُ دور الإسلامِ المُخْصِب والنهضةَ العلميةَ التي انتشرت ، في كل مكانٍ ، بفضل توسعه الإقليمي : يقول النبي :

(ما من رجل يسلك طريقاً يلتمس فيها علماً الا سهَّل الله له طريقاً الى الجنة) . . . . إن مداد العلماء أفضلُ من دماء الشهداء .

وكان في عصر ولادةِ الاسلام ، وفي النُطُقِ الحضارية الأُخرى ، ثمة حواجز بين الانسان والطبيعة والله .

لقد حصل هذا الانقسام ، في الحضارة الاغريقية ، مع سقراط والسفطائيين :

إن الاهتمام المطلق بالانسان ومدينتهِ عَزَلَهُ عن الكون وعن الله ،

وحـوله عن الملاحظةِ والتجربةِ الى الجدلية النظرية . وجديرٌ بالملاحظةِ أنَّ عِلْمَ الـطبيعـةِ ـ من بـين مـا اتُفِقَ عـلى تسميتـه بـ « العلوم الأغريقية » ـ لم يتطور قط ، في أثينا واليونان ، بل في آسيا الصغرى ومصـر وصقلية . وأنَّ « الفيـزيائيـين في أيونيـا » الذين جـاءوا قبـل سقراط والذين كانوا يحرصون على الطبيعةِ والتجربة ، كانوا يواصلون في آسيا الصغرى مهمةَ فلكيي وأطباءِ ما بين النهرين والهند ، فضـلاً عن أنَّ « أبا الطب » هيبقراط المولود في (Cos)[152] ينتمي أيضاً الى هذه المنطقةِ من آسيا . وكان ارخميدس صقلياً ، وأقليدس وبطليموس اسكندريين :

وإنَّ أرِسـطو هو الـوحيدُ ، من بـين ورثةِ سُقـراط ، الذي اهتَمَّ بالفيزياء والعلوم الطبيعيـة . وكان اهتمـامه بجـرد المعرفـة السابقـة وتصنيفها ، أكثرَ بكثيرٍ من اهتمامه بالتجديد . إن ارسطو هذا الذي كان مثل (ديمقريط)[153] مكدونياً وقريباً للاسكندر ، اضطر لمغادرة أثينـا ، وبدأ بحـوثـه البيـولـوجيـة عن الحيـوانـات والنبـاتـات ، في (Assos)[154] من مقاطعة (Mysie) في آسيا الصغرى .

وان (André Bonnard) ، اضـطر ـ في تـاريخــه عن الحضـارة الاغريقية التي كان يهتم بها ـ الى الاعتـراف بأن « العلوم الاغـريقية

---

(١٥٢) هيبقريط المولود في Cos : (٤٦٠ ـ ؟) ولد في جزيرة كوس اليونانية . اشهر كتبه (تقدمة المعرفة) و (طبيعة الانسان) .

(١٥٣) ديمقريط : فيلسوف يوني (القرن الخامس قبل الميلاد) . قال بأن العالم مؤلف من ذرات لا نهاية لها . ويقول : إن السعادة في ضبط أهواء النفس .

(١٥٤) Mysie وبلدة Assos : ومقاطعة في الشمال الغربي من تركيا ، وأسـوس إحدى بلدانها . وبرغام مدينة شهيرة في هذه المقاطعة .

كانت في مطلع العصر الاسكندري ، نظريةً وتجريداً ، وحساباً أكثر من أي شيء آخر (. . .) وأن البحثَ الفلسفي أصبح تأملاً صرفاً . ولم ينطلق الطبُّ من عقاله ، إلا في مصر حيث كان التشريحُ متطوراً (وبخاصةٍ ، بمزاولة التحنيط)، وعاد تجريبياً مع (Hérophile)[155] و (Erasistrate) ، في القرنين الأول والثاني ، كما كان في زمن هيبقراط ، الى جانب مجموعات ونظريات غاليان (جالينوس)[156] .

وفي فارس التي ذوى فيها أولُ ازدهار لعلومٍ ما بين النهرين كما ذوت اسهاماتُ الهند، بسبب الثنائية المزدكية التي أصبحت تحت حكم الساسانيين ديانةَ الدولةِ ، نجدُ أنَّهُ كان للاسلام الذي أحيا وحده الكون والانسان والله ، تأثيرٌ مثمرٌ جداً لأن عبقرياتٍ موسوعيةً بدأت تظهر بعد انتشاره (بعد الاسلمة) كالرازي وابن سينا والبيروني وابن الهيثم .

وبروحٍ من الانفتاح العجيب ، بدأ عهدُ العلوم العربيةِ بجهد منظم لاستيعاب تراث كل الثقافات الكبرى الماضية .

وانه لذو مغزى ان يطلب الخليفةُ هرون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) عندما استولى على أنقرة ، أو أن يطلب المأمون (٨١٤ ـ ٨٣٣) عندما انتصر على الامبراطور البيزنطي ميشال الثالث ، تسليمَ مخطوطاتٍ قديمةٍ تعويضاً عن أضرار الحرب .

---

(١٥٥) Herophile[1] و Erasistrate[2] : الأول (٣٣٥ ـ ٢٨٠) قبل المسيح طبيب ومشرح شهير . والثاني رائد في التشريح . طبيب في القرن الثالث قبل المسيح .

(١٥٦) طبيب اغريقي ، ولد في برغام (١٣١ ـ ٢٠١) له كشوف مهمة في التشريح .

ثم جُهِّز عملٌ ضخم للترجمة : ففي بغداد جذب هرون الرشيد ، الى بلاطه ، منذ القرن الثامن علماء ولغويين من جميع الاوساط . وأسس أحدُ أولاده الخليفةُ المأمون ، مدرسةً للمترجمين ، كان يديرها بادىء الأمر ، فارسي يُدْعَى يحيى بن ماسويه ، من جندیسابور[157] ، وهو طبيب ورئيس المترجمين في عهد هرون الرشيد وعهد ابنه الخليفة المأمون . وقد خلفه ، في مهمته ، أشهر مُنَشِّطٍ لفرق الترجمة : حنين بن اسحق ، من قبيلة عبادي العربية النازلة ، منذ زمنٍ بعيدٍ ، في الحيرة على ضفاف الفرات . إن حنيناً هذا الذي اعتنق المسيحية لم يترجم مؤلفات هيبقراط الطبية وغاليان (Discoride) فحسب ، بل تَرْجَمَ أيضاً مؤلفات الرياضيين ، والفلكيين وعلماء الطبيعة ، كما ان الغزاري ترجم ، بأمرٍ من المأمون رسالة الفلك الهندية (السدهانتا Siddhanta(*) لـ Brahmagnpta)[158] .

ولما تعلم العربُ ، من الصينين ، تقنيات صناعةِ الورق (ان أول وراقةٍ ـ صناعة الورق ـ أنشئت في بغداد سنة ٨٠٠) ، التي لم يعرفها الغربُ منهم ، الاّ بعد أربعة قرون ، تكاثرت دورُ الكتب في كل العالم الغربي :

(١٥٧) جنديسابور : مدينة في خوزستان أسسها الملك سابور الأول وأسكن فيها الشعوب اليونانية التي أسرها .

* Siddhanta : وهي في العربية السند هند .

(١٥٨) Brahm a gupta : فلكي هندسي من القرن السادس قبل الميلاد . ألف رسالة في الفلك اسمها سندهند ، ترجمها الفزارى أول فلكي في الاسلام .

لقد أسس المأمون في بغداد سنة ٨١٥ « بيت الحكمة » ، الـذي كـان يحتوي عـلى مليون مؤلف . وفي سنـة ٨٩١ أحصى سائـحٌ في المدينة ، اكثر من مائة دار كتب عامة . وفي القرن العاشر ، كـانت مدينةٌ صغيـرةٌ مثلُ النجف ، في العـراق ، تحتوي عـلى أربعين الف مجلد . وان ناصر الدين الطوسي ، مديرَ مرصد مراغة جمع اربعماية الف عنوان كتاب . وفي الطرف الثاني من العالم الاسلامي ، أي في اسبانيا المسلمة ، كان الخليفةُ الحَكَمُ في قرطبة ، في القرن العاشر ، يفخر ، بدار كتبٍ تَضم أربعين ألف كتاب ، في حين أَن ملك فرانسا شـارل الحكيم (أي العالم) الـذي أتى بعده بـأربعـة قـرون لم يكـد يجمـع ، تسعمايـة كتاب . ولكن أحـداً لا يستطيـع منافسـةَ خليفـةِ القاهرة العزيز الذي جمع في مكتبته مليوناً وستمايـة الف مجلد ، منها ستة آلاف في الرياضيات وثمانية عشر ألفاً في الفلسفة .

هذا الشغفُ بالكتب ، وهذا الجهدُ لتمثُّـل الثقافـات السابقـةِ في ايران ، والهند ، والصين ، واليونان ،لم ينطوعلى أَية انتقائية ، بل إن المسلمين المنفتحين على هذا التراث الغني ، قد أحيوه وجددوه انطلاقاً من رؤ ياهم الخاصة ، وميّزوا ما يمكنُ أن يندمجَ مع هذه الرؤ يـا ، بعد ان لقحوه بها وحولوه .

إنهم (أي المسلمين) قدموا ، بعقيدتهم ، أغنى مساهمةٍ في الثقافة العالمية . ان السبب الرئيسي للركود العلمي في أوروبا النصرانية هو تَحَفُّظها تجاه الطبيعة ، الذي لا يمكن إلاَّ ان يُبعدَ عن الله . ان هذا ثابتةُ هذه الثنائية التي أفسدت الرؤ يا النصرانية : ان (Eusebe de

(Cesareé)[159] حبر الكنيسة وأسقف قيسارية ، كان يقول لعلماء الاسكندرية وبرغام « إننا نأبهُ قليلاً جداً لنشاطكم الباطل ، ونزدريه ، ونصرف أذهاننا الى اهتمامات أسمى » .

وبعدها بعشرة قرون ، أيَّدَ توما الاكويني ذات الثنائية بقوله : إن أقل معرفةٍ يمكن أن نكتسبها من الأمور العليا ، مستحبةٌ لدينا أكثر من أية معرفةٍ كبيرةٍ جداً في الأمور الدنيا » . ولذا فإننا لا ندهش اذا استمرت النصرانيةُ ـ بناءً على هذا المفهوم عن العلاقات بين الانسان والطبيعة والله ـ في قتالٍ مع العلوم ـ متراجعةً أمامها ـ منذ ذلك التاريخ . ان هذا التعصب النصراني ، كان يستبعد (أو يتلف ، عندما كانت الكنيسة تملك السلطة) ما يعتبره أنه « وثني » أو «هرطوقي» : ففي سنة ٣٩١ طلب البطريرك (Théophile)(*) الى الامبراطور (Thésdose)(**) إغلاق آخر أكاديمية (LeSerapian) وإحراقَ دارِ كتبها الضخمة .

وفي سنة ٦٠٠ أُحْرِقَتْ دار كتب البلاط التي أسسها أغسطس (Auguste) . وكانت قراءةُ الآداب والفنونِ ودراسةُ الرياضيات ممنوعة . واما مكتبة الاسكندرية ، فقد زعموا ، بعد خمسة قرون من

---

(١٥٩) **Eusebe de Cesarée** : (٢٦٧ ؟ ـ ٣٤٠) ولد في قيساريه في فلسطين . اتهم بالهرطقة لأنه اتبع نظرية آريوس .

* أسقف الاسكندرية مات سنة ٤١٢ : Theophile كان لديهم روزنامة ، وعلم مقبرة في ممفيس ، في مصر ، حيث كان يدفن الثور « أبيس » :

وكان في هذه المقبرة ، على ما يبدو ، مكتبة كبيرة .

** امبراطور اسباني (٣٤٦ ـ ٣٩٥) : Théodose يعرفون الهيروغليفية .

Sérapion حساب ، وفن .

الفتح العربي ـ إذكاءً لتعصب الصليبيين ـ بأن عمر بن الخطاب هو الذي أحرقها ، في حين انه لم يكن في المدينة ـ عند دخول العرب اليها سنة ٦٤٠ ـ مكتبةٌ عامة منذ زمنٍ طويل .

ان هذا الموقف قد تكرر مع « احكام التفتيش » التي تلت طرد العرب من أسبانيا ، في القرن السادس عشر ، وامتدت الى ما وراء البحار، عندما جمع القديس (Diegs Landa) وحَرَقَ مثلاً، في المكسيك كل آثار « المايا »(*) المكتوبة ، وأتلف تقريباً كل مصادر هذه الحضارة القديمة الفنية .

ان هذا التعصب أدَّى الى ركودٍ دام عدة قرون في أوروبا ، بينما عرف المسلمون المنتصرون ، كيف يتمثلون الثقافات ـ بدلاً من تدميرها ـ. فازدهرت ثقافتهم وشعت ثقافةً كانت في جميع جوانبها ـ مستوحاةً من رؤ يا القرآن التوحيدية .

هذا ما يفسر النظام التربوي الخاص بالاسلام الذي ينطلق من تعليم القرآن في المسجد . ان العقيدة تدمج كل العلوم ، في مجموع عضوي ، غرضُه كُله عالمٌ هو ، في كُلِّيته ، تَجَلٍّ الله للناس (Théophanie) وكشف عن « آيات) الله .

ان الكون « أيقونه » يتجلى فيها الأحدُ عبرَ المتعدد ، بألف رمز .

إن احدى المميزات الجوهرية للعلوم العربية المنبثقة عن مبدأ الوحدة هذا ، هي ترابطها :

فلا فصلَ بين علوم الطبيعة والمرئي من جهة ، وعلمِ اللاهوت أو

* جماعة من هنود أميركا في غواتيمالا وبتلييز والمكسيك ، ذات حضارة عريقة بين ٦٠٠ ـ ٩٠٠ ميلادية Maya .

الفنون من جهةٍ اخرى . ولا حواجز عازلةً بين العلوم المختلفةِ ، من الرياضيات الى الجغرافيا . وهذا ما يُفَسر العـددَ الكبير من العبـاقرةِ الموسوعيين في الثقافةِ الاسلامية .

وبينما نجد في تقليدنا الغـربي ، قليلاً من العبـاقرة العـالميين مثـل (Léonard de Vinci)[١٦٠] نرى أنهم ، في الاسلام كثيـرون ـ من الكنـدي* الى الرازي* ، ومن البيـروني الى ابن سينا، وعشـرات الآخـرين من الرجـال المُبـدعـين ، في الـطب والـريـاضيـات وعلم اللاهوت والجغرافيا، وغالب الأحيان في الشعر (كالـرياضي عمـر الخيام[١٦١] ، والفيلسوف[١٦٢] ابن عربي) ، أو في الموسيقى (مثـل الرازي الكبير) .

هذه الرؤ يا التوحيديةُ تفسر كذلك ، الأهمية التي توليها الحضـارةُ الاسلاميةُ ، لتصنيف العلوم ، اذ بإبراز وحدةِ الواقع ومعرفةِ الإنسان

---

(١٦٠) **Leonard de vinci** : رسام ، ونحات ، وعالم إيطالي (١٤٥٢ ـ ١٥١٩) .

* الكندي : يعقوب . ولد في الكوفة : فيلسوف العرب ، أقام في بلاط العباسيين وترجم مؤلفات اليونان التي نقلت إلى اللاتينية . كان حجة في علم الفلك . وكان معتزلياً . توفي سنة ٨٧٣ .

* الـرازي : محمـد ابن زكـريـا (٨٦٤ ـ ٩٣٢ ؟) ولـد في الـري . مكنى « جـالينـوس العرب » ، أو طبيب المسلمين . صاحب كتاب « الحاوي » الشهير ، وغيره .

(١٦١) عمـر الخيام : عـالم وشـاعـر فـارسي (١٠٧٤ ـ ١١٣٢) صـاحب الـربـاعيـات الشهيرة .

(١٦٢) محي الدين بن عربي : (١١٦٥ ـ ١٢٤٠) ولدفي الأندلس وتـوفي في دمشق . صوفي كبير . له مؤلفات قيمة عديدة .

به نسيرُ من تأملِ وحدةِ العالم الى تأمل الوحدة الإلٰهية ، التي صورتْها وحدةُ الطبيعة .

وهكذا يكون الانتقالُ ـ دون انقطاع ـ من المسجدِ الى المدرسةِ التي يظل التعليم فيها عن وحدةِ الله ووحدةِ الطبيعةِ أساس كل معرفة ، (كما هو الحال في القرويين في فاس ، والزيتونة في تونس والازهر في القاهرة ، وجامعات سمرقند او قرطبة) كما هي معدومة أي فجوة مع سائر أجهزة التعليم والبحث ، سواء كانت مراصد (كتلك التي بنى اولها الخليفة عبد الملك ، في دمشق سنة ٧٠٧) أو مستشفيات كانت في ذات الوقت كليات للطب .

واما خارج العالم الاسلامي ، فإن كبريات كليات الطب (واشهرها كلية Salerne[١٦٣] في ايطاليا ، بعد نهاية الحكم العربي ، أو كلية (Bolagne)[١٦٤] أو (Montpellier)[١٦٥]) نشأت على غرار الكليات العربية وتحت تأثير تعليمها .

وأما الجامعات الاوروبية ، كجامعة باريس ، واكسفورد ، فقد أنشئت وفق النموذج المسلم ، بعد قرنين أو ثلاثة من التخلف .

واذا ضربنا صفحاً عن الطرفةِ والحدثِ ، والأسبقيةِ الأكيدةِ لهذا الاكتشافِ الغربي أو ذاك المنسوب ـ دوماً وبسخريةٍ ـ الى هذا العالم اليوناني او الغربي او ذاك ، فإن الدافع الاساسي للعلوم العربية هو

---

(١٦٣) Salerne : مدينة جنوبي ايطاليا .

(١٦٤) Bologne : مدينة في ايطاليا .

(١٦٥) Montpellier : مدينة في فرانسا .

الذي جعل منها شيئاً يختلف جداً عن حلقةٍ بين الهلينية و « الحداثة » أو عن توطئةٍ للعلومِ الغربية الحالية ، ومفهوماً عن المعرفةِ لم يكن قط علم ـ أثرياتٍ العلوم المسماة « حديثة » .

واذا أدركنا روحيةَ هذه العلوم العربية (لإنجازاتها التاريخيـة فقط فإنها تساعدنا على التخلي عن « علموية » تفصل بين العلوم والحكمة (أي اعـداد وسائـل التفكير في الغـايات) وتجعل من هذه العلوم المفتقرة الى بُعدها الجوهري الذي هو تَفَتُّحُ الانسان ، القيمةُ الوحيدةُ المطلقةُ التي تُرْفَضُ باسمها أيةُ مسألةٍ غيرِ مسألـةِ الفعاليـةِ والمنفعةِ ، وكلُّ قيمةٍ غيرِ قيمتي القدرة والنماء .

إن الرياضيات في المنظور الاسلامي مجازٌ بين المحسوس والمعقول ، وبين عالم الحدوث و (الصيرورة) والعالـم الأبدي إنها ـ في العلوم كما في الفنون ـ (من الهندسة المعماريـة الى الزخـرفة الى المـوسيقى التي تحكُمُها الهندسةُ والعلاقاتُ الرياضيةُ) طريقُ الوحدة . وان الكتاب الهنـدي (Siddhanta) الذي أُتِيَ بـه سنـة ٧٧٣ الى بـلاط الخليفـة المأمون ، يتضمن نظامَ العدِ العشري الذي يسمح ـ بتسعِ اشاراتٍ مضافٍ اليها الصفر ـ بالتعبير عن أي عدد .

لقد قلب هذا الكتابُ أوضاعَ الرياضيات .

وان هذا النمط الجديد في الحساب، حَمَـلَ اسم الذي مَنْهَـجَ الاكتشاف الهندي : انه الخوارزمي الذي قَلَبَ أوضاعَ الرياضيات في الغـرب، بعد قـرنين من الزمـان، عَبْرَ الجـامعة الاسـلامية في

قرطبة والراهب (Gerbert) (الذي صار البابا (Sylvestre II)[١٦٦] فيما بعد). كما دخلت هذه الطريقةُ الجديدةُ عن طريق صقلية التي كتب (Leonardo Bonacei) المولود في (Pise)[١٦٧] سنة ١١٨٠ والمُسمَّى باختصار (Fibonacci) في مطلع كتابه (Liber a baci) :

«إن الاشارات العدديةَ الهنديةَ التسعةَ هي التالية ١٢٣٤٥٦٧٨٩ ، وبواسطة هذه الأرقام والاشارة (٥) التي تُسمى صفراً ، باللغة العربية تُمْكِنُ كتابةُ أي عدد » (والصفر المُصَوَّرُ بدائرةٍ بالنسبةِ للهنود ، يعني العدمَ ، الفراغَ (Sunya) وهو ما يترجمه العربُ حرفياً بالصفر . والعدد (١) واحد ، هو الرمز الأقربُ من المبدأ الالٰهي ، وان سلسلةَ الاعداد وتركيباتِها هي السُّلَّمُ الذي يرتفع ، الانسانُ بواسطته من المتعدد الى الواحد .

وهكذا تكون الرياضياتُ مرتبطةً ، مباشرةً ، بالرسالةِ الاسلامية الاساسية ، رسالة التوحيد . إنها (أي الرياضيات) علمٌ « جليلٌ » وواحدةٌ من المماثلات المشيرةِ الى حضور الالٰهي ، في العلوم الأخرى كما في هندسةِ الفنون .

واذا تذكرنا أن العدد (٤٤٤٤) كان يكتب بالحروف الرومانية (MMMMCCCXLIV) وأن هذا يجعل أي حساب صعباً جداً ، نَتَبيَّنُ دورَ هذا العَدِّ الموقِعِي ، ودورَ الصفرِ ، في تطورِ العلوم والتقنيات والصناعةِ والتجارةِ والمحاسبة .

---

(١٦٦) **Sybrdre II** : (٩٣٨ ـ ١٠٠٣) وبابا منذ ٩٩٩ حتى ١٠٠٣ .

(١٦٧) **Pise** : مدينة ايطالية على نهر (أرنو) .

من هنا وبعد أن أخذ العربُ عن الاغريق كل مكتشفاتِهم سلكُوا منحىً آخر ، وقفزوا بالرياضيات ، قفزةً حاسمةً وبخاصةٍ ، عندما لم يرفضوا « غير المحدود » (اللانهائي) ويعتبروه - كالاغريق - « غير معقول » . إن عملهم كان على العكس منصباً على اللانهائي :

ان ثابت بن قره[١٦٨] المتوفي سنة ٩٠١ ، تقصّى المجموعات اللانهائية ، التي ليست ، مع ذلك ، سوى أجزاء من مجموعٍ آخرٍ لا متناهٍ ، (كمجموع الاعداد المزدوجةِ ، بالنسبة لمجموع الأعداد) .

والخوارزمي كان رائد الجبر (وهذه الكلمة هي عنوان كتابه الشهير « الخبرة ») . ومع هذا المُبدعِ للجبر حَدَثَ انتقالُ المفهوم الاغريقي عن العدد من مقدار صرفٍ ، الى مفهومه كعلاقةٍ صرف .

وبعده حسب الـ (Kashani)[١٦٩] النسبة بين الدائرة وقطرها (العدد π) ، وأبدع عُمَرُ الخيام نظريةَ الأعدادِ الصمّاء ، متخلياً عن الحكم المسبق الأغريقي عن المحدود ، وكتب رسالةً منهجيةً حول معادلات الدرجةِ الثالثةِ ، الأكثرِ تقدماً حتى مطلع القرن السابع عشر .

وبدأ ابن ثابت بن قرة ، في القرن التاسع ، الحساب التكاملي وربط الهندسةَ بالجبر : وبحث الطوسي[١٧٠] ، والبيروني[١٧١] ،

---

(١٦٨) ابن ثابت بن قرة : ابو الحسن الحمداني (٨٢٦ - ٩٠١) .

(١٦٩) كاشاني :

(١٧٠) الطوسي : نصير الدين (١٢٠١ - ١٢٧٤) ولد في طوس وتوفي في بغداد .

(١٧١) البيروني : ابو الريحان محمد ابن أحمد البيروني (٩٦٢ - ١٠٤٨) .

وابو الوفا[١٧٢] ، في المثلثات[١٧٣] (Sinus) والقاطع (Se'cantes) ، قروناً عديدةً ، قبل كوبرنيك[١٧٤] .

واما في الفلك فقد استوعب العرب تُراثَ بطليموس[١٧٥] ثم سبقوه الى حدٍ كبير على جميع المستويات ، ووحدوه كليةً مع الغاياتِ الاخيرةِ التي عَيَّنَهَا الاسلام .

كتب البتّاني[١٧٦] (٨٧٧ ـ ٩١٨) أحد اكبر فلكيي القرن التاسع يقول : « يعلم النجوم يصل الانسانُ الى دليل على وحدانيةِ الله والى معرفةِ الحكمةِ من صنعته » .

ان العلوم العربيةَ تتميز أولاً ، عن العلوم الاغريقية ، على صعيد الملاحظة ، لأن منهجها تجريبيٌ ، في جوهره ـ فقد شَيَّدَ المأمونُ ، في بغداد ، مرصداً لمعاينةِ حركةِ الكواكب ، بصورة منهجية . وأُجريت ، بإدارةِ يحيى بن ابي منصور ، قياساتٌ دقيقةٌ راقبها مركز جند يسابور ، ثم دققها ـ بعد ثلاث سنوات ـ مرصدُ قاسيون قرب دمشق ـ ووضع فلكيو المأمون « الجداول المأمونية » التي صَحَّحَتْ ، جذرياً ، جداولَ بطليموس . وكتب ابنُ ثابت بن قرة رسالةً عن سبب إبدال جداول بطليموس بالجداول المُحَقَّقة .

---

(١٧٢) ابو الوفا : محمد (٩٤٠ ـ ٩٩٨) ولد في بوزجان وعاش في بغداد .

(١٧٣) المثلثات : علم في الرياضيات معروف .

(١٧٤) كوبرنيك : عالم فلك بولوني (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) .

(١٧٥) بطليموس : انظر ما سبق .

(١٧٦) البتاني : عبد الله محمد بن سنان (٨٥٨ ـ ٩٢٩) .

وان فلاكة العرب لم تسبق فلاكة الاغريق على صعيد الملاحظةِ فقط ، بل على صعيد القياس .

فالبتاني قاس الانحناء الاهليلجي : ٣٥ / ٥ ٢٣ (وقد حُدِّدَ اليوم بـ ٢٧ ٢٣) ومبادرةَ الاعتدالين (٥ء ٥ـ٤ سنوياً) وتوصَّلَ فلكيو المأمون ، في القرن التاسع ، الى قياس الهاجرةِ فكانت ١١١٨١٤ مترا (وقياسها اليوم ١١٠٩٣٨ متراً) وفي القرن الثالث عشر ، شُيِّد مرصد مراغة ، وتولى إدارتَه نصرُ الدين الطوسي (١٢٠١ ـ ١٢٧٤) فاصبح نموذجاً في التوفيق بين الملاحظة والحساب . وكان للمرصد عدةٌ فريدةٌ في ذلك العصر وبخاصةٍ كُرَتُه المحلَّقَة المؤلفة من خمس حلقاتٍ نحاسيةٍ يفوق قطر الواحدة منها ثلاثة امتار ، الأمر الذي يفترض تقنيةً متطورةً في قطع المعدن . وفي العصر ذاته قَلَّدَ الملكُ النصراني الفونس العاشر القشتالي الملقب « بالحكيم » جهاز مراغه ، في (Burgos)[١٧٧] لوضعِ الجداول الألفنسية[١٧٨] المنسوخة عن الجداول العربية التي اعتمدها (Nicolas de Cuse)[١٧٩] وطرحها على سينودوس[١٨٠] سنة ١٤٥٦ ، لاجراء تعديل في التقويم (الروزنامة) .

إن هذه الابحاث الفلكية كانت تُقَدِّمُ للعرب فائدةً عملية : للاهتداء في الصحراء والبحر :

---

(١٧٧) Burgos : قشتالة القديمة ـ مدينة اسبانية .

(١٧٨) الفونس العاشر : ولد في طليطلة (١٢٢١ ـ ١٢٨٤) امبراطور جرماني من (١٢٦٧ ـ ١٢٧٢) .

(١٧٩) Nicolas de Cuse : كاردينال ألماني ، (١٤٠١ ـ ١٤٦٤) .

(١٨٠) سينودس : مجمع كنسي .

فعندما أصبح رُحَّلُ العربية مـلاحين يَشُقُّـون مياهَ البحـر الأبيض المتوسط ، والمحيط الهندي وجوانب افريقيا تَطَلَّبَتِ الحاجةُ « لتحديد مكـان السفينة » ، معلومـاتٍ معمقةً وأدواتِ قيـاس كـالاسـطرلاب (الـذي حَسَّنُوه ، حتى اتـاح لهم قيـاسَ ارتفـاعِ النجـوم والشمس والقمـر والكواكب الأخـرى) والبوصلة التي اختـرعـوهـا ونقلوهـا للصينيين .

وتَطَلَّب واجبُ الاتجاهِ نحو مكة للصلاة ، أياً كـان المكان الـذي يوجدُ فيه المسلمُ علماً دقيقاً للتـوجُّه في الفضـاء ، كما اقتضى واجبُ تحديد مواعيد الصلاةِ الخمس اليومية وضْعَ علاماتٍ شديدةً لمواقعِ الشمس وساعةِ شروقها وغروبها لتحديد بداية ونهاية الصوم اليومي ، ومُدَّةِ الإقمارِ لحساب أول وآخر شهر رمضان .

ان حفيد تيمورلنك ، الامير الفلكي (Oulong Bek)[١٨١] الذي قَلَّدَ مرصد مراغة في سمرقند، تَوصَّلَ الى قياس السنة الشمسية مع فارقٍ / ١٤ / ثانية عن الحسابات الحالية .

وبالروح نفسها ، عالج العلماء المسلمون الجغرافيا .

فقـد كتب البيروني في كتـابه الآثـار الباقيـة عن القرون الخـاليـة (Livre de la de'termination des aires) دخل الاسلامُ العـالَمَ من الشـرق الى الغرب وتَقَـدَّمَ في أوروبا وحتى تخـوم الصـين ، وفي الحبشة وفي بلاد الزنج (جنوب افريقيا)وأرخبيــل ماليزيـا وجاوة ، والبلاد التركية والسلافية ، وتتلمذت على يده شعوبٌ كثيرة في علمٍ

(١٨١) Oulong-Beak : (ميرزا محمد طراغي ١٣٩٤ - ١٤٩٩) .

لا يمكن أن يستلهموه إلاَّ من الله .

إنهم في هذا الحقل أيضاً ، حققوا تقدماً كبيراً بالنسبة لبطليموس .

يقول البيروني : « إن جغرافية بطليموس وضعت في شرق بعض الأمكنة ، ما هو الآن غرب كثير منها (. . .) وإن سبب هذا الخطأ عائد لغموض المعطيات ، كتقديراتِ خطوطِ الطول والعرض » .

وكذلك بالنسبة لعلم الفلك ، فإن الإتقانَ فيه ناجمٌ عن الأقيسة (خطوط الطول والعرض) وعن الملاحظة (الخرائطية ، وتكوين التضاريس ، والجغرافية الانسانية المرتبطة بالتاريخ) وبفعل متطلبات التجارة والملاحة ، والحج ، والادارة ، وتأمل الصنع الالهي « وآياته » كانت الجغرافيا مع الرياضيات وعلم الفلك والطب ، أحد العلوم التي كان فيها إسهامُ الحضارة العربية ، الأكثر أهميةً . فهي كغيرها من العلوم مستوحاةٌ من العقيدة الاسلامية ، لأن الطبيعة هي الى جانب القرآن ، قرآنُ الكون ، المكتوبُ هو أيضاً بيد الله . وإن أرضَ الجغرافيين هي كسماء الفلكيين ، صورةٌ رمزيةٌ ، وآيةُ « الله » وتجلي الله وظهور إلٰهٍ ، لا يستطيع أحدٌ منا أن يراه كما هو في ذاته .

وكان للجغرافيا ـ مضافاً الى هذه الاعتبارات ـ أهميةٌ رئيسية بالنسبة لهذه الحضارة الاسلامية التي غَطَّتْ رقعةً أوسع من أية امبراطورية سابقة ، كان الانتقال فيها شديداً . وإن واجب الحج الى مكة المفروضَ على المسلمين زاد ، باستمرارٍ من عدد المسافرين ، كما أن التجارة ذات المسافةِ الطويلة ، في مساحةٍ جغرافيةٍ جد مترامية ، لم تستلزم هي أيضاً ، خرائطيةً دقيقةً للبَحَّارة ، وقادةِ القوافل فحسب ،

بل معرفةً معمقةً عن مصادر وحاجات كل مكان ، أي جغرافية اقتصادية وانسانية .

ومنذ القرن التاسع ، شقَّ الملاحون العربُ المحيطَ الهندي ؛ وفي القرن العاشر ، أي قبل (Marco Polo)[١٨٢] بثلاثة قرون (١٢٥٤ ـ ١٣٢٤) أعطى التاجرُ العربي سليمان[١٨٣] أوَّلَ وصفٍ للصين .

ثم جاب المفكرُ الموسوعيُ والرحالةُ الكبيرُ ، ابن بطوطة[١٨٤] ، كُلَّ البلاد العربية من (Tombocton)[١٨٥] الى بخاري ، وعَبَرَ افغانستان ، والهند الى دلهي ، ليبلغ ، مروراً بسيلان ، مدينة (Canton)[١٨٦] في الصين ، ودَوَّنَ إعجابَهُ بها في مذكراته .

وفي بلاط (Roger)[١٨٧] الثاني ملك صقلية ـ بعد استعادة صقلية من العرب ـ ألَّفَ الجغرافيُ العربيُ الكبير ، الادريسي (المولود في (Centa)[١٨٨] سنة ١١٠١) كتاب (Roger) الذي شكَّل بخرائطه

---

(١٨٢) Mares Pols : ماركو بولو (١٢٥٤ ـ ١٣٢٣) ولد في البندقية . رحل من ايطاليا الى أواسط أسيا وعاد عن طريق سومطرة .

(١٨٣) سليمان : سليمان المَهْري . لقب بمعلم البحر . توفي سنة ١٥٥٤ . له مؤلفات في علم النجوم والرياح ونواميسها وفي أنواء البحر ووصف الطرق البحرية بين بلاد العرب واندونيسيا والصين .

(١٨٤) ابن بطوطة : (١٣٠٤ ـ ١٣٧٨) طاف مختلف العالم استغرقت رحلاته ٢٩ سنة . له « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » .

(١٨٥) Tombocton : مدينة في مالي . قرب نهر النيجر .

(١٨٦) Canton : مرفأ صيني . على مصب نهر (سي ـ كيانج) .

(١٨٧) Roger : (١٠٩٥ ـ ١١٥٤) ملك على صقلية من (١١٣٠ ـ ١١٥٤) .

(١٨٨) Centa : وهي سبتة بالعربية مدينة في المغرب . قبالة جبل طارق .

أفضلَ وصـفٍ للعالمِ في العصر الوسيط ، فَقَدَّم مساعدةً جُلّى للملاحةِ الصقليـين ومن بعدهم الى (Catalans)[١٨٩] والبـرتغـاليـين ، عن طريق الملاحـين الجنوبيـين . لقد بُنيت هـذه الخرائـطيةُ عـلى تحديـدٍ رياضي لخطوط الطول والعرض وعلى نظريةِ اسقاطٍ مسـطحٍ سبقت نظرية (Mercator)[١٩٠] التي أتت بعدها بخمسـة قرون ، وبحثٍ دقيق في تحديد تخطيط الشواطىء ومجاري الأنهار .

وأخيراً فان ابن ماجد[١٩١] سليل عائلةٍ من الربابنه ، المولود سنة ١٤٣٠ لم يكن مؤلفَ كتابِ الفوائد في أصول علم البحر والقواعد فقط (Livre sur les principes de la nautique et les regles). بـل ربانـاً كـانـوا يُلَقِّبـونـه « أسـدَ العـواصف » . وكـان يقود من (Melinde)[١٩٢] (على الشاطىء الافريقي) الى كلكتا سنة ١٤٩٨ أسطول (Vasco de Gama)[*] البرتغالي الذي كان يعتبره « كنـزاً ثميناً » .

كـل هـذه العلوم تقـدمت في جَـوٍ من الحمـاس الـديني : ان الجغـرافيـين العـربُ يحبـون ذكـر قـولَ ابن السعــدي الـذي كــان يحبه الرسول (ﷺ) « إن ابلغ موعظةٍ هي في الترحال عبر العـالم البكر ، والتأملِ في هدوء « مد وجزر البحار » .

---

(١٨٩) **Catalan** : نسبة لمقاطعة Catalogne ، في شمال شرق أسبانيا .

(١٩٠) **Mercator** : رياضي وجغرافي فلاندري (١٥١٢ ـ ١٥٩٤) .

(١٩١) **ابن ماجد** : هو شهاب الدين بن ماجد . من كبار البحارة العرب .

(١٩٢) **Mélinde** : مدينة قديمة في افريقيا الغربية ، عاصمة مقاطعة فيلندا استولت عليها البرتغال في القرن السابع عشرٌ .

(*) رحالة برتغالي .

ولكن ثمةَ فعلٌ ، يتجاوز التأملَ والدرسَ والبحثَ ويؤثر على هذه الطبيعة : « ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة قليلاً ما تشكرون » (سورة السجدة ، آية ٩) وجعل منه « خليفةً » على الأرض « مسؤولاً عن توازنها وجعلها خليقة بخالقها ، وعن تحسين مناظرها الطبيعية .

إن الحديقةَ الفارسية أو الأندلسية صورةٌ عن الفردوس (تسمى الحديقة في الفارسية Pardès) كالتي مازلنا ندهش لها في أصفهان او شيراز ، أو في الحمراء أو في جنة العريف في غرناطة .

وهنا أيضا ، لا فصلَ بين الجغرافيا والزراعة والجيولوجيا[١٩٣] والبوتانيك[١٩٤] والبيولوجيا[١٩٥] . بل تواصل طبيعيٌ . من دراسة الجبال والسهول والمحيطات وتعرجاتها وتآكلها ورواسبها ومياهها الجوفية ، الى استخدام الإنسان لها من أجل تسوية الأرض ، وفقَ مشيئة الله .

فإذا كانت الجغرافيا تصنعُ التاريخ الى حدٍ كبير ، فإن التاريخ يصنع الجغرافيا إلى حدٍ كبير أيضاً .

ومن الأقنية المطمورة في تربة إيران كيلا تُجفِّفَ السماءُ الحارةُ مياهَ الأرض ، الى الشلالات الصادحة في غرناطة أسبانيا المسلمة ، مروراً بقنوات الأغالبة[١٩٦] العظيمة ، قرب القيروان ، نجد حتى اليوم ، آثارَ

---

(١٩٣) جيولوجيا : علم طبقات الأرض .

(١٩٤) بوتانيك : علم النبات .

(١٩٥) بيولوجيا : علم الأحياء .

(١٩٦) الأغالبة : سلالة مالكة عربية حكمت شرق أفريقيا الشمالية من (٨٠٠ ـ ٩٠٩) .

نحّاتي أرضِ الله ، التي استلهم منها الأوروبيون فيما بعد .

وفي القرن السادس عشر ، درس مهندس ايطالي يُدعى (Juranello Turriano) في طليطلة ، خصيصاً ، الأشغال المائية الاسلامية المبنية على ضغط الماء والهواء المستعمل في تشييد المناهل وروافع المياه التي تستعمل في الري والطواحين والآلات العازفة . هذه الاختراعات العربية اصبحت في القرن السابع عشر أساس اكتشافات (Torricelli)(١٩٧) في إيطاليا (المضغاط ـ قياس الضغط) و (Vaucanson)(١٩٨) في فرنسا (الانساني الآلي) ، وكذا رسالة الجزاري عن آلالات ، في القرن الثالث عشر التي تفوق كثيراً دراسة (Mécanique) (علم حيل) (Héron)(١٩٩) الاسكندري في القرن الاول ، وغازيات (Philon)(٢٠٠) البيزنطي في القرن الثاني . ان مؤلفه يحتوي على الجوهري من المفاهيم الآلية لدى (Léonard de Vinc)(٢٠١) الذي اطلع عليها .

ان أحد أكبر وجوهِ العلوم العربية ، هو وجهُ مفكر عالمي ، عالِم وفنان ورجُلِ دولة وفيلسوف في ذات الوقت ، كتب في القرن الرابع عشر مؤلفاً ضخماً عن التاريخ والاجتماع وعظمة وتدهور

---

(١٩٧) Torrscellin : رياضي وفيزيائي إيطالي (١٦٠٨ ـ ١٦٤٧) تلميذ غاليلي .

(١٩٨) Vaucanson : ميكانيكي فرنسي (١٧٠٩ ـ ١٧٨٢) .

(١٩٩) Héron : رياضي ومهندس اغريقي في القرن الأول بعد المسيح .

(٢٠٠) Philon : أنظر ما قبل رقم (١٢) .

(٢٠١) Leonard de Vincy : أنظر ما سبق .

الحضارات ، هو ابن خلدون[٢٠٢] (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) الذي بحث في أساس السلطة أو نشوء الممالك بمهارة لم يسبقها ـ بعد قرن ـ أميرُ مكيافيل[٢٠٣] . عندما حَدَّد المنهج التاريخي ، الذي يَصْلُحُ أن يكون أساساً لتاريخ تفسيري أو علمي ، فقد فعل ذلك بقدر من الوضوح كـ (مونتسكيو)[٢٠٤] في كتابه « روح القوانين » أو في كتابه دراسة حول أسباب عظمة الرومانيين وسقوطهم » .

وفي العصر الذي كان الغرب لا يعرف غير مدوني الاخبار (Chroniquenrs) واصفي الاحداث ، كتب ابن خلدون يقول :

« بدخولي من باب الاسباب العامة ، في دراسة الوقائع الخاصة احتضن بسرد تفسيري ، تاريخ الجنس البشري (. . . .) وأعين أسباب ومنشأ الاحداث السياسية (. . .) ان المقالات التي سنعالج فيها هذه المادة ، تشكل علماً جديداً (ان العلم في هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث ، وأدى اليه الغوص) . وهو إذ يربط الملاحظة الشخصية للرجل السياسي بالتفكير النظري ، يشير الى تأثير المناخ والجغرافيا والظواهر الاقتصادية على حياة الشعوب .

انه يدرس بُنى وعَمَلَ المجتمعات انطلاقاً من توزيع العمل ،

---

(٢٠٢) ابن خلدون : عبد الرحمن (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) ولد في تونس مؤرخ وفيلسوف ورجل سياسي . صاحب المقدمة واسمها كتاب « العبر » .

(٢٠٣) مكيافيل : نقولا ماكيافيل سياسي وكاتب وفيلسوف إيطالي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) من مؤلفاته : كتاب «الأمير» .

(٢٠٤) مونتسكيو : كاتب فرنسي شهير (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) .

مقدماً بذلك أولَ صياغةٍ عن « المادية التاريخية » حين يقول :

« إن الفوارق التي نلاحظها في عاداتِ وأفكارِ شعوبٍ مختلفة ترتبط بالطريقة التي يوفِّرُ بها كلُّ شَعْبٍ معاشَه » . وكما أن للاقليم والهواء والطبيعة تأثيراً في احوال البشر ، فكذلك لاختلاف الناس في نحلتهم من المعاش تأثيرٌ على أخلاقهم ، لما في ذلك من الأعتياد والألفة والممارسة) .

ولكن الذي يميز ابن خلدون عن مكيافيل ، أو مونتسكيو ، وبخاصة عن المفهوم « الوضعي »(Positiviste)[٢٠٥] للتاريخ ، الذي ما يزال يعيش فساداً في أيامنا هذه ، هو أنَّ فكره التركيبي يبحث وراء سطح الظواهر ، عن الحياة التي تعطيها معنى .

انه يدين ، منذ الصفحة الاولى من مقدمة « تاريخه العالمي » الذين لا يرون فيها سوى « أخبار » و « وقائع مجردة » . ويضيف « أن للتاريخ المنظور اليه من الداخل معنى آخر ، إنه في باطنه نظرٌ وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق . وما يهمه هو « ان يشرح للقارىء كيف ولماذا هي الأشياء على ما هي عليه » . وانا لا نجد عنده أي اثر على الاطلاق ، للغائية[٢٠٦] السخيفة ولا لعنايتية[٢٠٧] (Bossuet Providncialisme) في « مقاله حول التاريخ العالمي » (الذي كتب بعد قرنين). وهو (أي

---

(٢٠٥) **Positiviste** : وضعي : أي من أنصار الفلسفة الوضعية التي تعتمد على معرفة الوقائع والتجربة العلمية .

(٢٠٦) **Providen cialisme** : مذهب يعيد كل شيء إلى العناية الالٰهية .

(٢٠٧) **Finalisme** : مذهب يفسر الكون على ضوء الأسباب النائية .

إبن خلدون) إذ يستخدم عبارَة « فوق كل ذي علم عليم » (سورة البقرة آية ٧٦) ، فإنما يُقيم وصلةً أُخرى بين العلم والايمان فيقول : **ان التـاريخ لم يكن مكتـوباً قبلنـا ودوننا . والانسـان يستـطيـع ألاَّ يستجيب للدعوة ، لكنه مسؤول عن مصيره »** .

وكتب بصورة رائعةٍ ، بعدما ذكر الوباء الأَسود (الطاعون) الذي اجتاح الشرق والغرب (وقتل في تونس سنة ١٣٤٨ أُمَّهُ وأَباهُ) وأَدَّى الى تـأخُّرِ الحضـارة ، فقال : « لقـد تغير وجـهُ العـالم » (. . . .) : وكأنني بالمشرق قد نزل به مثلما نزل بالمغـرب ، وكأنمـا نادى لسـان الكون في العالم بـالخمول والانقبـاض ، فبأدر بـالإجابـة والله وارث الأرض ومن عليهـا . ويقول ابن خلدون : « إن فن التـاريخ . . . محتاج الى حسن نظر وتثبت يفضيـان الى الحق . . . لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل . . . لم يؤمن فيها من العثور . . . والحيد عن جادة الصدق . . . وكثيـرا ما وقـع للمفسرين والمؤرخـين وأئمة النقل ، من المغالط في الحكايات ، والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل ، ولم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة وتحكيم النظر في الاخبار ، فَضَلُّوا عن الحق .

إن التـاريخ في منـظور ابن خلدوْن الاسلامي والعلمي خبـرٌ عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم ومـا يعرض لـطبيعة ذلـك العمران من الاحوال مثـل التوحش والتـأنس والعصبيات وأصنـاف التقلبـات للبشر بعضهم عـلى بعض ، وما ينشـأ عن ذلك من الملك والدول ، ومراتبها . وما ينتحله البشر بأعمالهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنـائع وسـائر مـا يحدث في ذلـك العمـران بـطبيعـة من الاحوال » . **هكذا هو التاريـخ بجملته ، لأن الانسـان هو كـذلك**

(المعرب) . وسيكون التصدي للطبِ ، أيضاً ، أحدِ أفضلِ العلوم الاسلامية ، بغير طائل اذا لم نُشِرْ أولاً الى أن ميزاتهِ الاساسية ، وطريقتَهُ في عرض المسائل ـ كغيرها من العلوم الأخرى تنبع من النظرة الاسلامية للعالم ، والاهتمام الدائم بالوحدة ، وفقاً للمبدأ الاسلامي في التوحيد : أي وحدةُ الجهاز بترابط الأجزاء مع الكل ، ووحدةُ الكائن الحي مع محيطه ومع مجموع التيارات الكونية ، ووحدة الروح والجسد التي هي أول مدماك في النفسجسمية (Psychosomatique)(٢٠٨) . وهكذا فان فكرتي التوازن والتوافق المركزيتين في الاسلام احتلتا ، المكانَ الأول في النظرية والتطبيق الطبيين .

هذه النظريةُ الطبيةُ المرتبطةُ بالغيب ، وعلم الكونيات ، وفلسفة الاسلام ، التي تَعْتَبرُ الانسان « عالماً صغيراً » يختصر في ذاته مجموعة درجات الوجود ، مرتبطةٌ ارتباطاً وثيقاً بالملاحظة والتجربة المخبرية : **إن تعليم الطب يحصل في المستشفى . إنها تشدد على الوقاية** . وإن شعيرة الوضوء والنظافة الجسدية، وتَجَنُّبَ الغَوْل(*)، والصوم أوحت لعالم ـ في الاندلس المسلمة على سبيلِ المثال في القرن الثاني عشر ـ بتأليف ونشر أوَّلِ كتابٍ علمي حولَ الحمية المأكلية : هو كتاب الحمية ، لأبي مروان ابن زهر(٢٠٩) .

---

(٢٠٨) **Psychosomatique** : متعلق بالنفس والجسم معاً .

* **الغول** : كلمة ترجمها الغرب إلى Alcool . ونسي العرب كلمة الفول ونقلوا كلمة Alcool إلى العربية وجعلوها الكحول .

(٢٠٩) ابو مروان ابن زهر : طبيب وفقيه . وأبو بكر ابن مروان ابن زهر طبيب بارع له كتاب في طب العين (١١١٠ ـ ١١٩٨) .

إن الطب الاسلامي هو في الواقع وارثُ ماضٍ بكامله .

ففي جند يسابور تجمَّع ، اعتباراً من آخر القرن الثالث ، أطباءُ من الهند وإيران ، ومصر . وفيها استقبل أطباءُ مدرسةِ (Edesse)[٢١٠] في بلاد ما بين النهرين ، بعد إغلاقها سنة ٤٨٩ . كما لجأ اليها آخرُ علماء وفلاسفة مدرسة أثينا ، حين طردهم الامبراطور جوستنيان سنة ٥٢٩ ، ثم دخل الطبُّ الهندي اليها في القرن السادس .

وفي جند نيسابور والاسكندرية جمع الاسلامُ مركزي الطبِ الرئيسيين .

واما الكنيسةُ النصرانية فقد جَمَّدت تطور الطب . ففي سنة ١٢١٥ استصدر البابا (Jnnocent)[٢١١] في مجمع (Latran) ، قراراً يقضي بـ « عقوبةِ الحرمِ ، على كلِ طبيب يعتني بمريض ، اذا لم يكن هذا الاخير معترفاً من قَبْلُ ، لأن المرضَ ينبثقُ عن الخطيئة » .

ولذا ، وبسبب هذه العقلية لم يكن لدى جامعة الطب في باريس ، منذ ستماية عاماً ، غيرُ مؤلَّفٍ واحدٍ يُوجز كل العلوم الطبيةِ في العالم ، منذ القدم حتى سنة ٩٢٥ ، أَلَّفَهُ العالِمُ المسلمُ ، الرازي[٢١٢] ، الذي يظهر تمثاله مع تمثال ابن سينا ، في المدرج

---

(٢١٠) Edesse : مدينة في بلاد ما بين النهرين كان فيها في القرنين الرابع والخامس مدرسة لاهوت نسطورية .

(٢١١) Jnnocent : هو Junoucent الرابع مولود في جنوى(١١٩٥ ـ ١٢٥٤) وبابا منذ (١٢٤٣ ـ ١٢٥٤) .

(٢١٢) الرازي : محمد بن زكريا الرازي (٨٦٤ ـ ٩٣٢ ؟) ولد في الري يكنى طبيب المسلمين أوجالينوس العرب . من مؤلفاته الحاوى (Conteneus) وبرر الساعة .

الكبـير في شارع (Saints Pères) . ان الموسوعـةَ الطبيـةَ الكبيـرة للرازي (٨٦٥ ـ ٩٢٥) المسمــاة في الغــرب (Contineus) هـي المؤلَّفُ العلمي الوحيدُ الذي ظل تأثيرهُ يشع طيلةَ عشرة قرون . وإن رسالة الـرازي حول الجـدري والحصبة ، المكتـوبة في مـطلع القرن العاشر طُبِعَتْ أكـثر من أربعين مـرةً ، منذ سنـة ١٤٩٨ حتى سنة ١٨٦٦ . إن هـذه الـرسالـةَ التي تـرجمها (Farragut)(٢١٣) سنـة ١٢٧٩ ، الى الـلاتينية بـأمرٍ من (Charles 1er d'Anjou)(٢١٤) ، ظَلَّتْ، خلال الف سنة تقريباً وحتى (Cloude Bernard)* تُـوجه طِبَّ جميع الشعوب الغربية .

ان تأثير ابن سينا(٢١٥) المولود في بخاري سنة ٩٨٠ ، والمتوفي سنة ١٠٣٧ في همدان ، قد فاقَ تأثيرَ الرازي ، لأن كتابه « قانون الطب » (Canon de la médécine) ، الذي ترجمه الى اللاتينية (Gerard de Crémone) (المتوفي سنة ١١٨٧) ، ظلَّ ، في عصرِ الإنبعاث ، مـوسوعـةَ الطب الكبـرى ، بفضل وضـوحِ تصنيفِ الأمراض فيـه والدراسةِ المنهجيةِ لأعراضها ، كما ظلت طرائقهُ في تشخيص مرضٍ

---

(٢١٣) Farragut : داود ، (١٨٠١ ـ ١٨٧٠) قائد اميركي شمالي في حـرب الانفصال ضد الجنوب .

(٢١٤) Charles 1er d'Anjour : مـلك صقـليـة (١٢٦٦ ـ ١٢٨٥) ، شـقـيـق القديس لويس عاش من (١٢٤٦ ـ ١٢٨٥) .

* عالم بالفسلجة ، فرنسي (١٨١٣ ـ ١٨٧٨) .

(٢١٥) ابن سينـا : ٩٨٠ ـ ١٠٣٧) ولد في أخشفـة قـرب بخـارى وتـوفي في همـذان . حسَّاب وطبيب من كبار فلاسفة العـرب وأئمة مفكـريهم . ألَّف : قانـون الطب ، وعشرات المؤلفات الأخرى .

ذات الرئةِ وذات الجنب ، وخُرَّاج الكبد ، والتهاب الصِّفاق ، مُتَّبعةً طيلةَ ثمانيةِ قرون .

إن ابن سينا ، كان كالرازي ، عبقريةً عالميةً : طبيب وفيزيائي ، وفيلسوف ، ولاهوتي ، وشاعر ، مثل ابن الهيثم[٢١٦] المعروف في الغرب بـ (Albazen) المولود في البصرة سنة ٩٦٥ والمتوفي في القاهرة سنة ١٠٣٩ ، الذي كان رياضياً كبيراً ، وفلكياً ، ومهندساً ، ومؤلفَ مصنفاتٍ عن الضوء ، كانت باكورةَ العلم التجريبي .

ولم يتردد (Roger Bacon)[٢١٧] الذي تلقّى ثقافته العلميةَ في جامعات أسبانيا المسلمة ، في نقل بصريات ابن الهيثم في القسم الخامس من كتابه (Opus majus) المخصّص ، لـ « علم البصريات » لابن الهيثم الذي جعل منه ، في الغرب ، رائد الاسلوب التجريبي والعلوم الحديثة . وإن روجيه باكون نفسه ، يعترف ، على الاقل في علم الفلسفة ، بأقتباساته ويقول : « ان الفلسفة مأخوذةٌ عن العربية ، وان أي لاتيني لا يستطيع فهم الحكم والفلسفات ، كما ينبغي ، اذا كان لا يعرف اللغات التي تُرْجمت عنها » . وقد قدم ابن الهيثم ، كطبيب عيون ، أولَ وصفٍ تشريحيٍ دقيق عن العين . وفي بغداد ، نجح الطبيب الموصلي سنة ١٠٠٠ ، في شفاء الساد (وهو تكثّفٌ في عدسة العين يمنع الإبصار)

---

(٢١٦) ابن الهيثم : أبو الحسن من علماء العرب في الرياضيات والطبيعيات وفلسفة أرسطو .

(٢١٧) Roger Bacon :راهب فرنسيسكاني في (١٢١٤ - ١٢٩٤) .

بواسطة المص ، بابرةٍ جوفاء ، ولم تنجح هذه العمليةُ ـ في الغرب ـ الا سنة ١٨٤٦ عندما أجراها الدكتور (Blánchet)* وابن النفيس[٢١٨] ، شارح ابن سينا (المتوفي سنة ١٢٨٨) اكتشف الدورة الدموية الصغيرة ، أربعمائة سنة قبل (Harvey)[٢١٩] وثلاثماية سنة قبل (Michel Servet)[٢٢٠] وأن أحد تلاميذه ابن القف* ، وصف الشُعيرات التي لم يفحصها (Malpighi)[٢٢١] بالمجهر ، الا سنة ١٦٦٠ ، أي بعد ثلاثة قرون .

وان التطعيم ضد الجدري ، بخدشٍ يُتيحُ إدخالَ بعض القيح من دملة قليلة التقيحٌ ، قد أُجري من قبل العرب ، قبل (Jenner)[٢٢٢] بعشرة قرون .

والجراح الاندلسي أبو القاسم (المتوفي سنة ١٠١٣) درس سِلّ الفقرات (Mal de Pott) قبل (Percival Polt)[٢٢٣] (١٧١٣ ـ ١٧٨٨) بسبعة قرون ونصف القرن ، وأجرى ربط الشرايين ، في

---

(٢١٨) ابن النفيس الدمشقي : علي ابن الحزم القرشي ، أحد الأطباء المشهورين (١٢١٠ ؟ ـ ١٢٨٨) له شرح تشريح بن سينا وفيه وصف الدورة الدموية الصغرى .

(٢١٩) **Harvey** : طبيب انكليزي (١٥٧٨ ـ ١٦٥٧) .

(٢٢٠) **Michel Servet** : طبيب اسباني ولاهوتي بروتستانتي ولد في طليطلة (١٥١١ ـ ١٥٥٣) . رفض الثالوث وألوهية يسوع .

* ابن القف : ابو الفرج . فيلسوف وطبيب (١٢٣٢ ـ ١٢٨٦) .

(٢٢١) **Malpighi** : طبيب ومشرح إيطالي (١٦٢٨ ـ ١٦٩٤) .

(٢٢٢) **Jenner** : طبيب انكليزي (١٧٤٩ ـ ١٨٢٣) .

(٢٢٣) **Percival Pott** : جراح انكليزي (١٧١٤ ـ ١٧٨٨) .

حـالة البَـتْرِ ، قبل (Ambroise Pareé)[٢٢٤] (١٥١٧ ـ ١٥٩٠) مضافاً الى أَن أبا القاسم ، المذكور قد جَهز أطبـاءَ العيون والأَسنـان والجـراحين ، بـآلات جراحيـة . هذه هي ، بـدون ترتيب ، بعضُ اكتشافات الأَطباء المسلمين الرئيسية .

هذا وقد أخذ العرب بعين الاعتبار تأثير النفس على الجسد :

لقد كتب ابن سينا : « يجب ان نعتبر أن أحد أحسن العـلاجات وأنجعِهـا ، يقوم عـلى تنمية القـوى العقليـة والنفسيـة للمـريض ، وتشجيعهِ على المقاومة ، وخَلْقِ جوٍ محببٍ حوله ، وإسماعهِ موسيقى عذبةً ووصلهِ بأناس يُسُّرونه » .

وعلى هذا الاساس كانوا يُجنِّبون المريضَ الأَلم : فكان الجـراحون العربِ يستعملون التخدير ، بفضل الحشيشة او الباقيـة والبنج ، في حين أن هذا التخدير العام لم يعد ثانيةً ـ بعد أن تغلغل في الغرب مدة قصيرة ـ الا سنة ١٨٤٤ .

هـذا وقد عـولجت اضطرابـات عقليـةٌ عـديـدة ، بعـلاجِ النـوم بالأَفيون ، وكانت القهوةُ تستعمل كمنبهٍ للقلب .

إن جميـع (علماء طبيعة) الغـرب في العصر الـوسيط ، بنوا عـلى مؤلفات العرب ، سواء كان الاسباني (Ramon Lulle) (١٢٣٥ ـ ١٣١٥) الذي ذهب الى الشرق أملاً بـ « هداية المسلمين » أو الالماني (Albert le grand) (١١٩٣ ـ ١٢٨٠) أو الانكليـزي (Roger Bacon) (١٢١٤ ـ ١٢٩٤) .

---

(٢٢٤) **Ambroise Paré** : جراح فرنسي (١٥٠٩ ـ ١٥٩٠) .

إن هؤلاء الأخيرين شرحوا آثارَ العلماءِ العربِ في جامعة باريس التي كانت قد أخذت تتحرر من النظرية المدرسية . ونحن لم نذكر جوانب المساهمة العربية الاسلامية في تطوير العلوم والثقافة ، بعامةٍ ، الاّ لنُظْهِرَ ضرورةَ تغيير منظورٍ تاريخيٍ مُشَوَّهٍ تماماً ، بالعرقية الغربية التي جعلت من العصر الوسيط معترِضةً بين الثقافة الاغريقية ـ الرومانية وتلك التي انبثق الانبعاثُ عنها .

فإذا رفضنا ادعاء اوروبا بأنها سرةُ العالم ، ونَظَرْنا الى التطور الانساني ككل ، وجب أن نعترف بأن الحقبة الممتدة من القرن السابع الى القرن الرابع عشر ، لم تكن خلاء بل تفتحت فيها إحدى أَلْمَعِ الحضارات في التاريخ : **الحضارة العربية الاسلامية** يقول (Ignacis Olague) : إن الانبعاثَ لم يرثْ مباشرةً تعاليم الحضارة الاغريقية ، بعد حقبةٍ « مظلمةٍ » تسمى احياناً « عصر الجهل » ، وإن النصرانية ليست امتداداً للنبوغ الهليني ، وإن القديس توما ليس خليفة أرسطو ، وإن غاليلي لم يُعِدْ تسيير نُمُوِّ العلوم الذي تُرِكَ معلقاً بوفاةِ أرخميدس في القرن الثالث قبل الميلاد ، وإن عُزلة « الغرب الباهرة » هي بالتالي ، « خدعةٌ مدبرة » .

تلك هي خرافةُ المركزةِ الأوروبية[٢٢٥] الأولى التي يجدر بنا ان نبددها كحلم كاذب .

ان الحضارة العربية الاسلامية لَقَّحتِ الماضي وهيأت المستقبلَ طوال ألف سنة . ونقلت الى أوروبا ـ عبر إسبانيا وصقلية ـ ثقافةً

---

(٢٢٥) **المركزة الأوروبية** : Euro peountrisme مذهب يجعل من أوروبا مركز كل شيء في الأرض ، وهو ينطوي على شيء من الاستعلاء الاقليمي والعرقي .

حملت مسؤوليتها ألف عام ، ومارست تأثيرها على الغرب ، بترجمةِ الآثار الاسلاميةِ الى اللاتينية ، التي نَظَّمها ، في طليطلة ، الأسقف (Raymond) (١١٢٦ - ١١٥١) بتشجيعٍ من الفونس العاشر ملك قشتاله ، زوج بنت خليفة قرطبة ، كما يقال ، ومن فريدريك الثاني ملك صقلية الذي كلف (Michel Scotus) بترجمة كتاب الحيوانات (Livre des animaux) لابن سينا وشروح ارسطو لابن رشد من أجل إيصالها الى جامعات الغرب .

ان هذه الآثار الآتيةَ من أسبانيا وصقلية رسمت منعطفاً في رؤية الغرب ، للعالم :

ففي اسبانيا الفونس العاشر ، وصقلية فريدريك الثاني ، المُعْجَبِيْنْ ، بالثقافةِ الاسلاميةِ والمُتَحَمِّسَيْنْ لها ، ولد الغربُ « الحديثُ » الذي كانت الحضارةُ العربيةُ الاسلاميةُ قابلتَهُ والأم المربية . إن أفدح قطيعةٍ بين الشرق والغرب اتَّسَمَتْ بكتاب « ديكارت » الذي يُجَرِّدُ فيه الطبيعة من حياتها الذاتية ، وقد وصف كارل ماكس هذا المنعطف المفقر المهزل بقوله : « إن الحركة هي أُولى خصائص المادة لا لكونها آليةً ورياضيةً فحسب بل ، لأنها أيضاً غريزةٌ وروحٌ حيويةٌ وميلٌ وقلق كبير (. . . .)، مثلما يقول Jacob) (Bohevène)(٢٢٦)عن المادة (. . . .) عند (Bacon) (. . .) المادةُ ترشق الانسان ببسماتٍ شعريةٍ وماديةٍ معاً (. . . .) وبالنتيجة يصبح المفهوم المادي (Matérialisme)(٢٢٧) قاصراً على ذاته (. . . .)

---

(٢٢٦) **Jacob Bohevène** : صوفي الماني (١٥٧٥ - ١٦٢٤) .

(٢٢٧) **Materialisme** : مذهب فلسفي يعتبر المادة الواقع الوحيد وينكر وجود الروح والعالم الآخر) .

وتضييع المادية (Materialité)[٢٢٨] نضارتها وتصبح مادية المهندس المجردة .

إن الحركة الطبيعية (حركة الحياة) ذهبت ضحية الحركة الآلية أو الرياضية ، ونودي بالهندسة أنها العلمُ الرئيسي وأصبحت المادية فظة (. . .) ولم يعد لكلمة «لا نهاية» معنى ، اذا لم تكن كَمّويّة : أي أنها مَقْدِرَة فكرنا على الاضافةِ الى ما لا نهاية » (. . .)

وخضع الانسانُ لقوانين الطبيعةِ ذاتها ، والسلطة والحريةُ صنوان » . (لكارل ماركس في كتابه الاعمال الفلسفية) .

ان علومنا تجهلُ ، الانسانَ من حيث المبدأ وفي الواقع ، منذ ديكارت ، وتجهلُ فيه قبل أي شيء آخر « التسامي » الذي هو بُعْدُهُ الاساسي . إن « العلوم » أصبحت كمويه صرفاً ، وكل الواقع - كما كتب (Bergson)[٢٢٩]- تلاشى دخاناً جبرياً وانطوى الانسانُ على أل « أنا » المنعزلة المنفردة ، على (Cogrto)* ديكارت ، وأصبحت النجاعةُ المعيارَ الوحيدَ لعلمٍ وتقنيةٍ لهما غرضٌ وحيدٌ هو جعلنا « سادةَ ومالكي » المعمورة ، وفق برنامج ديكارت ، في كتابه بحث في الطريقة (Discours de la méthade) . إن الحياة نفسها قد تقزمت الى هذه الآلية (Mécamsme) . وليست الحيواناتُ ، بالنسبةِ

(٢٢٨) Materialèté : المادية (صفة الشيء المادي) .

(٢٢٩) Bergson : هنري برغسون ، فيلسوف فرنسي (١٨٥٩ - ١٩٤١) . الحدس عنده أساس المعرفة .

* هي ملخص عن مقولة « ديكارت » أنا أفكر إذن أنا موجود .

لـديكـارت ، سـوى آلاتٍ وليس الانسـانُ بنـظر خَـلَفِـهِ (La Mettrie)[230] سوى آلة .

وان دارون في كـتـابـه (أصـل الانـواع Des emdance de l'homme) يـدمجُ الانسـانَ في منظومـة الطبيعـة ، كباقي الانـواع الحيـوانيـة ويعتبـره مثلَهـا ثمـرةَ الاصـطفـاء الـطبيعـي . إن (Gobinean)[231] وبخاصةٍ (Chamberlain)[232] لم يخـطئـا عندما استنتجا من هذه النظرية ، نظرية العنصرية : منذ اللحظةِ التي لا يبقى للانسان فيها غايةٌ تتجاوز وجـودَه الارضي ، تُصبح السلطةُ والكسبُ المعيارين الوحيدين للحقيقةِ و « التقدم » .

« إن الفكر الفلسفي في الاسلام (. . .) لا يرى بأن العالم يتطور باتجاهٍ أفقي مستقيم ، بل باتجاهٍ صاعدٍ ويرى أن الماضي ليس وراءنا « بل تحت أقدامنا » . من هنا لا يملك العلمُ والتقنيةُ « المُجَنَّدان » اذا صح التعبير ، لغاياتٍ أرفعَ ، أن يُصبحا « غايتين في ذاتها » ، كما هو الحال في التقليد الغربي منذ عصر الإنبعاث .

ان مرض الحضارةِ الغـربية المسمَّى بـ « الحـداثة » هـو عبارةٌ عن قلب العـلاقة بـين الاسباب والغـايات . لأن الأسبـاب ـ في المنظور الغربي ـ أصبحت غايةً ولأن العلومَ والتقنيات لم تَعُدْ متكيفةً مع البيئة

---

(230) La Mettrie : طبيب وفيلسوف مادي فرنسي (1709 ـ 1751) .

(231) Gobinean : جـوزيف ، ديبلوماسي وكـاتب فرنسي (1816 ـ 1882) . كـان مؤيداً للعنصرية وألف كتاباً حولها .

(232) Chamberlain : جوزيف شامبرلان ، (1836 ـ 1914) رجل دولة ، كان وزير تجارة ، ثم وزير مستعمرات .

او في خدمة الإنسان ، بل أُصبَحَ الانسانُ وبيئتُه تابعَيْن لتطور العلوم والتقنيات ، ذلك التطورَ المستقل الهدام .

فكانت نتيجةُ هذا القلب ـ بعد قرنين من الثورة الصناعية التي تنبأ انبياؤ ها المُزَيِّفُونَ بازدهارٍ إنسانيٍ غير محدود ـ أَنَّ نِصْفَ سكان العـالم يناضلون من أَجل مُجَرَّدِ بقائهم .

فهل توجد إدانةٌ دامغةٌ أكثر من إدانة برنامج « النماء » الغربي ؟

قال البيولوجي الكبير (Joseph Needham) : سنة ١٩٦٩ « إن **لدينا اسباباً جديةً للتفكير بأن مشاكل العالم سوفَ لا تُحَـلُّ طالمـا اننا ننظر اليها من زاويةٍ أوروبيةٍ محضة** » .

لقد أَفلستِ الكميةُ ، وإرادةُ التسلط والنماء والفردانيةُ . ولا يمكن لأية حضارةٍ أن تُبْنَى على هذه الاسس ، وإن العلومَ والتقنيـاتِ التي ولُدت على هذا الصعيد ، أدَّت الى نتائج متعاكسةٍ قطرياً مع مشاريع ووعود الإنبعاث الغربي .

إن العلوم والتقنيات وسائلُ مدهشةٌ في خدمةِ الغايات الانسانية . ولكن « العلوم » وحدها أي إعدادَ وسائـلَ منفصلةٍ عن الحكمة التي هي تأملٌ في الغايات تصبح مهلكةً للانسان . ولذا فإننا لم نشدد على الجوانب التي قامت فيها العلوم الاسلامية بدور « رائد العلم الغربي » الحالي ، بل على مميزاتها الخاصةِ التي تجعلُ الوسائل الانسانيـةَ تابعَـةً للغايات الالٰهية . من هذا المنـظور نقول ان عـلى القرن العشـرين ، وعـمًّا قليـلٍ ، القـرن الحـادي والعشـرين ، أَن يتعلَّما كثيـراً من الاسلام . **لأن المسلمين ـ وأكـرر هذا القـول ـ قَدَّمـوا بعقيدتهم ، أغنى مساهمةٍ في العلوم العالمية** .

ان تأكيدهم الراسخ ، على التسامي يعني من وجهة نظر العلوم :

١ ـ بأن العلوم والتقنيات معدةٌ ، الى غاياتٍ أسمى من غاياتِ النماءِ والتسلطِ ، والى غاياتٍ أسمى من غايةِ فردٍ أو مجتمعٍ هما ـ ببساطةٍ ـ جزء من الطبيعة .

٢ ـ وبأن للعقل وظيفةً أخرى غير وظيفةِ الهبوط من سبب الى آخر أو من سببٍ الى مسبب : إنها صعودُ العقلِ من غايةٍ الى أُخرى ، ومن غاياتٍ دنياً الى غاياتٍ عُليا لا يبلغ العقلُ قط ، منتهاها وصُبُّوهُ الى **الوحدة السامية التي تُحَدِّدُ معنىً لكل ما عداها .**

ان السيد حسين نصر يُحَدِّدُ ، في ختام كتابه (العلوم العربية) العلاقاتِ بين العلوم المسماة « حديثةً » والعلوم الاسلامية بأنها تعاكُسُ العلاقاتِ بين العلوم (الأسباب) والحكمةِ (الغايات) فيقول : لو عاد علماءُ مسلمي القرون الوسطى الى الحياةِ في عصرنا اليوم ، فان دهشتهم لا تقف عند « تَقَدُّم » الافكار التي كانوا هم مصدرَها ، بل عند انقلاب نظامِ القيمِ رأساً على عقب . وسيجدون أن مركَز منظورِهم أَصبح هامشياً وان الهامشي أَصبح في المركز، ويعرفون أَن العلوم « المتقدمةَ » التي كانت ثانويةً في سلسلةِ الاهتمامات الاسلامية ، أصبحت كل شيء تقريباً ، بالنسبةِ للغرب ، وان علمَ الحكمةِ الثابتَ ، العلم الاولي انتهى تقريباً الى لا شيء .

ان النصرانيةَ لم تستطع أَن تُحقق هذه الوصلةَ بين العقيدةِ والعلوم ، التي نَجَحَ الاسلامُ في تحقيقها ، حتى الذروة : إما لأَنَّ الكنيسةَ ، في عهدها ، قد خنقت العلوم ، بمدرسيتها ، أَو لأنها

فقدت السيطرةَ عليها ، منذُ الانبعاث ، وقاتلَتْها قتالَ المنسحبِ من المعركة .

ان التوازنَ مع السياسةِ شيءٌ مُلْفت : ففي السياسة مرت قرونٌ من النزعة القسطنطينية ، خلقت لبساً بين مؤسستين متميزتين هما الكنيسةُ والدولةُ ، وزيَّفتِ المسألة الحقيقية ـ حتى جعلتها ، الى اليوم ، متعذرةَ الحل ـ تلك المسألة التي أثارتها العلاقاتُ بين الدين والسياسة أي بين التسامي والجماعة .

وفي كلا الحالين ، حالي العلم والسياسة ، نشأت كل العصوبات عن تَدَخُّلِ وسيطٍ بين العقيدة والتسامي ، وبين العقيدة والجماعة : هو سلطةُ الكهنوت ، سلطةُ الكنيسة مع مبادئها ، كنيسة تزعم انها متماثلةٌ مع جماعةِ شعب الله ، وآراؤها التي صادرت التسامي وجمَّدته . ان العقيدة تَفْسُدُ دوماً عندما تَسْلُكُ طريق الاكليروسية أو التيوقراطية المزوجةِ بسيطرةِ الكنيسة . إنه مرضٌ يتربَّصُ بكل الديانات حالما يتأسس فيها هيئةٌ من المختصين بالمقدس . ولا شيء أكثر ضرراً ـ بعد التيوقراطية النصرانية او الاكليروسية التي هي وارثها الضعيفُ ، من الأحزاب « الدينية » التي هي في الواقع حزب المتدينين ، سواء كان هؤلاء ، خامين تماميين من « الحزب الديني » في اسرائيل ، أو ملائيين تماميين من « الحزب الديني » في إيران الذين حَلُّوا محل البيوقراطيات والملكيات » ذات الحق الالهي » والاكليروسات النصرانية . ان العقدية (Dogmatisme)[٢٣٣] في

---

(٢٣٣) العقدية Dogmatisme : مذهب فلسفي قائل بأن قوى الانسان العقلية قادرة على بلوغ الحقيقة اذا اعتمد على هذه القوى بصورة منهجية .

العلوم والطغيانَ في السياسة ، يَجُرّان الى ذات التجميد والمصادرة . ومذ ننسى ان كل ما نقوله عن الطبيعة والتاريخ والسياسة أو الله ، هو قول إنسان ، وأن هذه الاقوال قابلةٌ ، بالتالي ، ودائماً ، للمراجعةِ والإثراء بإسهامِ الآخرين ، فان مباغتةَ ما هو سام وغيرِ متوقعً والفكرة والعملَ، تصبحِ كُلُّها مُجَمَّدَة .

لكن هذه العقدية وذلك الطغيان ، أخذا ، اليوم ، شكلَ أصنامٍ جديدة : كشكل التقنوقراطية (ديانة الوسائل التي لا نطرح فيها سؤال لماذا ، بل سؤالٍ كيف ، فقط) في حكم المجتمعات وشكل « العلموية » الوضعية في العلوم (والعلمويةُ صنميةٌ تُستَبعدُ ، باسمها ـ قبلياً ـ كل مسألةٍ لا تحمل جواً كموياً ، ويتطلب كتابُ طقوسها المسمى منهجاً ، أن لا نُفَسِّرَ الظواهرَ الا انطلاقاً من القوى الموجودة سابقاً ، أي أن لا نتصور المستقبل سوى مزيجٍ جديد من عناصر موجودة من قبل) .

وفي هاتين الحالتين يكون الانبثاقُ « الشعري » لجديدٍ جذرياً ـ مستبعداً ، مبدئياً ، ونكون قد التزمنا بجعل المستقبل ـ في حقل السياسة ـ امتداداً للماضي ، وبتحويل الأعلى الى أدنى ، في حقل العلوم .

فهل تملك الفلسفةُ الاسلاميةُ في ذاتها إمكانيةَ تجاوز هذه القيد المزدوج ؟

الفلسفة التنبئية

إن القضية الاساسية في الفلسفة الغربية أصبحت : كيف تكون المعرفة ممكنةً ؟

والقضيةُ الاساسيةُ في الفلسفة الإسلامية أَصبحت : كيف تكون النبوءة ممكنة ؟

فلسفةٌ نقديةٌ أم فلسفة تنبئية ؟

مُذْ أَضاعت الفلسفةُ الاغريقيةُ ، مع السفطائيين ، وسقراط من بَعْدِهِمْ معنى السيادة ، وعلاقةَ الإنسان بكليةِ العالم وبالالٰهي الذي ألهم هرقليط و (Empedocle)[٢٣٤] أن يتكلم لغةَ العَرَّافين والشعرَ هذا الـ (Empedocle) الذي كتب عنه (Romain Rolland)[٢٣٥] قائلاً : إن لفكره جذوراً في أَحلام آسيا (. . .) وتَتَردَّدُ فيه أصداءٌ من الهند » والذي استشعر (Hölderlin)[٢٣٦] بأنه « يأنس بكل ما هو إلٰهي في العالم (وأن) الالٰهة خلقوا ، فيما مضى من كلمته » وهرقليط

(٢٣٤) Empedocle : فيلسوف ومشرع يوناني . في القرن الخامس قبل الميلاد . رمى نفسه في Etna وهو بركان في شمال شرق صقلية .

(٢٣٥) Romain Rolland : كاتب فرنسي (١٨٦٦ ـ ١٩٤٤) .

(٢٣٦) Holder lin : فريدريك ، شاعر الماني (١٧٧٠ ـ ١٨٤٣) .

الذي كَتَبَ أن الحاجة تَغْمُر العالم ، وان التُخمةَ تُخَرِّبُهُ (. . .) وأياً كان الطريقُ الذي تَسْلُكُهُ فإنك لا تستطيع اكتشاف حدود الروح (. . .) وان للأيْقاظ عالماً واحداً مشتركاً بينهم ، ولكنَّ النائمين يهوون كلٌ نحو عالمٍ خاص (. . .) وأن السيد الذي وحُيُه في (Delphes)(٢٣٧) لا يُخفي شيئا بل يُبلِّغ . « إن القديس (John Perse)(٢٣٨) يُقَوِّلُ من يُسَمِّيهِ « سَيِّدَ النجم والملاحة » لقد سَمُّوني الغامضَ في حين أن كلامي واضح » لأنه شَعَرَ بأنَّهُ قريبٌ منه برؤ يته ذاتِها للعالم ، والحياةِ والشعرِ الذي ذَكَّرَ (Paul Valery)(٢٣٩) برسالته في خلق الحياة فقال : « إن الشعر يدفعنا إلى أن نصير أكثَر مما يدعونا الى أن نفهم .

إن أدعياء الفلسفة لم يعرفوا معنى السيادة الذي عَرَفَهُ هرقليط وأمبيد وكل ، بل عَرَفَهُ الشعراءُ فقط . ومنذ ذلك الحين ، أي منذ سقراط الى ديكارت ، ومن لوك* الى (Kant)(٢٤٠)، سَعَت الفلسفةُ الغربيةُ بعامةٍ ، الى معرفةِ : كيف تكون المعرفةُ ممكنةً . فَبَنَتْ لنفسها عالماً غريباً ، بخاصةٍ ، العالَمَ الذي يدور حول فعل (الكون) الذي

---

(٢٣٧) Delphes : مكان في سفح جبل بارناس ، في اليونان حيث كان أبو لون (إلـه الجمال والنور والفنون والعرافة) يوحي وحيه .

(٢٣٨) Saint, John Perse : انظر ما قبل .

(٢٣٩) Paul Valery : كاتب فرنسي (١٨٧١ ـ ١٩٤٥) .

* فيلسوف انكليزي (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) .

(٢٤٠) Kant : عمنويل كانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) فيلسوف الماني له « نقد العقل النظري » ونقد العقل العملي ، ونقد الحكم العقلي . قال : لا ندرك ماهية الأشياء ولكن ظواهرها الحية في الزمان والمكان . قال بالحرية والخلود ووجود الله .

لَفَتَ عربيٌّ إلى أنَّ ابتكارَهُ « يَخْتَصِرُ كُلَّ مكرِ الغرب » .

كيف يتفرد الغربُ بهذا المنهج للمعرفة ؟ ويفصل قسماً من البشرية عن سائرها ، عندما يتأمل في الوجود ؟ : سواء كان الوجودَ المعقول أو المفاهيمَ التي شاء سقراطُ ان يُعيدَ اليها كُلَّ حقيقةٍ ، أو مُثُلَ أفلاطون التي لا يَتْرُكُ العالمُ المحسوسُ عنها للساكن الساذجِ في كهف العالم سوى الظلال ، أو كان المقصودُ ذلك الذي « نُدرِكُهُ » بحواسنا ، من (Lucrècé) (٢٤١) الى (Hume) (٢٤٢) « كائناً » موضوعاً خارجَ ذواتنا ، لا تكونُ معرفتُنا له سوى انعكاسٍ عنه . يقول شيلي - حتى فلونيس ذاته « ينتهي بأن يكون مدافعاً عن فعل الوجود » ، عندما لا يرى في ظاهر الحواس سوى لغةٍ يخاطبُنا بها الله » .

اما الإبتكار « الغريبُ » الآخر في الفلسفة الغربية فهو « الذاتُ » الفقيرةُ الهزيلةُ التي تقابلُ الكائنَ الفقيرَ والهزيل مثلها . « أنا أفكر إذن أنا موجود » أعلنها ديكارت وهو يعني بدقةٍ ، «أنا لستُ (. . .) سوى شيءٍ يُفَكِّرُ ويفكر بماذا ؟ بهذه الكمية (التي فيها تَمَكَّنْتُ من عَدٍّ (. . .) أقسامٍ عديدة ، وأن أعزو الى كل قسمٍ من هذه الاقسام كُلَّ ضروبِ المقادير ، والصور ، والحالاتِ والحركاتِ . وهكذا طَرَدَ ديكارت والغربُ من ورائه كل حياةٍ حقيقية - من بين هذا الهيكل الرياضي للعالم ، والشبح الفكري الذي ينزع للسيطرة عليه والتلاعب به الجمال والحب ، والإبداع الشعري والخيالِ المبدعِ لمستقبلٍ جديد .

---

(٢٤١) Lucrèce : شاعر لاتيني ، ولد في روما (٩٨ - ٥٥ قبل الميلاد) .

(٢٤٢) Hume ، داود : فيلسوف ومؤرخ انكليزي (١٧١١ - ١٧٧٦) .

إن « أنا » ديكارت « غازية » فلسفةِ الانبعاث الجديدة ، أنشأت الى جانب أهداف السيطرة والاستحواذ « وجَعْلِنَا أسيادَ الطبيعةِ والمستحوذين عليها كما يقول ديكارت » جسماً من الصناعيين والعسكريين .

قال (Michel Serres)[٢٤٣] إن كتاب بحث في الطريقة (Le discours dila méthode) « هو علمٌ في الحرب » . وإنه لذو مغزى من ناحيةٍ أخرى ، أن يكونَ أبُ الفلسفةِ الغربيةِ المسماةِ « حديثةً » ضابطَ خيالةٍ مرتزقاً ، عند آل هابسبورغ* ، في معركة الجبل الأبيض* .

ومنذ ديكارت أصبحتِ الفلسفةُ الغربيةُ ، مسرحَ ظلالٍ يتقابل فيه ـ بلا هدفٍ ـ شبحان : شبحُ الموضوع وشبحُ الذات ، ويتعارك فيه بضراوةٍ « مِثاليّون » « وماديون » ـ باسم ذات الفردانية وذات العقلانية العاجزتين اللتين أضاعتا كلَّ بُعْدٍ تسامٍ وجماعة ـ حول المسألة الباطلةِ عن أولويةِ الفكر أو المادة (التي هي حلقةٌ جديدةٌ من صراع الاكليروس والامبراطور) ، ولٰكِنْ هذه المرة وفقاً لسيناريو الكابتين رينيه ديكارت ، **والنتيجة في هذه التمثيلية العاطفية السخيفة ، لا غالب ولا مغلوب** : فمنذ القرن الثامن عشر ـ الأكثر ديكارتيةً من غيره ـ والالٰهُ الذي لا يُفْصِحُ عن إسمهِ ، ذلك « التقدمُ » الزائفُ المطلقُ (الجامعُ هذه المرةَ ، كُلَّ سلطاتِ البابا

---

(٢٤٣) Michel Serres : فيلسوف فرنسي ولد سنة ١٩٣٠ .

* هبسبورغ : سلالة مالكة على النمسا من ١٢٧٨ ـ ١٩١٨ ، ملكت تعريباً كل أوروبا .

* الجبل الأبيض : جبل يحيط بمدينة (Prague براغ) جرت فيه معركة ربحتها عائلة هبسبورغ وأخضعت تشيكوسلوفاكيا لسلطتها .

والامبراطور ، أي قدرةً تقنيةً ناميةً للسيطرة على الطبيعة والناس) ، يقودنا ويدفعنا اليوم الى تدمير كوكبنا بأيدينا وتدمير كل ساكن فيه .

وحتى (Kant) الذي توفرت لديه موهبةُ اكتشاف دور « تخيلٍ سامٍ يتجاوز عالم المعرفة » والذي ساهم لا في « اكتشاف » الحقيقة بل في خَلْقِها ، لم يجرؤ أنْ يُسَلِّمَ بأن هذا التخيلَ هو الصانعُ الوحيدُ للملحمةِ الانسانيةِ ، الانسانية حقاً ، بل يضعه ـ بين طيفِ « الشيء في ذاته » الخاوي والمُفْرَغِ من أي مضمون ، وبين مُقابِلِهِ « الأنا » الذي هو مَلِكٌ دون مملكة ، على أشياء زائلةٍ . ومع ذلك فان (Kant) قد اقترب « بتخيله الإستعلائي » مُحَقِّقِ الخَلْقِ ، من رؤيا ابن عربي حَوْلَ الدورِ الجامعِ والخالقِ للتخيلِ الخلاقِ الذي هو تعبيرٌ في الانسان عن الخلق التنبئي .

ولكن الخروجَ من المواجهةِ العميقةِ بين الذات والموضوع ، لم يكن ممكناً في المنظور الغربي . حتى جاء هيج(*) وأوصل فَلسفتنا في النهايةِ الى جميعةٍ عظيمةٍ نهائيةٍ ، وَوَفَّقَ بين « الذات » والموضوع » وأرجع كل حقيقةٍ الى المفهوم . إن هذه الفلسفةَ جعلت من الفن والدين والحب والحق ، أموراً عاديةً ، واعتبرتها من الضلالات المؤقتة .

لقد صدق ماركس[٢٤٤] عندما قال : بأن في قول هيجل هذا « نهاية الفلسفةِ » (وبصورة أدق : نهاية الفلسفة الغربية) .

ولما أُسْدِلَ الستارُ على هذه المأساةِ الهزيلةِ ماتت الفلسفةُ وانقلبَ الناجون من الغرق الى لاهوتيين مع (Kier Keegard)[٢٤٥]،

(٢٤٤) ماركس : (١٨١٧ ـ ١٨٨٣) الماني . من رجال السياسة والفلسفة الاجتماعية .

(٢٤٥) **Kierkeegard** : فيلسوف ولاهوتي دانمركي (١٨١٣ ـ ١٨٥٥) .

وثوارٍ مع ماركس وشعراءٍ مع نيتشه(٢٤٦) . وأما الباقون الذين لم يروا بأن الرواية قد انتهت وأن مسرح الظلال أغلق أبوابهُ ، فقد واصلوا قضم فُتاتِ العملاق : هيجل « وأَخَذَتْ كُومةً من الأقزام الدميمين تُفَضِّلُ ـ منذ قرنٍ ونصف ـ صديرياتٍ من معطفه المَلِكي » .

ومع هذا فإن خيطاً من ماءِ الحياة النابعِ دوماً من الشرق ، مازال يسيلُ في هذه الصحراء الفلسفية الكئيبة ، كما لا يزالُ ، بالنسبة للمسيحيين ، يجري من خاصرة يسوع المطعونةِ بالحربة الرومانية .

ووراء الصمت حيث ينبثق من حينٍ لآخر ـ صوتُ متصوفٍ ، ظَلَّ التقليدُ التنبئيُ حياً في الظل ، يُطلق أحياناً في الليل ـ نداءً فَيُقْضَىْ عليه في الحال ، أو يُصبح موضوعَ هزءٍ وسخريةٍ وتشويهٍ من قِبَلِ أسيادِ المجموعةِ الكهنوتيةِ أو الفلسفيةِ : مثلُ نداءِ (Joachim de Flore) (١١٣٥ ـ ١٢٠٢) « المحبو بالروح التنبئي (Dispirits perfectis dotado) كما قال عنه دانت ، الذي وَظَّفَهُ في فردوسه ، بشيراً لتجلّي الروح في رسالته عن الثالوث ، ونداءِ (Ramon Lulle) (١٢٣٥ ـ ١٣٢٧) الذي كتب عند اتصال الحضارتين الاسلامية والنصرانية ، فلسفَته عن الحب ، على غرار المتصوفين المسلمين ، ووضع مخططاً مُجْمَلاً ـ بعد ابن سينا وابن عربي ـ عن فلسفة الفعل لا فلسفةِ الوجود . وإن (Maitre Eakhart) (١٢٦٠ ـ ١٣٢٧) الباحثَ عن الله ، وراء الوجود ـ استشعر بأن الوجود يتوقف على

---

(٢٤٦) نيتشه : (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) فيلسوف الماني ، أخذ بمذهب التطور . قال إن الانسان الأعلى هو الهدف الذي يجب الوصول اليه ، وإن الحق للقوة . والى تعاليمه يرجع ماركس في وضع مبادىء الشيوعية المادية .

الفعل . و (Jacol Boehme) (١٥٧٥ ـ ١٦٢٤) الذي اعترف أن في الحرية ، المماثلةَ الأقربَ الى الله ، تلك الحرية التي لا يكون فيها الوجود سوى أثرها البارد الباهت و (Fichte)[٢٤٧] (١٧٦٢ ـ ١٨١٤) الذي اكتشف ، أخيراً ، أن كل معرفةٍ تبدأ بمُسَلَّمَةٍ هي فعلُ إيمان ، فعِلٌ خالقٌ للعوالم . بعد هؤلاء حمل الشعراءُ والفنانون الغربيون على عواتقهم ، الفلسفةَ التنبئيةَ التي يمكن أن تهَبَ الحياةَ نفحةً ملحمةً ، بدءاً بـ (Novalis)[٢٤٨] الذي واصل تنبؤ (Fichte) الى (Saint johu Perse) الذي انضم الى حَلْقَةِ هرقليط ، ومِنْ رَسْمِ (Van gogh)[٢٤٩] قَلَقَ النزعِ الاولِ لعالَمنا المحتضرِ ، الى فن (Juan gris) الذي وجد أن رسالته هي في أن يُرينا ما لا يرى ، ومن رقص (Ted shawn)[٢٥٠] الى رقص (Martha graham)[٢٥١] (إن هذين المُوَقِّعَيْنِ للرَّقص كانا وحدهما « فيلسوفي » الولايات المتحدة ، اللذين جعلا من فنهما رمزاً للفعل في الحياة ، الفعلِ المقدسِ ، خالقِ المستقبل) ، ومن روايات (Dostoivski)[٢٥٢] الى روايات (Kafka)[٢٥٣] المنذرةِ باستلابات حضارتنا وأخطارها الى

---

(٢٤٧) **Fichte** : فيلسوف الماني (١٧٦٢ ـ ١٨١٤) تلميذ كانت .

(٢٤٨) **Novalis** : كاتب الماني (١٧٧٢ ـ ١٨٠١) .

(٢٤٩) **Van gogh** : رسام نيرلندي (١٨٥٣ ـ ١٨٩٠) .

(٢٥٠) **Ted Shawn** : راقص وموقع أميركي (١٨٩١ ـ ١٩٧٢) . أحد مؤسسي الرقص الحديث في الولايات المتحدة .

(٢٥١) **Martha Graham** : راقصة أميركية (١٨٩٣ ـ   ) وموقعة رقص .

(٢٥٢) **Dostoivski** : كاتب روسي (١٨٢١ ـ ١٨٨٨) .

(٢٥٣) **Kafka** : كاتب تشيكي (١٨٨٣ ـ ١٩٢٤) .

آخر ومضات (Bernanos)(٢٥٤) و (Malraux)(٢٥٥) التنبئية .

إن الغاية من هذه الصلاة لراحة نفسٍ فلسفةٍ مرحومة هي أن نُلفتَ من ناحيةٍ ، وبطريق المفارقة ، الى الأمل الذي تَمكَّنَتِ الحضارةُ الاسلاميةُ من خَلْقِهِ كلما كانت تتحرر من شوائب الحضارة الاغريقية - التي كادت تخنقها على يد بن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) وشروحه على أرسطو - كيلا تُبعَثَ من جديدٍ الاَّ على هَدْيِ الإلهام التنبئي ، وأن نقول من ناحيةٍ ثانية ، بأن الحضارة الغربية والحضارة الاسلامية التي أُصيبت بعدواها ، لن تُبْعَثَا إلا عن هذه الطريق : **ولن تبقى الفلسفةُ فلسفةً ، إلا اذا استعادت بعدها التنبئي .**

إن مسار الفلسفة الاسلامية يستطيع أن يُساعدنا ، بوثباتها وسقطاتها ، على معرفة شروط هذا التجديد .

ان ولادة الفلسفة الاسلامية قد كشفت عن مسألةٍ شبيهةٍ بتلك التي طرحت نفسها على الفكر النصراني :

فكما أن تجربة الحُب التي تَغْمُرُ قَلْبَ النصراني ، على يد يسوع الناصري لا يمكن أن تنتقل بلسانِ الأغريق الذي يُعَبِّرُ عن رؤى ثقافةٍ غريبةٍ ، كلياً ، عن هذه التجربةِ ، فإن وحي نبيِ الاسلام ورؤياهُ الجديدةَ جذرياً ، والشريعةَ التي أُمليت عليه ، لا يُمكن ان يُعَبَّرَ عنها انطلاقاً من تراث الفلسفات التي سبقتها .

لقد جاء القرآن بوجهةِ نظرٍ جديدةٍ عن الله والكون ، وقانونِ عملٍ لا يمكن إرجاعهما ، الى الفلسفةِ الاغريقية .

---

(٢٥٤) **Bernanos** : كاتب فرنسي (١٨٨٨ - ١٩٤٨) .

(٢٥٥) **Malraux** : كاتب وسياسي فرنسي (١٩٠١ - ١٩٧٦) .

إن كَشْفَهُ طَرَحَ ثلاثَ مسائِلَ جديدةٍ ، جذرياً .

١ ـ مسألة رؤيا الواقعي .

ما هو الواقعي غاية الواقعية ؟

لقد حمل الفلاسفةُ ، وبخاصةٍ الاغـريقُ ، جوابـين فقالـوا : إنه المعقولُ (كمُثُلِ أفلاطون) أو المحسوسُ (كذرات ديمقريط) .

واما أرسطو فقد أجملَ جـواباً انتقائياً كان هجيناً أكثرَ منه جميعة ، واختارت النصرانيةُ المحاصرةُ بالثنائيةِ الاغـريقيةِ ـ في أول عهـدها ـ الافلاطونية .

إن الكشف القرآني قدَّم وجهة نظرٍ جديدةً جـذرياً ، في عـلاقات الواقعي وغير الواقعي . والواحد والمتعدد ، والله والكون .

وان ابن عربي ذَكَّرَ بالفكرة الرئيسية في الـوحي الاسلامي ، عَبْـرَ ثلاثةٍ من « الخلفاء الراشدين » أصحابِ الرسول المقرَّبين :

يقول ابو بكر : « انا لم أر شيئا ، قط ، الا ورأيت الله قبله » .

ويقول عمر : « انا لم أر شيئا ، قط ، الا ورأيت الله معه » .

ويقول عثمان : « انا لم أر شيئا ، قط ، الا ورأيت الله بعده » .

من هذه التجارب الثلاث نستنتج أنـه لا تمكن رؤ يةُ أي شيء ، على حقيقته إلاَّ في الله ، وأن الله يُرَىْ في كُل شيء .

هذه « الوحـدةُ » الاساسيـةُ ، أو التوحيـد) التي ليست من قبيل « الواقع ، بل من قبيلِ « الفعل » ولا من قبيل الكائن أو الفكر بـل من قبيلِ العمل ، تُشَكِّلُ فاتحة الجهر بـالعقيدةِ المُسْلِمَـةِ (لا إله إلا الله) وتطرح المسألَة الاساسيةَ في الفلسفةِ الاسلامية .

٢ ـ ومن هنا تتفرع مسألةٌ ثـانيةٌ غـيرُ منفصلةٍ عن الاولى : أيُّ قـانونِ عمـلٍ يَنْتُجُ عن هـذه الرؤ يـة ؟ إن العملَ وقـانونَـهُ ، هما ، بالنسبةِ للمسلم المظهرُ الخارجي للعقيدة . وإن الايمان هو الباطنُ ، والقانونَ هو الظاهر ، ولا ازدواجيةَ بين الواحد والآخر .

والانسانُ يستطيعُ بالايمان أن يهتدي ، طوعاً ، الى الحركة ، نحو الله التي هي ـ من الحجر الى النبات ومن النبات الى الحيوان ـ انتحاءٌ طبيعي ، ونـوعٌ من « صلاةٍ أنتـولوجيـة » مثـل صـلاةِ دوار الشمس « التي تكلم عنها (Proclus)[٢٥٦] : إن حركة الحب هذه التي تجعله يدور في كل لحظةٍ ، نحو الشمس ، تُظهر أن كل شيءٍ يُصلّي وفقا للمرتبةِ التي يشغلها في الطبيعة » . « واذا استطعنـا سُماعَ عَـزْفِ حركتـهِ ، نُدرك أنهُ تسبيحٌ لمليكه ، تماماً كما تستطيع نبتَةٌ أن تُغنّيه » .

يقـول القرآن إن كـل كائنٍ يعـرفُ طريقتـه الخـاصـةَ في الصـلاةِ والتسبيحِ « ألم تر أن الله يُسَبِّحُ له من في السموات والأرض والطيرُ صافاتٍ ، كُلٌّ قد عَلِمَ صـلاتَهُ وتسبيحَـهُ والله عليم بما يفعلون » . (صورة النور ، آية ٤١) .

وكذلك يُظهر « النيلوفرُ شوقَهُ وحبَه للشمس . إنه يفتح رويـداً ـ لدى طلوعها ـ زهرتَه المغلقةَ قبل الفجر وتَتَفَتَّحُ كلما ارتفعت الشمسُ الى السمت ، ثم تنطوي وتنغلق عند هبوطها .

فما هو الفارق بين الطريقة البشرية في تسبيح الله ، بتحريك الفم والشفتين ، وطريقةِ النيلوفر الذي يَنْشُرُ أو يطوي بتلاتـه ؟ إنها (أي

---

(٢٥٦) **Proclus** : فيلسـوف من الأفـلاطـونيـة الجـديـدة (٤١٢ ـ ٤٨٥) ولد في القسطنطينية .

هذه البتلات) شفتاهُ وهذا هو تسبيحُه الطبيعي . (لابن عربي) .

ان القرآن يُذَكِّرُنا بالمكانةِ الفريدةِ للانسان في سُلَّمِ الخلق والعبادة « إنَّا عرضنا الأمانةَ على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسانُ إنه كان ظلوماً جهولاً (سورة الاحزاب ، آية ٧٢) .

فهل أن الانسان الذي قبل هذا العهد الرهيب ، خليقٌ ، بفلسفته ، أن يُقدِّمَ حساباً عن ميثاق الحرية هذا ؟

قال ابن حزم القرطبي[٢٥٧] (٩٩٤ ـ ١٠٦٣) بصدد الادلةِ المزعومةِ على وجود الله » .

لا يمكن البرهانُ على وجود الله بالكلام ، ونحن نؤمن بوجوده لأن ثمةَ كلاماً لم يستطع الانسانُ خَلْقَهُ » .

هنا يُمكِنُ أن يكونَ مفتاحُ كُل تأملٍ في الله : تأمل وجود في الانسان لا يستطيع الانسانُ ذاته أن يخلقه .

فعندما يبرز في القصيدةِ ، ما لا يمكن ان يكون مزيجاً جديداً من عناصر موجودة قبلاً ـ إن بطريق الاستنباط أو بطريق التماثل ـ وعندما يَظْهَرُ في العلوم والتقنيات ، على غرار القصيدة ، ما ليس هو امتدادٌ للماضي أو على نَسَقِهِ ، وعندما تَعْرُضُ فجأةً في الحب ، تضحيةٌ لا صلةَ لها بالغرائز والرغبات والامتلاكات ، أو أنانيات الطبيعة أو الجنس ، وعندما يزدهر في التاريخ ، مشروعٌ لم يكن مُحَصِّلَةَ ولا نتيجة

---

(٢٥٧) ابن حزم القرطبي : علي بن حزم القرطبي (٩٩٤ ـ ١٠٦٤) فقيه وطبيب وشاعر وفيلسوف ومؤرخ . اشترك في حرب غرناطة له : « طوق الحمامة » وغيرها .

صراعاتٍ سابقةٍ ، وحتمياتِها واستلاباتِها ، عندها فقط ، يستطيعُ المرءُ أن يشهد مفاجأةَ الله التنبئية في التاريخ ، كما يستطيع أن لا يعكس فقط ، مَيْلَهُ الى تحويل الأعلى الى الأدنى ، بل أيضاً ، أن يعزو لذاته ظهورَ الجديد جذرياً ، في حياته ، وفي التاريخ الانساني المشترك ، كما لو أنه كان هو مَصْدَرَهُ الأخير .

ان الأمير عبد القادر[٢٥٨] صحح ، في الاشراقات الصوفية ، من كتابه المراحل (Livre des étappes) ومن خلال الفكر القرآني ، نداءَ منصور الحلاج الذي قال « أنا الحق » فقال : « إن الله انتزعني من ذاتي الوهمية وَقَرَّبني من ذاتي الحقيقية (. . .) ثم نُقِلَ اليّ كلامُ الحلاج[٢٥٩] ، والفرقُ بيننا هو أن الحلاج نطقها بنفسه ، بينما هي نُطِقت عنيّ (الكتابات الروحية ـ لعبد القادر الجزائري) لأن الله ، كما ورد في القرآن ، لا يكشف عن ذاته بل يكشف ، كلامه وشريعته فقط . وان أدق المسائل المطروحة على الفلسفة الاسلامية ، هي ، تحديداً ، مسألةُ صِلاتِ المطلق والسرمدي مع النسبي والتاريخ : هل أنَّ القرآن هو كلامُ الله غيرُ المخلوق الذي يُحَلِّقُ فوق الدهور ، أم أنه اللقاءُ ـ في آونةٍ من تاريخ الانسان ـ مع رفيقه في الأبدية ، في بداية إحدى أرفع مغامرات الملحمة الانسانية ؟

تلك هي الاسئلةُ الثلاثةُ أو تحديات الاسلام للفلسفة ، في القرن

---

(٢٥٨) الأمير عبد القادر الجزائري : (١٨٠٧ ـ ١٨٨٣) ، من الجزائر توفي في دمشق ، حارب الفرنسيين استوطن في دمشق .

(٢٥٩) حسين منصور الحلاج : فارسي توفي في بغداد (٨٥٨ ـ ٩٢٢) قضى السنوات في خلوات الصوفية مع التستري والجيز . اتهم المعتزلة بالشعوذة فحكم عليه بالسجن ثم عذب وصلب . لم يبق من كتبه سوى « الطواسين » .

السابع من تاريخنا . إن الاسكندرية كانت المركز الفلسفي في العالم القديم . وإن دخول القائد العربي عمرو بن العاص[٢٦٠] مع جنوده اليها سنة ٦٤١ ، رَمَزَ الى السيادة الاسلامية ـ على بؤرة الثقافة القديمة ، حيث تجابهت وتلاقحت حِكَمُ مصر وما بين النهرين وإيران والهند واليونان . وفيها (أي في الاسكندرية) نشأت جمائع (Philon) فيلون اليهودي ، وأوريجين (١٨٥ ـ ٢٥٤) وكليمان الاسكندري (حوالي سنة ٢٢٠) بالنسبة للمسيحيين ، وشراح أرسطو ، ثم افلوطين (٢٠٥ ـ ٢٧٠) و (Proclus) (٤١٢ ـ ٤٨٥) .

وكان القرنُ الذي تلا قيامَ الاسلام في الاسكندرية قرنَ الترجمات الكبرى المُنْجَزَةِ في بغداد بتشجيعٍ من الخلفاء العباسيين (المنصور وهرون الرشيد والمأمون) وحقبةً هيمن عليها نتاج حنين .

بعدها جاء الكندي[٢٦١] (٧٩٦ ـ ٨٧٣) أول فيلسوف عربي اهتّم بتحديد علاقات الانسان بالله ودمجِ الفلسفةِ اليونانيةِ في الرؤيا الاسلاميةِ للكون ، بعد ان قرأ الترجمة العربية لكتاب « ما وراء الطبيعة » لارسطو ، وكتابه « اللاهوت » الذي نُسب اليه (لأرسطو) في حين أنه لا يمت إليه بأية صلة ، والذي كان من نتاجِ التصوف الافلاطوني الجديد ، الذي أُلِّفَ اعتماداً على التوسوعات الثلاث الاخيرة لافلوطين .

---

(٢٦٠) عمرو بن العاص : اسلم ٦٢٩ وتوفي سنة ٦٦٣ . فاتح شهير .

(٢٦١) الكندي : ابو يعقوب . ولد في الكوفة . لقب بفيلسوف العرب . ترجم مؤلفات اليونان . كان حجة في علم الفلك . كان معتزلياً توفي سنة ٨٧٣ .

لكنه لم يجد في هذه الاسهامات الخارجية ، ما يُمَكِّنُهُ من الاجابةِ على المسائل الأساسية ، الاسلامية نوعياً التي طرحتها النبوءةُ والتي تُكَوِّنُ ، اصالةً الفلسفة الاسلامية : سواء مسألة العلاقات بين الواقعي وغير الواقعي ، التي استُبدلت عند الاغريق ، بالعلاقات بين المحسوس والمعقول ، أو مسألة العلاقات بين الكلام الانساني والكلام الربّاني ، والعمل المفروضِ بالشريعةِ الالهيةِ ، تلك المسألة التي لم يطرحها الاغريقُ بسبب مفهومهم السخيف عن الآلهة ، التي كانت بنظرهم ، مُجَرَّدَ مرتسماتٍ مُكَبَّرَةٍ عن الناس ـ كما لم يطرحوا ، بصورةٍ أَوْلَىْ ، مسألةَ التنبيءِ وحضورَه الفاعلَ في الانسان .

وقد اصطدم الكندي ، أولاً ، بمسألةِ الأصول والخلقِ الالهي ، التي لا يمكن ان يُفَكِّرَ فيها فيلسوفٌ إغريقي غارقٌ في رمول التأملات حولَ الجوهر وواجبِ الوجود . وهو (أي الكندي) يَعْلَمُ ، انطلاقاً من الوحي القرآني ، أن الله ليس الوجودَ ولكنه المُوجدُ ، ويَرْفُضُ ، بالتالي ، النظرياتِ الافلاطونيةَ الجديدةَ عن « الفيض » الضروري ، كما يرفض ما ورائيات أرسطو عن خلقٍ يتلخصُ ، ببساطةٍ ، في إعطاء شكلٍ لمادةٍ موجودةٍ من قبل .

ولم ، يكن باستطاعته الأخذُ بمفهوم أنسنة علاقات الإنسان بالله ، الذي (أعده) سقراط وأفلاطون وأرسطو وأفلوطين إلاّ اذا تخلّى عن مبدأ التسامي الالهي ، الاسلامي الصارم . ولأنه لم يستطع تبرير إدخال الفلسفة الاغريقية في الثقافة الاسلامية ، فقد ذهب الكندي الى التقريب بينهما : لقد تبع ـ بلا تبصر ـ منطق أرسطو ، ولكنه كان متمسكا بالمفهوم القرآني عن الخلق . وأما الفارابي (٨٧٢ ـ ٩٥٠) فقد جهد في تجاوز هذه الاصطفائية ، وفي تحقيق جميعةٍ يجعل فيها

نصيباً كبيراً لليونان وبخاصةٍ لأرسطو وافلاطون .

إن ارسطو وأفلاطون ، برأي الفارابي ، قد استقيا فلسفتيهما من حكمة مصر والكلدان ، الأولية ، ولذا كان هَمُّهُ الأكبرُ التوفيقَ بينهما - برجوعه الى الينابيع ، على حد قوله - فألف بسبب ذلك كُتُبَهُ الرئيسيةَ (كتاب الجمع بين رأي الحكيمين ، وكتاب تحليل ما وراء الطبيعة عند أرسطو ، وكتاب محاورات أفلاطون) التي تُعَبِّرُ عناوينُها ، جيداً ، عن غايته . هذا التبني وهذا الاكبار للفلسفة الاغريقية قاداه الى تأملاتٍ ما ورائية ، في الجوهر ، والوجود اللذين لم يَرَ فيهما ، فروقاً منطقية فقط ، بل درجاتٍ من الوجود .

لقد ترك ، إذن ، « فلسفة الفعل » الغنيةَ النابعةَ عن الرؤ يا القرآنية ، التي يَخْلُقُ اللهُ فيها ، « في كل لحظة » وكما يشاء ، وَوَقَعَ (أي الفارابي) في « فلسفة الوجود » التي حَجَّرَتْ كل الفكر الاغريقي من (Parménide)(*) الى أرسطو .

ولذا فقد بات عسيراً على الفارابي ، تبريرُ التنبيء : ولو أنه يؤ كد على وجود عقلٍ فعال ، يَهَبُ الصوَر ، كما تهب الشمسُ البصرَ للعين الانسانية التي تتلقى الضياء ، أو كمثال الخير ، الأفلاطوني الذي يَشِعُّ (ينتشر ويتفرق) مُثُلاً ، في العالم كله ، فأننا نبقى مع الفارابي ، رغم هذه الترتيبات الصغيرة في العقلانية الأغريقية - بعيدين عن التنبيء الذي لا يستطيع الافصاح عن ذاته بلسان وأنواع الفلسفة الاغريقية - كما لم تستطع التجربةُ النصرانيةُ في المحبة، من جهةٍ أخرى ، أن تُعَبِّرَ بها عن ذاتها) لأن هذه الفلسفة (أي الاغريقية)

* بارميندس : فيلسوف يوناني (٥٠٤ - ٤٥٠) قبل الميلاد .

هي في الاساس فلسفةٌ « ماسخة » : فهي تُعَلِّقُ الفعلَ على الـوجود والواحدَ والآخرَ على المفهومِ . ولذا فان فلسفةَ الفارابي تُعَدُّ من هذه الناحية متخلفةً بالنسبة لفلسفة الكندي ، لأَنها تُضَحِّي بالنبـوءة من أجل العقلانية الهلينية . إنها لم تعد تقريباً ـ كما يدعي الفارابي ـ بـل محاولةَ توفيقٍ ، تَسَرَّبَتْ بها الفلسفةُ الاغريقيةُ شيئاً فشيئاً الى الاسلام وشوّهته .

ولم يـظهر هـذا الأمر بـوضـوحٍ ، مثلما ظهـر في فلسفـة الفـارابي السيـاسية ، سـواءٌ عنينا بـذلك شـروحَهُ عـلى كتـاب « القـوانـين » لأفـلاطون ، او رسـائلَه المختلفةَ حـول « المـدينـة الفـاضلة » . إنها مستوحاةٌ من « جمهورية أفـلاطون » إلَّا انها تختلفُ عنهـا في نقطتـين جوهريتين تحولان دون التوفيق بينها وبين رؤيا العالم الاسلامي :

١ ـ إنها لا تقف عنـد حـدود المفهـوم « المُغْلَقِ » عن المـدينـة الإغـريقية ، بـل تمتد الأمـةُ (الجمـاعـة الاسـلاميـةُ) تبعـاً للمبـدأ الاسلامي حتى تشمل الانسانيةَ كلها .

٢ ـ انها ليست مُدارةً بـ « فيلسوف أصبح ملكاً » أو ملكٍ اصبح فيلسـوفـاً» بـل بنبي ـ مشـرِّع. ولكن هـذا الانتقـالَ من «الحكيم» الافلاطوني الى الإمام لا يتم دون اضرار ، ويترك كُلَّ المسائلِ بدون حل : فعلى أي شكلٍ من المعرفة تستند سلطةُ الامامِ المُشَرْعْ ؟ هل تستند على الجدلية الافلاطونية ، أو منطق أرسـطو ، أم على الـوحي القرآني للشريعة ، « واستبطانها » بإشراق الصوفي ؟ وبكلمةٍ واحدةٍ ، إنَّ محاولة التأليف عند الفارابي تفتقر الى نظرية المعرفة « التنبئيـة » ، بينما يستمر هو متذبذباً بين الجدلية اليونانية ونبوءة الاسلام .

أما ابن سينا ذلك العقل الجامعُ المتفوق في جميع العلوم تقـريباً ، وفي الشعر والموسيقى ، فـإننا نكتشف فيـه معاً ـ وبشكـل متناقض ظاهرياً ـ وعياً عميقاً لمقتضيات فلسفةٍ تنبئية ، إسلاميةٍ نـوعياً ، كـما نكتشف تنازلاتٍ للفلسفة الاغريقية أكبرَ أيضاً من تنازلات الفارابي ، إننا نَجدُ تعبيراً حاداً ، عن هذه المفارقـة ، في كتابـه (Livre de la science) كتـاب العلوم . ففـي هـذين المـجلديـن عن المـنـطق والفيزياء ، وما وراء الطبيعة ، والرياضيات ، والفلك والمـوسيقى ، يُخَصِّصُ ابن سينـا بعضَ السطور ، لنـظريةٍ فيضيـةٍ (مستوحـاةٍ من الأفـلاطونيـة الجديـدة ، هي نظريـة « الـلاهـوت » المنسـوبـةِ زوراً لأرسطو) متعارضةٍ كلياً مع المفهوم القرآني عن الخلق .

وفي فصـل آخـر مُعَنْـونٍ ، بغـرابـة : « **النـظر في جــود واجب الوجود** » ، يقول في سطور ثلاثة : الجودُ عبارةٌ عن طيبةٍ تصدر عن شيء ، بإرادة (هذا الشيء) ولكن دون قصدٍ منه . هذا هو فعـل واجب الوجود . وإذن فإن فعلَهُ هو الجودُ المطلق » . وفي المجلد الثاني من نفس الكتاب ، وفصلٍ آخر واقعٍ بغرابةٍ أيضاً في باب « فيزياء » تحت عنوان : « حالة الروح الطاهرة التي هي روح الأنبياء » . يُعطينا ابنُ سينا هذا التعريف : « الروح الطاهرة هي روح الانبياء الساميةُ العاقلةُ التي تعرف المعقولات ، بلا أستاذٍ ولا كُتُب ، تعرفها بالحدس العقلي واتحادِها مع عالم الملائكة ، التي برؤ ياها وتَيَقُّظِها تصعـد الى العالم الخفي وتتلقى الوحيَ منه (. . .) إن الوحي هو الصلةُ التي تنشأ بين الملائكة والروح الإنسانية ، (. . .) إنها تعمل (أي الروح) في مادة الكون ، من أجـل اجتراح الخـوارق (. . .) هذه هي الـدرجةُ العليا للانسانية (. . .) وهكذا فإن مثل هذا الكائن هو خليفةُ الله في

الأرض . إن وجوده متوافقٌ مع العقل وضروريٌ لديمومة النوع الانساني وهو ما برهن عنه .

« والآن وقد تحدثنا كثيراً عن الفيزياء . . . . ، ثم يتابع ابنُ سينا حديثه بفصلٍ مخصص « للهندسة » .

ان الأمر الذي يُدْهَشُ له كيف أن هذا الرجل الذي كتب رسالةً عن الصلاة وشروحاً عن القرآن ، يَحْشُرُ بمثل هذه السهولة ، وبسطورٍ قليلة ، في رسالة أرسطيةٍ ، بعضَ سطورٍ عن الفيضية وَجُودِ واجب الوجود ، وبعضَ السطور الأُخرى عن النبوءة ، بينما يرفض كلُّ مؤلفهِ فكرةَ إمكان حدوثِ الممكنِ ، وبالتالي التدفقَ الدائمَ للممكناتِ المستجدةِ ، ذلك التدفق الذي هو في قلب الوحي القرآني عن الله ، وخصبهِ وغناه .

وهكذا فان الفلسفةَ التنبئية غير موجودة عند ابن سينا ، الذي لم يتحرر من قبضة الفلسفة الاغريقية الخانقة إلاَّ بصورةٍ جنينيةٍ ، ذلك التحرر الذي ظهر في بعض ملاحظاته حول لاهوت « أرسطو ، التي تأمل بها في وجود « ما بعد الموت » وكتاباته الصوفية (Récits mystiques) التي يَذْكُرُ فيها هذا الوجودَ شعرياً ، برموزٍ تشير الى عالم الغيب .

وهكذا بَشَّر ابنُ سينا بمشروعٍ فلسفةٍ تنبئيةٍ حقيقي ، غير أن فيلسوفين أَعطاهما الغرب مكانةً مبالغاً فيها ، هاجماه باتجاهين متعارضين ، لأَنه (أي الغرب) ظن بأنه وَجَدَ في أَحدِهما الغزالي ، (١٠٥٨ ـ ١١١١) رائد الشك الديكارتي والفلسفة النقدية :

(Kant) ولأن الآخر ابن رشد[٢٦٢] (١١٢٦ ـ ١١٩٨) قام بدور خطيرٍ في المناظرات اللاهوتيةِ ، في القرن الثالث عشر ، القرن اللاتينيّ (للرشدية) والذي افسح مجالاً لردةِ فعلِ القديس توما الاكويني . غير أن عادة الغربيين المستهجنة بالحكم على الأحداث والناس (وفقاً لاهميتهم بالنسبة اليهم ، وليس لأهميتهم في حقل النشر الاجمالي للثقافة الشاملة) ، لا ينبغي لها (أي لهذه العادة) أن تجُرّنا الى المبالغة في تقدير مثل هذه الاعمال .

ان الغزالي[٢٦٣] معاصر الحملة الصليبية الاولى (الذي كان عمره ٤٠ سنة حين احتلال أنطاكية و ٤١ سنةً حين احتلال القدس) بدأ مهنته كفيلسوف رسمي في بغداد ـ كسابقيه ـ بالتعبيرِ عن العقيدةِ الاسلاميةِ بلسانٍ وجدليةِ الفلسفة اليونانية . لكن فترةً من الشك اعترضته فدفعته الى تقرير العدول عن التدريس فقال : « إن علم اللاهوت قليلاً ما كان يرضيني » .

قال الغَزّالي في كتابه المنقذ من الاضلال : « لاحظتُ أحوالي فإذا أنا منغمسٌ في العلايق ، وقد أحدقَتْ بي الجوانبُ ، ولاحظتُ أعمالي وأحسنَها التدريسَ والتعليمَ فإذا أنا فيهما مقبلٌ على علوم غير مهمةٍ ولا نافعةٍ في طريق الآخرة ، ثم تفكرتُ في نيتي التدريس ، فإذا هي غيرُ خالصةٍ لوجه الله تعالى ، بل باعثُها ومحركُها طلبُ الجاهِ وانتشارُ الصيت ، فتيقنت أني على شفا جُرُفٍ ، وأني قد أشفيت على النار إنْ

---

(٢٦٢) ابن رشد : محمد بن أحمد بن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨) ولد في قرطبة وتوفي في مراكش ـ اتصل بابن طفيل . فيلسوف وطبيب .

(٢٦٣) محمد الغزالي : (١٠٥٩ ـ ١١١١) ولد في طوس بخراسان . من عظام فلاسفة العرب .

لم أشتغل في تلافي الاحوال » . (المنقذ من الضلال) . (المعرب) .

لقد هاجم الاغريقَ بشدةٍ ، وبخاصة سقراط وافلاطون ، فقال : « يجب ان يُعَدُّوا كلُهم هراطقةً بمن فيهم أتباعُهم من « الفلاسفة » المسلمين مثل ابن سينا أو الفارابي(٢٦٤) . إن هذين الأخيرين ساهما أكثر من أي شخص آخر في نشر أفكار أرسطو . « ثم هاجم كل فروع المعرفة من المنطق الى البيولوجيا ، ومن الرياضيات الى اللاهوت . وَرَفَضَ ثُنائيتَها التي تفصل بين الروح والجسد ونظريتَها في المعرفة ، وَبَخَّسَ من قيمة الخاصِ والمحسوسِ ، كما رَفَضَ تَصَوُّرَها لأبدية الكون الذي يستبعد الخلقَ . واختار الغزالي ، حينئذ ، طريق المتصوفين ، ناشداً الحدسَ العقلي ، أي معرفةً تركيبيةً ، شاملة ومباشرة وملموسة أي « رؤ يا » قلبية .

ثم قرَّر ، بعدها ، العودة للتعليم ، كي يُطلع الآخرين على إيمانه بالنبوءة ، المُجَدَّدةِ بالتجربةِ المعاش « المبنية على رؤ يا ، « بأن لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وقد لَخَّص ـ في آخر حياته ، الى أحد تلامذته ـ الإيمانَ العميق بقوله :

رأيتُ كُلَّ البشرِ يتوكلون على الشيء المخلوقِ : فالبعضُ يتوكلُ على المال ، والآخرُ على الملكيةِ ، وآخرون على الحرفةِ أو الصناعة ،

---

(٢٦٤) الفارابي : محمد (٨٧٣ ـ ٩٥٠) ولد في فاراب وتوفي في دمشق فيلسوف عربي من أصل تركي أو فارسي . لقب بالمعلم الثاني بعد أرسطو حاول التوفيق بين فلسفة ارسطو وأفلاطون . كان رياضياً وموسيقياً ينسبون اليه اختراع آلة القانون .

وأخيراً اولئك الذين يَتوكلون على الإنسان ـ عنـدها تـأملتُ في كلام الله :

« ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغُ أمرهِ . قد جعل لكل شيء قـدرا » (سورة الـطلاق ، آية ٣) .

ويضيف الغـزالي قائـلاً في كتابـه (Ojeune homme) : « يجب على المرءِ البحثُ عن إرضاءِ مشيئةِ اللهِ ، قبل إرادته الخاصةِ » . وهو كما نرى ، التذكيرُ الاساسيُّ بمقتضياتِ (التوحيد) على صعيد المعرفة والعمل .

وبعد هذه الحلقة من الصراع بين اللاهوتيين والمتصوفين ضد تأثير الفلاسفة الهلنسنيين ، يُمَثِّلُ ابن رشد ردةَ الفعل الأغريقية المتطرفة . فَبَقِيَ ، بنظر الغَرْبِ ، شارحَ أرسطو الأكبر (Averrois che gran coments feo) كما قال « دانت » . (Dantes) لقد طارد ابنُ رشد ـ عنـد ابن سينا ـ كـل أَثَرٍ للخلق » ، لأن « لا علةَ خـالقةٌ » بـالنسبة للاغريقي ، كما يقول أرسطو «فَنَّذَ أقوال الغزالي بكل ما لديه من قوة .

لقد أحب (Renan) ، في كتابه عن ابن رشد والرشدية (Aver-roès et l'Averroisme) أن يذكر كلمة ابن رشد التـالية : « أيهـا الناس ، أنا لا أقول بأن هذا العلم الذي تسمـونه العلمَ الالٰهي هـو علمٌ خاطىءٌ ، ولكني أقول بأني أنا عالمٌ بالعلوم الإنسانية : « وكـان يرى فيه رائدَ « المفكرين الأحرارِ » . وانطلاقاً من هذا المنظور الغربي الضيق ، أراد الغـرب ان يجعـلَ من أثـرِ ابن رشـد قمـةَ الفلسفـةِ الاسلاميةِ وفي الوقت نفسه القضاءَ عليها . ان الـذي مات مـع ابن رشد هو البحثُ عن البُعد المتسامي للفلسفةِ ، ومعه (أي ابن رشد)

تَمَّ الانقطاعُ بين الفلسفةِ والحياةِ الكاملةِ حياةِ الروحِ التي يطمحُ الصوفيون اليها ، وظَلَّت الفلسفةُ الغربيةُ تنازع ستة قرون ، بسبب إهمالها البُعْدَ التنبئي والحياة ، لأن نَزْعَهَا بدأ مع ما سموه ، مجازاً بالإنبعاث » .

وانه لذو مغزى أن يحضر مأتمَ « ابن رشد سنة ١١٩٨ ، رجل عمره ٤٣ سنة هو ابن عربي(٢٦٥) (١١٦٥ - ١٢٤١) الذي بدأ بالفلسفة التنبئية العظيمة في الأندلس - كما حصل قبلها في الطرف الثاني من العالم الاسلامي أي في فارس، مع السهروردي(٢٦٦) (١١٥٥ - ١١٩١) . إن السهروردي هو نقيضُ أرسطو . لقد كتب في كتابه (Théosophie Oriuntale) «التيوصوفية»* الشرقية : »على من لا يطمحُ ، إلاَّ لمعرفةٍ فلسفيةٍ بلا قيد ولا شرط ، ان ينتسبَ الى مدرسة أتباع ارسطو (. . . .) وأما نحن فليس لدينا ما نقوله له أو نناقش معه فيما يتعلَّق بالفِكرِ الأساسية « للتيوصوفية » الشرقية .

ويقول المؤلفُ معلقاً : إن (Henry Corbin) هو أحد الكتاب الغربيين الذي كان أكثر إسهاماً من غيره ، بإطلاع الفرنسيين على أثر السهروردي وفحواه ، إنَّ بالدَّرسِ الذي بذله (في المجلد الثاني من

---

(٢٦٥) محي الدين ابن عربي : (١١٦٥ - ١٢٤٠) ولد في مرسية في الأندلس وتوفي في دمشق . صوفي أقام ٣٠ سنة في أشبيلية ثم رحل الى الشرق . أشهر مؤلفاته « الفتوحات المكية » .

(٢٦٦) السهروردي : شهاب الدين يحيى السهروردي . ولد في سهرورد سنة ١١٥٥ وتوفي في حلب . قتل بأمرٍ من صلاح الدين سنة ١١٩٠ يسمى مذهبه « حكمة الاشراق » .

* الفلسفة الالٰهية الاشراقية .

كتـاب (En Islam Iranien)) أو بتـرجمـاتـه ، وخـاصـة (L'
Archange empourpre) كتاب رئيس الملائكة الأرجواني ، وإذن
فنحن مدينون له كثيراً ، ولكن مع التحفظيْن التاليين :

أ ـ يبـدو لي أنـه من الصعب « تصنيفَ » السهـروردي بـين « الأفلاطونين » في فارس :

فبالاستناد الى تحليل هنري كربان ذاته ، يظهر أن السهروردي لا يُهاجِمُ أرسطو من وجهة نظر الثنائية الافـلاطونيـة ، بل أسـاساً من وجهة نظرِ النبوءة الاسلامية .

٢ ـ أنا لا أعرفُ ، بعمق ، مثل هنري كربان فلسفة فارس القديمة (الما قبل اسلامية) ، أي فلسفة مزدا وزورواستر ، بيد انه يتراءى لي بأنه يصعب القبول بالقول إنَّ مشروعَـه الأساسي كـان يهدف لبعث فلسفةِ النور ، لحكماء فارس القديمة » . وإن المُؤَلَّفَ ذاتَه الذي يعتمد عليه (هنري كربان) لتأكيد ذلـك هو : Le livre du verbe du) sonfisme) فإذا كان السهروردي يُذَكِّرُ في الفصل ٢٢ منه ، بما هو مدينٌ به لفارس القديمة ، ولأفلاطون أيضاً في الفصول التالية ، فانهُ يَـذكِّرُ كـذلـك بـدينـهِ للعبـريـة والنصـرانيـةِ والمزديـةِ (التي ينتقـد ثنائيتها)) . إنهُ من الدفـة الاولى الى دفتهِ الاخيـرة تعبيرٌ محض عن الفلسفـة التنبئيـة الاسـلاميـة التي جَهِـدَ بتقـديمهـا ورَبْطِ الفلسفـة بالتصوف .

إن هـدف السهروردي ، في كـل مؤلفه هـو ، في الواقـع ـ وعلى نقيض أرسـطو وجميع أتبـاعه ـ عـدمُ فصـلِ الفلسفـة ، عن تجـربـة

الصوفيين : أي التجربة المعاشة (وليس الفكر فقط) ، عن حضور وولادة الكائن .

يقول السهروردي : إن الفلسفة التنبئية « الاشراقيةَ » لا تعزل المعرفةَ النظريةَ ـ كحركةٍ مستقلة ـ عن مُجمل الحياة : فكلٍ معرفةٍ حقيقيةٍ هي تبدلٌ دائم وتحولٌ داخلي في الانسان . إنَّ جُهْدَ السهروردي ـ لتحرير الفلسفة التنبئية من أرسطو والأغريق الذين دفنوها تحت فلسفتهم وأفسدوها ـ ليسَ انبثاقاً من الافلاطونية ؛ لأن طريقة المعرفة التي هي طريق الإشراق ، ليست مطلقاً معرفةَ المعقولِ ، كما فهمتها التعقليةُ الاغريقيةُ أو الافلاطونية) بل معرفةً تخيليةً . وهي ليست ، ولذات السبب ، انبثاقاً (ولا محاولةَ تجميعٍ من الحكمةِ الفارسية ، لأن ابن عربي (الذي لم يكن يقصد أبداً بَعثَ حكمةٍ ليست من تُراثهِ الروحي) طوَّرَ ذات فلسفةِ التخيلِ الخلّاق في إطار الفلسفة التنبئية ذاتها . إنَّ ما يُسميه السهروردي « الفلسفة الاشراقية » (مستخدما تعبير ابن سينا ، وبخاصةٍ ، مشروعَ « الفلسفة الاشراقية » الذي لم يستطيع ابنُ سينا تحقيقه بكامله ـ لأن أفقه كان مسدوداً بكثير من الآراء الفلسفية الأغريقية المسبقة) ليس له مدلولٌ « جغرافي » : إن كلمة « إشراقية » مأخوذة بمعنييها الرمزي والاشتقاقي معاً ، عن معنى « المكان الذي تَطْلُعُ منه الشمس » . وإن الفلسفة الإشراقية المؤسسة ، مثل التصوف ، على « الإشراق » أي على معرفة مباشرةٍ (لا تأمليةٍ وجدليةٍ) وكليةٍ (لا تحليلية ولا معنوية) : « فلسفة النور » و « معرفة الشروق » معرفة الضياء (أثناء ولادته) ، معرفة ليست انعكاساً جامداً « لكائن » خارجي ، بل مشاركةً في فعلِ الخلق المستمر ، وفي تدفق كائناتٍ جديدة.

باستمرار . إنها فلسفةُ الفعـل وليست فلسفة الوجود .

إن لهذه المعرفة التخيلية التنبئية بالنسبة للسهروردي وابن عـربي ميزة التجلي :

إن الفعلَ هو تماماً ـ وِفْقَ التعليمِ القـرآني ـ التعبيرُ الخارجي عن العقيدة عند فيلسوف النور » وهو المعرفة العُليا ، معرفةُ « الإشراق » التي تتـطلب تكريسَ الحيـاةِ كلِها لجعـل هذا « اللقاء » ممكنـاً ، كـما تتـطلب ، في ذات الوقت ، وبنتيجـة ذلك ، تجـديد الـذات في كل أفكارنا وأعمالنا .

« إن فيلسوف النور » لا ينسى أبداً أن هدف فلسفته هو السيرُ به الى مكانٍ آخر ، وأن لا دافع أقوى ـ للوصول اليه ـ من دافع الحب ، حبٍ هو، عند السهروردي «كما هو عند روزبيهـان[٢٦٧]» (١١٢٨ ـ ١٢٠٩) إنسانيٌ والٰهيٌ لا يتجزءان : فليس هناك سوى حب واحد ، ويجب أن نتعلم قاعدة الحب الالهي في كتاب الحب الانساني ، وهناك إذن حلُ رموزٍ تنبئي « للجمال والحب » ، لمن يعرف ـ حسب تعليم القرآن ـ أن « يقرأ » في ذاتـه وخارجهـا « آيات الله » ، ولمن تَحَقَّقَ ـ بحياته وفكـره ـ بأن العـلاقةَ بـين الله والانسان ليست عـلاقة سيـد بعبد ، بل علاقة حب يكون فيها الله ـ كما كتب روزبيهان ـ المحبوبَ والمحبَ والحبَ » . يقول الله نفسه في حديث قدسي : مَاْ تَقَرَّب إليَّ عبدي بمثل أدائي ما افترضت عليه ، ولا يزال يتقـرب اليَّ بالنـوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً ، دعاني فأجبته ونصحني فنصحت لـه . (البخاري) وبـالانتقال من الحب

---

(٢٦٧) روزبيهان الشيرازي :

الانسـاني الى الحُب الالٰهي ، فإن الحـركة ذاتهـا لا تُغير مـوضـوعَهـا (الذي هو الحب) بل إن الذات هي التي تَتحوَّلُ، لأننا نُصبح دائماً، وعلى وجه التقريب ، شبيهين بما ينتظره منّا محبونا . فاذا وُجد ـ حسب تعبير ابن عربي ـ خالقٌ مؤنث ، فإن هذا المسير يصـل بالحب الالٰهي (الذي كان الجمال بشارته التنبئية) ، الى مداه .

حاشية للمؤلف : ولكي نعرف تأثير هذه الفلسفـة التنبئية وهـذه الـرؤ يا عن الحب ، عـلى الغرب نكتفي بـذكر (كـما سنفعـل اثنـاء البحث في الشعر الاسلامي) ، الدور الذي قام به هـذا التصوف ، في قــصـــور (Arnauld Daniel) و (L'amour Courtois) في (Fidèls d'amour) (لــدانــت) ودور (Béateice) وفي تصــوف (Eckhart Mactre) (القارىء الكبير لابن سينا) المقتنع بهذا الفكر التنبئي الاسـلامي والـذي كتب مثـلاً : « إن النـظرة التي أرى الله فيها ، والنظرةَ التي يراني بها الله ، هما نظرةٌ واحدةٌ وذاتُها » . إن هذا الكلام كلامٌ صوفي ، كما ترى .

إن السهروردي يشير الى هذه الرؤ يا عن الحب ، من خلال الرموز الشعـريـة في (Vade mecum des fidèles d'amurer) في تـوبـةٍ توراثيةٍ عن حب يوسف وزليخا .

إن هذه الفلسفة التنبئية قد بلغت أوجها مع ابن عربي ، الصوفي الاندلسي ، المولود في مرسية والمتوفي في دمشق ، ابن عربي « الشيخ الاكبر » الذي قَدَّمَ أفضلَ تعبير عن المبدأ الاساسي للرؤ يا الاسلامية للعالم . « **العملُ هو المظهرُ الخَارجيُ للايمان** » ، **وهو الذي يكشفـه ويـظهره . والايمـانُ هو المـظهرُ الـداخليُ للعلوم ، والعمـلُ ينشِّطه**

ويؤجِّجه « ويقول أيضا بصورة اعمق » : أفهم العملَ بأنه تنبئيٌ بمقدار ما يتبنى شريعةً مقدسة » .

إن هذه الرؤيا الجامعة ، هذا الحدسَ الحَي ، ليس نوعاً من الاتصال بـ « واقعٍ ملموس » مدركٍ ولا انعكاساً عن « عالم معقول ، إنها فعلُ تخيل تنبئي ، وليس وهماً أو تخيلاً ذاتياً بل معرفةً قلبيةً تكشف لنا هذا العالم غيرَ المحسوس أو المعقول .

وإن لهذا التخيل التنبئي في الانسان ، « معادلاً » في العالَم ، إنه أي التخيلُ ليس سوى عمليةٍ « لقاءٍ » حقيقةٍ أعمقَ : هي أفعالُ الله الخالقةُ في « الآيات » التي يُظهرها عَبْرَ أحداثِ التاريخ ، وتقلباتِ وايحاءاتِ القلب والروحِ ، وبروزِ الطبيعةِ ، وتَوَلُّدِ الفنون . وإن الله أبدع العالم ـ على الأرجح ـ وأنا استعمل هذه الكلمة بالقياس على الإبداع الشعري ـ وهو يتخيَّلهُ .

وإن التخيلَ فينا ، ليس سوى صورةِ الله البعيدة ، مثلما الحبُ الانساني ليس سوى الصورة العميقةِ عن حب الله . انها بعيدةٌ ولكنها مبشرةٌ وتنبئيةٌ . لأن الحب هنا أيضا ، هو القياسُ الأقرب ، وقال : ابن عربي لا نستطيع تأمل الله ، مباشرةً دون سندٍ (حسيٍ أو روحي) لأن الله في ذاته مستقلٌ عن العوالم (. . .) إن تأمل اللّهِ ، في النساء هو الاكثرُ عمقاً وكمالاً وإن الاتحادَ الأكثرَ شدةً (في مرتبةِ المحسوس الذي يُسْتَعْمَلُ كركيزةٍ لهذا التأمل) هو الزواج . (ابن عربي) .

ولكن لكلِّ فردٍ ـ وراء هذا الرمز التنبئي للجمال والحب « كآيتين » على وجودِ الإلهي ـ ما يُسَمِّيه ابن عربي « نَبِيٌّ كيانك » الذي يدعو

هذا الفرد كي يسعى اليه حتى يَصِيرَهُ ، رغم أنه لا يجرؤ أو يستطيعُ ، دائماً ، أن يكون ـ هذا النبيَّ الذي سمَّاه ابنُ عربي والسهروردي وابنُ سينا « ملاكاً » .

إن كياننا كله ، مشدودٌ نحوه ، في الصلاة التي ليست ـ مثل صلاة النيلوفر أو دوار الشمس ـ دعوةً بل طريقةَ وجودٍ وسبيلاً لربطِ الانسان بالله ، بحيث لا تكون فيها صلاةُ الإنسان لله سوى صلاة الله في الانسان . كتب ابن عربي في فتوحاته : « إن الكائن لا يُحب ، في الحقيقةِ أحداً غيرَ خالقه » . هذا الحبُ خالقٌ لأنه يُفَتِّحُ ، في الكائن الأرضي المحبوبِ ، جميعَ الكوامن الممكنةِ ، وكلَّ ما لم يكن موجوداً لديه قَبْلَ الحب ، ويجعلُ منه ظهوراً لله « تجلياً لله » ويخلق فيه الملاكَ . إن « ملاكنا » هو فرديتُنا الابديةُ ، كما وُلِدَتْ من تجلي الالٰهي الذي ينكشف لذاته . ولا يكتشف المُحبُّ وجودَه في محبوبه فقط ، بل ان هذا الكشف يُحَوِّرُهُ . ذلك هو حضور الله في نفسي » . كما قيل في القرآن : « فلم تقتلوهم ولكنَّ اللهَ قتلهم وما رميت إذْ رميتَ ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ان الله سميع عليم » (الانفال ، آية ١٧) .

وكذلك فان الله يُحبُّ فيَّ ويتخيَّل فيَّ . ولذا فإن هذا التخيلَ مصدرُ كلِ مشروعٍ ممكنٍ أو غير ممكن ، ومصدرُ كلِ خلقٍ . ويقول ابن عربي : « أن يُصبح قرآناً » فإنما تعني هذه العبارةُ : أن يُصبح مكاناً « لتجلي الالٰهي » وآيةً لله فلا برهان دامغاً عن وجودِ الله الخالقِ وفعلهِ ، إلَّا في تجربةِ هذا الحضور وهذا الفعل ، وهذا الخلقِ ، فينا ، مما هو ليسَ لنا ، ومما هو ليس نحن .

إن المتصـوف النصـراني (Angelus Silesius)[٢٦٨] (١٦٢٤ - ١٦٧٧) الذي مَرَّ بذات تجربة ابن عربي ، قال : يجب أن يُخْلَقَ اللهُ فيك . واللهُ بحاجةٍ لقلبي حتى يُولَدُ : « لا يُعلم ما هو اللّهُ . . . . هو ما ليس أنا ، وأنت ، ولا مخلوق آخر يعرفهُ أبداً ، إلّا اذا صرنا ، ما هو » .

فالالٰه ليس إلهاً في ذاته ، وَحْدَهُ المخلوقُ اختاره إلٰهاً .

إنه إعلانٌ نصرانيٌ ، عن التوحيد الاسلامي . إن الله يبدو في كل عمل خالقٍ . لا تمكن مشاهدةُ الله . إن البرهان الوحيد عن الله ، هو إتمامُ حضـوره ، وإظهارُ بـأَنَّهُ يُخْلَقُ في ذاتي : وبمعـرفته ، نُعـطيه الـوجودَ » (ابن عـربي - في فصـوص الحكم) . وهكـذا نصـل الى السؤال الأخير في كُلِّ « فلسفةٍ نبوية » : ماذا يعني القـولُ « بأن الله كَلَّم محمدا » ؟ ولماذا حَوَّلني هذا القول ؟ أنا أَذْكُرُ هنا محمداً ، لأنه لم يَعْتَبِرِ الاسلامَ ديناً خاصاً بل عقيدةً أوليةً هي عقيدةُ ابراهيم الذي لم يكن عبرياً ولا نصرانياً ، ولا مسلماً بل نموذجاً مثالياً عن الانسان وعن الايمـان . أُعطي اللهَ من كيـاني ، ولكن كياني وُلِـدَ من فعله ، كـما يُوجِدُ المحبُ حَبيبَتَهُ . لأنه لا يمكن إثباتُ إلٰهٍ اذا لم يكن له علاقةٌ مع الذي هو الهـه . (ابن عربي - في كتـاب ص . ١٠٣) . ثم يتشهدُ ابن عربي بالآيـةِ القرآنيـةِ : رقم ٥٣ من سورة فُصِّلَتْ : « سنـريهم آياتنا في الافـاق وفي انفسهم . . . » وبالحـديث « فلا السمـواتُ ولا الأرضُ تسعني بل يسعني قلبُ عبدي المؤمن » ويُضيف إننا نصل اليه انطلاقاً من ذواتنا (في فصوص الحكم) .

---

(٢٦٨) Angelus Silesius : (١٦٢٤ - ١٦٧٧) .

إن اللاهوتَ السلبي لا يستبعد هذا الحوارَ ، الذي هو حوارُ محبةٍ : ففي الواقع هناك موقفان هما :

ممكنان ، في علاقتنا بالله : « الإبتعادُ » وهو الاقترابُ « السلبي » الذي ينفي كل مشابهةٍ مع حقيقةٍ انسانيةٍ كائنةٍ ما كانت ، و « المماثلةُ » التي تتيح لنا ، رمزياً ، لا « تعريفَ الله » (كما يُحددُ المفهومُ الموضوعَ) بل الإشارةَ إليه » و « إن الإعلان عن تسامي الله (تنزيهه) فقط ، هو تجريدُهُ في وحدتهِ » والإعلانَ عن شموليته ، فقط ، هو أشراكُ شيء مَعَهُ . ولكن إذا أكَّدْتَ وجهتي النظر معاً فأنت بمأمنٍ من الخطأ . (ابن عربي فصوص الحكم) .

النفيُ والرمزُ هما الطريقان الوحيدان للدُّنُوِّ من اللّه ، في تسامي وحدته ومثولية « آياته » . وَحْدَهُ هذا التعليل « المتعاكس » عن الله يُتيحُ للمرء أن يكون في حياته انساناً كاملاً» ، كما يسميه عبد القادر الجيلي[٢٦٩] (١٣٦٥ ـ ١٤٢٨) تلميذ ابن عربي ، لأن كل الحقائق المتناقضة تتحد ، بالنسبة له ، في الحقيقة . واللهُ هو الكُلُّ ، وفي ذات الوقت ، فوق الكُل ، إنه ماثلٌ وسامٍ . « والإنسانُ الكاملُ » ليس فقط ، الانسانيةَ في كلية تاريخها وأجناسها وثقافاتها ـ كقصيدة واحدة ، وملحمة واحدة ، ورجلٍ واحد ، كان النبي محمدٌ التعبيرَ الأرفعَ عنها ـ بل هو « عالمٌ صغيرٌ ينطوي على جميع درجاتِ الوجود ، وصورةُ الوحدةِ الالٰهيةِ :

« إعلم أن الانسان الكامل يحمل في ذاته توافقاً مع جميع حقائق الوجود ، إنه يتوافق بطبيعته الروحية اللطيفة مع الحقائق السامية ،

---

(٢٦٩) عبد القادر الجيلي : من أشهر صوفيي عصره . أسس الطريقة القادرية .

ومع الحقائق الدنيا بطبيعته المادية الكثيفة » . ومن ناحيةٍ أُخرى « لا يوجد في الكون كُله مكانٌ لتجلي الوحدة ، أكملَ منكَ ذاتك ، عندما تغوص في جوهر ذاتك ، وتنسى كل علاقة » .

هل يمكن أن نُصبح هذا « الانسان الكاملَ » بلا تقاليد ولا فقهاء ؟

هذه المسألةُ ـ كانت مسألةَ النصرانية ، ولو أنها طُرِحَتْ عليها بتعابير مختلفة ، فكان تَخَوُّفُ الكنائسِ من المتصوفين ، تُرَّهِياً ، كتخوف فقهاء الشريعةِ من المتصوفين المسلمين . لقد طُرِحَتْ هذه المسألةُ ، بكل حِدَّتها ، من قِبَلِ ابن طفيل (المولود في قادس في مطلع القرن الثاني عشر ، والمتوفي في مراكش سنة ١١٨٥) في رواية (Le fils vivont de vigilant) « حي ابن يقظان » . إنَّ بَطَلَ هذه الملحمة التربوية ، حيٌ المولودُ في جزيرةٍ قاحلةٍ ، من تَخَمُّرِ الطِّين ، أصبحَ « الانسانَ الكاملَ يجمعُ في ذاتهِ الصوفيةَ والفلسفةَ ويبلغ الحقيقةَ العليا بلا تَعَلُّمٍ ولا تقليد . لقد اندمج كلياً بالطبيعةِ ، ساهراً على حفظ نظامها وانسجامها ، واعياً بأنه المسؤولُ عنها . عاش في طاعةِ الله ، دون ان يقادَ بتقليدٍ أو قوانين جماعة . وتَوَصَّلَ الى حل رموزٍ وعلاماتِ التجلي الالٰهي .

وفي ذات يوم التقى برجل آخر يدعى أسال ، الذي ترك المدينةَ وتقاليدَها وشريعتَها ، ليتأمل ، في العزلة ، حَوْلَ معنى الحياة والعالم .

وعندما التقى الرجلان رأى أسالَ يمارس ذات الاحترام للطبيعة وللّهِ الأحدِ ، فأدرك الاثنان ما هو مشتركٌ بينهما : واكتشف أسالُ أن حياً عالمٌ مثله ، وعندما عرض الاسلامَ على رفيقه وجد أن حياً مهيأً

لاحترام العقيدةِ وتطبيقها ، وأنها أي العقيدةُ والتطبيقُ ، قانونُ حياته .

عندئذٍ قرّرَ الرجلان ، العودَة الى المدينة . وقدّم حيٌّ للناس سبيله الى الله ، فاصطدم بالتقليد : والى ذلك كانا محبين للخير ، وعاشقين للحقيقة ، ولكنهما لم يسعيا (. . . .) للحق والى ذلك بالوسيلة المطلوبة » (. . . .) بل بحثا عنه بواسطة **السلطات** . وانتهى حيٌّ إلى الاعتذار ، ووافقهم على الاحتراسِ من كل شيءٍ جديد ، كيلا يُسمَعَ الله إلّا عبرَ التقليدِ . ثم عاد مع أسال الى الجزيرة حيث عبدا الله حتى وافاهما الأجل . هذا الرمزُ عن الجزيرة ، لا علاقة له بقصة (Robinson)[٢٧٠] : لأن روبنسون حمل الى الجزيرة ، فردانيته وبندقيته وإرادته في التسلط على الطبيعة التي عَمَرَهَاْ وعلى جُمعة خادمِه ، الذي كان يخضع لأوامره . وهو ليسَ كذلك « المتوحش الطيب » (Le bon saurage) ولا (Emile) روسو الذي تعلم كُلَّ شيءٍ دون إكراهٍ ولكن ليس بدون تقليد .

إن هذه القصةَ الرمزيةَ المستوحاةَ من ابن سينا تكشف عن فترة تمزقٍ في تاريخ الاسلام :

فهل هذا هو ما كشفه الرسول عنه حين قال :

إنها ليست مطلقاً ديانةٌ جديدةٌ ، بسلطاتها ، ومعتقداتِها وقناعاتِها ورغبتِها في السيطرة ، بل الايمان الاساسي في الوحدةِ وسموِ اللهِ

---

(٢٧٠) **Robinson** : مؤلف يروي فيه مؤلفه Daniel Defoe ، سنة ١٧١٩ ، قصة بحار نجا من الغرق ولجأ إلى جزيرة مقفرة وعاش فيها /٢٨/ سنة . وكان يساعده خادمه الاسود جمعة . ثم عاد إلى بلاده إيقوسيا .

والشريعة التي تنزلُ من عنده ، لكل جماعة إنسانية لا تحصر ذاتها ، فقط ، في حدود إرادة السيطرة والنماء .

وبعد وفاة النبي بقرن واحدٍ ، بدا أن هذا الهدفَ الكبيرِ آيلٌ حتما الى تحقيق جماعة عالميةٍ موحدةٍ بعقيدةٍ واحدة ، تستوعب عقيدة وثقافةَ الجميع ، سواء كانت عقيدة السلسلة الابراهيمية ، من عظام الانبياء موسى ويسوع ومحمد ، أو حكم الهندوس وبوذا والمزديين .

لقد عبر ابن عربي - بوضوح - عن هذا الأمل الانساني ، لما رأي في آدم أولَ نبي ، جعل من النبوءة بُعداً أساسياً للانسان ، فأدرج في كتابه « فصوص الحكم » . (Sagesse des prophètes) كلَّ الذين حملُوا شيئاً جديداً لمستقبل الانسان ورفعوا من شأن الإنسانية .

ثم قال : « أنا لا أتجلَّى لمن يعبدني إلاَّ على صورة مُعتقده » إنه يُذَكِّرُ بأن القرآن يُعَلِّمُ أيضا بأن الأَهَمَّ هو ليس ما يقولُه الإنسانُ عن معتقده بل ما يُكَمِّلُ هذا المعتقد في هذا الانسان .

وقدَّم لالٰهه هذه اللازمة :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورةٍ	فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبان
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ	وألواحُ توراةٍ ومصحف قرآن
أدين بدين الحب مهما توجَّهت	ركائبُه فالحبُ ديني وايماني

إن هذا الانفتاحَ على العالم وهذا الرجوعَ الى ينابيع كل الديانات التي كان كل منها مرحلةً من الملحمة الانسانية ، ومن خَلْقِ الله المستمر للانسان الذي يحيا فيه ، جعلا من الاسلام أكبر قوةٍ للتكامل الروحي .

إن قصة ابن طفيل الدالةَ على وحدة الفلسفة والتصوفَ والفكرَ

والحياةَ بكليتها ، والعلمَ والإيمانَ ، أعادت إلى الفلسفةِ ، في وعي العلاقات وخلقها بين الانسان والطبيعة والله ، كُلَّ الأبعادِ التي فقدتها في الغرب ، منذ ستةَ عشر قرناً ، ومنذُ هرقليط وأمبيدو كل بعده .

وقد تَطَلَّبَ انتزاعُ هذه الفلسفة من مدرسيَّةِ أرسطو والأغارقة ، الخانقةِ ، أربعة قرون من الكندي الى الفارابي ، ومن ابن سينا الى السهروردي - حتى أصبحت إسلاميةً بالفعل : أيْ فلسفة تنبئية .

إن هذا النَفَسَ التنبئي أخذ يوقظ الغربَ ، من Joachin de Flore الكالابري ، الى Maite Eckhart التورنجي[271] وMystique Rfénans[272] المتصوفين الرينانيين . وبدأ الرفض الكبير والجزر الكبير .

إن الجزر الكبير مرتبطٌ بأسباب خارجية : إن منارتي الاشعاع الاسلامي ، بغداد في الشرق ، وقرطبة في الغرب ، أطْفِئتا بفعل الغزاة : ففي سنة ١٢٥٨ استولى المغول على بغداد ، وفي سنة ١٢٣٦ استولى ملوكُ قشتالة على قرطبة ، وقضي على هذا الاشعاع .

ولكن السبب الداخلي لانحسار الفلسفةِ وجميعِ ميادين الثقافةِ الاسلامية ، كان الرفض المعاكس ، للتفتح الخلاق .

ففيما يتعلق بالفلسفةِ ، أُكْرِه ابنُ طفيل على الهجرة للمغرب ، وأُعدم السهروردي بتهمة الهرطقة .

---

(٢٧١) التورنجي : نسبة إلى تورنج مقاطعة من المانيا الديمقراطية .

(٢٧٢) الرينانيين : نسبة لرينانيا ، مقاطعة المانية .

وبلّغ أحدُ الفقهاء التماميين عن ابن عربي ، فَسُجِنَ في القاهرة سنة ١٢٠٦ ، ونجا من الموت بصعوبة ، ثم وقع الحَظْرُ على مؤلفاته باسم المحافظة على الدين القويم . وَشَلَّتِ المطفأةُ العَقَدِيةُ الفلسفةَ النبويةَ في أوج انطلاقتها .

ولم يُحافِظْ على فلسفةِ الفعل ضِدَّ فلسفةِ الوجود ، إلَّا بلادُ فارس في عصر النهضة الصفوية ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر وبخاصة ، المُلاَّ صدر الشيرازي(*) (١٥٧٢ ـ ١٦٤٠) الذي أيَّدَ فلسفةَ الفعل ، فلسفة السهروردي وابن عربي التنبئية ، ضدَّ فلسفةِ الوجود .

وعلى الرغم من الذين أرادوا تحنيط الله وكتابَهُ في تابوت من خشب الارز عَلَّمَنَا ابن عربي ، قمةُ الفكر الاسلامي ، توحيدَ فعل الله .

إن حفاري قبور الله والانسان لم يتواروا ، منذئذٍ لا في الشرق ولا في الغرب : فقبلِ اللاهوتيين الوضعيين بقرن ونصف ، أعلن Fuerboch(٢٧٣) موتَ الله ، وقبل قرنين من الترجمات البنيوية الجديدة او التوجيهية لكتابه أجهز La Mettrie (لامتّري) « على الانسان » .

إن فلسفاتنا التي أصبحت فلسفاتِ موتِ الإنسان والالٰه ، سَتَسْتَأْنِفُ ـ ضد كل التماميين والتكنوقراطيين (المتصلين فيما بينهم

---

* هو محمد صدر الدين الشيرازي المتوفى سنة ١٦٤٠ ، صاحب كتاب الحكمة المتعالية في المسائل الربوبية المسمى « بالأسفار الأربعة » عالج فيه بطريقة فلسفية مبتكرة مشاكل الكون العظمى .

(٢٧٣) **Feuerbach** : فيلسوف الماني (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢) .

بدءاً من شبه الجزيرةِ العربية الى شبه الجزيرة الأُوروبية من آسيا) ـ تاريخَها الحقيقي انطلاقاً من تراث ابن عربي .

ان بعث هـذه الفلسفـات لن يكـون إلاَّ انـطلاقـاً من التـراث الاسلامي ، وسيكون هذا البعثُ إحدى أكبر ثرواتِ هذا التراث . وستكون فلسفاتنا تنبئيةً أو لا تكون .

كل الفنون تفضي الى المسجد
والمسجد الى الصلاة

إن الفنَ الاسلامي وإسهامَهُ الكبير في الفن العـالمي ، والمشاركـة الكبرى التي يُمْكِنُ أن يُقَدِّمها لبناء مستقبل العالم المشتـرك ، لا يمكن أن يفهم ـ كالعلم ، والحياة الاجتماعية ، أو الفلسفة ـ إلا انطلاقا من مبدئه المنظمْ : الذي هو العقيدةَ الاسـلامية . لقـد كانت ، دائـما ، رخيصةً ، محاولاتُ شرح الكُلِّ بالاستَنادِ الى عناصره ، وأرخصَ منها أيضاً كانت **محاولاتُ شرح الكل بالاستناد الى أحد هذه العناصر .**

وكم بَذَلَ « المتخصصون » من جهود ، لإرجاع الفن الاسـلامي الى أحد « المؤثرات » التي « طرأت عليه » .

وسنـرى في حقـل الفن الاسـلامي ، كـما رأينـا في حقـل العلوم والفلسفة ، كيف يُصر الغربيون على إنكار الجـدة النوعيـة في الفن الاسلامي : إنهم يؤكدون ـ في أحدث وأفخر المنشـورات التي تحمل تحليلات قيمةً عن تفاصيل الفن الاسلامي ـ على أن العامل المُحَـرِّكَ لهـذا الفن ، ليس المسجـدَ وفَنَّ عمـارتـه بـل الـرسمَ والتصـويـرَ ، ويضيفون بأن منمنماته تعتمد ، على الجمالية الافلاطونية ، وأن فنَّ عمارته مستقىً من الفن البيـزنطي الـذي يرجـع بدوره الى المصـدر

الإغريقي وحده ، وأن آسيا والاسلام ليسا سوى زوائدَ فطريةٍ على الهلينية ، فإلى هؤلاء وأمثالهم نقول بلباقةٍ لا متناهية ، وعلمٍ ، إن محاولتكم هذه مضحكةَ مثلما هو مضحكٌ كتاب (الوجيز في السياسة الاسلامية) الذي هو نوعٌ من تعليمٍ دينيٍ وَضَعَهُ مستعمرٌ نموذجي وَجَدْتُهُ سنة ١٩٤٥ في جميع مكتبات الجزائر ، وقرأت فيه هذا « التعريف » :

« إن العلم العربي الميتَ والمهجورَ عبارةٌ عن منتخباتِ مؤلفين أغارقة ، دَوَّنها اليهود في العصر الوسيط » .

إن لِمِثْلِ هذه العمليات المُقللةِ من شأن العلم العربي ، قاسماً مشتركاً هو جُحودُ كل ذاتيةٍ وكلِ مستقبلٍ للحضارة الاسلامية .

إن هذه المحاولة نفسها هي التي دفعت مستشرقاً « أسبانياً للقول « بأن الرجل الاسباني هو حصيلةُ نضالِ عدة قرون ضد الاسلام » كأن الثقافة الاسلامية لم تكن أحد أعظم مُكونات الثقافة الاسبانية ، أو انها كانت جسماً غريباً عنها ، وكما لو أن إشعاع الجامعة الاسلامية في قرطبة أو الفن الفردوسي في الحمراء لا يستدعيان سوى ردة فعلٍ رافضةٍ هزيلةٍ . وهي التي دفعت آخر لإرجاع كل الفن الاسلامي إلى فن الرومان والويزيقيوط ، واعتبارِ المبادىء المعمارية في الحمراء وجامع قرطبة الكبير ـ على الرغم من اعترافه بفخامته ـ مستوحاةً من الهرطقة الأريوسية . كما دفعت آخر الى القول بأن الفنون الاسلامية ليست سوى امتدادٍ لتراث فارس الساسانية . ولو أردت الاسترسال في هذا التعداد المؤسف لطال بي المجال .

وعلى الرغم من إعجابهم بهذا الفن ، فإن المُهم عندهم هو عدمُ الاعتراف (انكار) بالذاتية العربية الاسلامية ، وبخاصةٍ محوُ ـ ما

أمكن ـ من الاسهام الاسلامي الخاص في بناء الحضارة العالمية .

إن نظرةً ، ولو سطحيةً ، على شواهد الفن الاسلامي في العالم تكشف لنا عن أصالتها وَجِدَّتها العميقة ، وتُشْعرنا بأن ذات التجربة الروحية ، تحيا في أي مبنىً فنيٍ أيا كان مكانه الجغرافي أو غايته .

فمن الجامع الكبير في قرطبة ، الى الجوامع الصغيرة في تلمسان والقرويين وفاس وطولون في القاهرة ، والجوامع الضخمة في اسطنبول ، والبصلات الفردوسية في مساجد أصفهان أو منارة سامراء الحلزونية الساذجة ، وضريح تيمورلنك في سمرقند ، وقبر تاج محل الزاهر في الهند ، ومن قصور الحمراء في غرناطة ، الى قصري علي (Chehel Shutun, Kapon)(*) في أَصفهان، تَلَّد لدي شعورٌ دائم، بأن رجلاً واحداً قد بناها جميعها تلبيةً لنداء آله واحد .

إن الفن الاسلامي يُعبِّر عن رؤ يا الاسلام للعالم ، هذه الرؤ يا تَحْكُمُ مصيرَه (أي مصير الفن) ومواضيعَه وتقنياته ومُعْجَمَه التشكيلي .

إن الفنون في الاسلام ، كما يقال ، تُفضي الى المسجد والمسجد يفضي الى الصلاة .

والمسجد هو دعاءُ الحجز ومركز إشعاع كل نشاطات الجماعة المسلمة ، ونقطة تلاقي جميع الفنون .

إن بنيته الاساسية تُذَكِّر ببيت النبي : ساحةٌ يَطَّهر فيها الانسانُ بالوضوء ورواقٌ يحتمي فيه من الشمس ومشكاةٌ صغيرةٌ فارغةٌ ـ

---

* Tchihil Sutun .

محراب ـ تَدُلُّ المؤمنين على اتجاه الكعبة .

إن محور كل مسجدٍ يتجه نحـو الكعبة ، وإن حـائطه الـرئيسي (القبلي) هو الذي يصطف ، قبالته المؤمنون للصلاة .

إنـه قطعـةٌ من احـدى الـدوائـر التي تحيط بـالكعبـة ، بمـداراتٍ متراكزةٍ ، حتى أقصى حدود العالم . وإن تَـوَجُّه المسجـد هذا يُعَـيِّنُ مركَز الكون ويُجَسِّدُ وحدة الأمة الاسلامية في العالم .

وإن بنيته (أي بنية المسجـد) تتطابق مـع وظيفته : إنـه لا يشبه الكنيسة النصرانية ، ولا المعبد الاغريقي ، لأنه لا يصلح أن يكـون مـذخراً تُحْفَظُ فيـه رفاتُ القـديسين (والكعبـة مكعب من الحجر لا تحتوي على شيء) ولا مكاناً لاحتفال طقسي . إنه على عكس المعبد الاغريقي ، أو الكنيسة النصرانية المستطيلة الشكل ، يتسـع عرضـاً ليتيح ـ لأكبر عددٍ من المؤمنين ـ مواجهة القبلة والمحراب .

إن الفراغَ هو طابعُ الفن الاسلامي : إن المحرابَ لا يحتوي على أي نَصَبٍ أو أية صورة ، فقط ، بل إن فراغه هذا ، بحد ذاته يشير الى الله : فالله موجودٌ في كل مكان ولكنه خفيٌّ في كل مكان . وإن الادعاء بتجسيمه أو حصره في أي موضعٍ رجسٌ وشرك .

وهنـا يكمن السببُ الأسـاسي في استبعـاد الصـورةِ عن الفن الديني :

وأما الدياناتُ الأخرى فهي على العكس ، تخلقُ « نُـوى » حقيقةٍ أكثفَ تجعلُ غيرَ المرئي مرئياً ، سواءُ كانت قناعَ افريقي يُرَكِّزُ به قوىً خارقةً أو كانت أيقونةً أو صليبا .

إن أي نص قرآني ، لا يحظر الصور ، ولكن التشريع الاساسي في الاسلام ، يفرض على المؤمن ألاَّ يَصرِفَ تأمُّلَهُ عن الوحدة الالٰهية كما يفرض عليه أن ينعتق من مظاهر العالم وإغراءاته الوثنية ، بقصد إعادة النفس الى الواحد الذي يتجاوز كل حقيقةٍ جزئية .

ولا يمكن التعبيرُ عن مبدء التوحيد الصارم المحكم ـ بعد استبعاد أي تصوير مادي ، إلاَّ باللجوء الى ما يُشعرنا بوجود نظامٍ رياضي وعقلاني ، متناسق وموسيقيٍ في وقتٍ واحد . وإذن فان الزخارف الممكنةَ في الاسلام ـ هي فقطُ الرسومُ الهندسيةُ التي يعادل تكرارها الساحرُ ، بالنسبة للمسلم ، ترتيلَ « صلاة يسوع » التي تُعاد وتُبدي ـ الى ما لا نهاية ـ باسم الله وحده ، في أديرة النصرانية الشرقية . وإن تشابُكَ الأشكال السداسية ، الى ما لا نهاية ، والإنحناءات والزوايا المتساوية الأضلاع المتقابلة بروؤسها ، ترمز الى انتشار وانقباض (Inspiretexpir) الله ، ونفحتهِ التي قال عنها القرآن : « ولله ما في السموات وما في الأرض ، الى الله ترجع الامور » . (سورة آل عمران ، آية ١٠٩) .

ان التذكيرَ بالتوحيد ، في تنوع وتكرار ذات النموذج تُعَبِّرُ عن نفسها في هوابطِ تلك البلورات المرمرية ذاتِ الاشكال المتعددةِ ، في قبة المحراب في مساجد تلمسان ، أو في القبة كلها ، كما في صالة بني سراج ، أو صالة الأختين في حمراء غرناطة .

إن الضياء يلعب فيها ، وينحرف ، ويتدرَّج الى ما لا نهايةَ ، أو يسطع بألف شمسٍ على بصلات الخزف اللازوردي في مساجد اصفهان ، فيتغير لونها (أي لون البصلات) في كل ساعة من ساعات النهار ، كأنها تُنَغِّمُ نشيداً للنور لأن « الله نور السموات

والأرض » مثلُ نوره كمشكاةٍ فيها مصباح المصباح في زجاجةِ الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دري يُوقد من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » (سورة النور ، آية ٣٥) .

وهكذا فإن ثرياتٍ زجاجيةً كبيرةً أو مصابيحَ نحاسيةً صغيرةً ذاتُ زجاجات متعددةِ الالوان تُرَصِّعُ المساجدَ ، حيث تَنْضَمُّ الشمسُ اليها عبر قُبَيَّاتِ (فوانيس) قِبابِ الفسيفساء أو الخزف المُذَهَّبِ ، أو هوابط رماديةٍ مخمليةٍ ، غنيةٍ بجميع درجات الالوان الرائعة كتلك التي في عنق الحمامة .

في هذا النور الذي يُذَكِّرُ بعالَمٍ آخر وراء عالمنا ويشعُّ فيه ، تمتدُّ على الجدران « عربساتٌ » (Arabesques) أو مقوساتٌ وتتشابكُ سعيفياتٌ هندسيةٌ مع اغصانٍ مورقةٍ منمنةٍ حتى التجريد ، أو آياتٌ قرآنيةٌ أو قصائد . لأن الخط هو ، مع رسوم العربسة الهندسية ، الوسيلةُ الثالثةُ للتذكير بالحضور الالهي . وإن كلام الله المنقوش على شكل كتابةٍ « كوفية » تحكُمُها الزوايا القائمةُ ـ يعزِّز الميزةَ الهائلةَ للفن المعماري ، أو المنقوشَ على شكلٍ كتابة « نسخيةٍ » سريعة هو ، مباشرةً ، دعوةٌ للإيمان . إن تسلسل الاشكال الكوفية المستقيمة أو تشابكَ المنحنياتِ النسخيةِ المتناسقةِ هو عبارةٌ عن نوعٍ من نابضٍ يقذف بنا الى اللانهاية ، إنَّ هذه النصوص ـ محفورةً أو بارزةً ـ لا تظهر كشكلٍ على ارضيةٍ بل كانسياب حركةٍ تنتشر في الفضاء وتَشُدُّ أبصارنا وأجسامنا اليها ، فننسى ذاتنا ، ونَنساب معها كما لو كنا نؤدي معاً رقصةً مقدسة .

إن لجميع عناصر الفن المعماري الاسلامي وظيفةً رمزيةً تحكم بنيتها :

إن القباب المتلألئةَ ، في الخارج ، على ضوء الشمس ، تحجب عن الناظر اليها من الداخل قبةَ السماء ، وتسلمه الى تأملٍ مركزٍ عميق .

وإن ايوانات إيران والعراق خاصةً (حيث القوسُ الكبير في القصر الساساني في طيسفون ، يُلهم البنائين على مدى القرون) هي نوعٌ من القباب المقطوعة التي تعرض نفسها للشمس ، وتنشر ، في ذات الوقت ، ظلالَها الواقية على المؤمنين . وإن خطوطها تُشَكِّلُ كل التوافقيات الممكنة ـ من الأقواس الوتدية ، ذات الرشاقة الفارسية الساذجة الى الأقواس ذوات المقاطع أو ذوات القويسات المتعددة ، في المغرب والأندلس . وإن أقواس العَقْدِ المُنار فيها بالذهب الداكن المنبعثِ من الشواهد المرمرية المعلقةِ في سقف جامع الشيخ لطف الله في أصفهان ، تُذَكِّرُ بمضارب تيمورلنك أو ـ كما هو الغالب في المغرب ـ بانحناء سعف النخيل في الواحات ، أو بانحناءات فوارات المياه في باحات دور الاندلس ، أو تَدَفُّقِ الأقواس المُطْبقة فوق بعضها البعض ، والمتقاطعة في معزوفة من ترتيلة الحجر في غابة أعمدة جامع قرطبة .

إن فن الصلاة هذا ، المنقوشَ على حجر ونور المساجد ، لا يعرف حدوداً بين الديني والدنيوي ، إن المدينة تكونت ، عضوياً ، حول المسجد ، كما وُلِدَتِ الأمةُ الاسلامية الجديدة من التسامي المشترك . وإن كلام الإمام الذي يؤم الناس للصلاة ، قبالةَ المحراب ، في المسجد ، هو نفسُه الكلامُ الذي يُرَتِّلُهُ المؤذِّنُ عندما يدعو الى الصلاة

من أعلى المئذنة ، وهكذا ينتقل الكلام الالٰهي من الداخل الى الخارج أو يُـوَحِّدُ ، بـالحري ، الـداخـلَ والخـارجَ ، اللذين ليسـا بـالنسبـة للمسلم ، ـ كـالواحـد والمتعـدد ، الـديني والـدنيـوي ، والتسـامي والجماعة ـ الارؤ يين لذات الوحدة .

وفي خارج المسجد ، تقوم المدرسة بتدريس كلام الله وكل العلوم والفنون التي يحض عليها ويحتويها ويشع فيها . إن بنيتها وعناصـرها الخالية من الزخرفة والمعدة للدعوة الالٰهية ، بالاشكال الرمزية ، هي هي : إنها لا « تنسخ » أو « تقلد » أية حقيقـة منفردة » منفصلةٍ عن الكل (لأن الحقيقة المنفردة المنفصلة عن المجموع أو الـواحد ، هي حقيقـةٌ دنيـويـة لا حقيقـة دينيـة) ، بـل تشـير ، بعيـداً عن هـذه الخصوصية ، والتعددية ، الى الواحد الأحد الذي يُسبغ عليها معناها ودورها كـ « آية » ، وجمالها .

ثم تُفرز هذه العقيدةُ رويداً رويداً ، صَدَفَتَهـا في الحجر وتصبـح المدينة فتنداح حول المسجد حماماتٌ معدةٌ للتطهر التعبدي إلى جانب كونها مكانـاً للنظافـة الجسديـة ، وأسواقٌ تنسـج ـ بنشاطـاتها المـادية والعمل الحرفي وتبادل السلع والافكار ، ـ روابطَ الأمة الطبيعيـة ـ . وحـدائقَ هي ـ من هضبـات إيـران الى هضبـات اسبـانيـا ـ أحـلامُ البدوي ، وسرابُ الواحة الذي أُصبح حقيقةً ، وصورةَ الجنة .

ومن حدائقِ شيراز الفارسية الى الحدائق الاندلسية في جنة العريف في غرناطة نجد ذات الجداول الرقراقة وذاتَ فـوارات المياه ، وذاتَ أشجار السرو ، (إن الفرس اعتادوا أن يقـارنوا جمـال المرأة بجمـال السرو المشوق) وذاتَ الزهور (زهـور حديقـة الزهـور للسعدي) وذات اليـاسمـين (يـاسمـين االعشـاق Yasmin des fidéles)

d'amour) لروزبيهان الشيرازي) وذات العرائش الوستارية .

إن هـذا الولـع بلغ حداً جعـل موضـوعَ الحـديقـة ، في إيـران خاصةً ، أَحَدَ المواضيع المفضلة للرسم على السجاد : إن مستطيلات الجداول المرسومة في الصوف تلتقي في وسط السجادة على حوضٍ أو فسقيـةٍ بفواراتهـا ، وفي الداخـل روضاتٌ متعـددةُ الألـوان منمنمـةُ الورود ، بهذه السجادة ذات الذكـريات السحـرية ، يحمـل البدويُ صـورةَ نائيـةً عن جنته ، حتى الى جحيم العـواصف الرمليـة . **فلا حدود ، هنا أيضا بين الديني والدنيوي :** إن حاشية السجادة هي ، بعامةٍ ، عـربسةٌ أو لـوحةٌ هنـدسيةٌ تتـوسط بين العـالم الالهي والعالم الارضي بتموجاتِ كثبان رمولهِ ، وتموجِ جباله ، أو تدافعِ غيومه .

وبالمقابل ، فإن « سجادةَ الصلاة » الصوفية أو الحريرية ، وقوسها المُذَكِّر بالمسجدِ والذي يُحَدِّدُ المُصـلَّ ، يمكن استخدامُهـا في أغراض أخرى . يقول القرآن :

« والله المشرق والمغرب ، فأينما تـولوا ، فثم وجـه الله ، إن الله واسع عليم » (البقرة ـ آية ١١٥) .

ولذا فإن كلَّ غرضٍ ـ حتى ذلك الأكثر استعمـالاً ، سواء كـان سيفاً أو إبريقاً ، أو طبقاً من نحاس ، سجادةً أو سـرجَ حصـان ، أو منبراً أو محراباً في المسجد ، هو محفورٌ ومرصعٌ ـ أو مطروقٌ ليشهد بأنه « علامةٌ » على وجود الله .

إن انتقـال ذاتِ نماذجِ الهنـدسة والعـربسـة والخط ، وتكـرارَهـا الاتبـاعي ، ينتشر عـلى جميـع المـواد المختلفـة : أي عـلى الحجـر أو الفسيفساء ، والنحاس أو الفـولاذ ، والقماش أو الجلد . إن نـظرةَ

التقـوى ، تجدُ سمـةَ الله حتى في الميادينِ الأكـثرِ ابتعاداً عن المـركز الالٰهي : إنها مـوجودةٌ في مصـورات المؤلفـاتِ العلميـةِ أو الملحمـةِ الانسانية ، كما هو الحال في المزركشات الفارسية أو التركية التي تُزَيِّنُ رسالات الفلاكة مثلا ، أو البوتانيـك ، أو علم الحيوان ، أو كتـاب بحـوث في النجوم الثـابتـة (Le livre des réprésentation, des étoiles fixes) في القـرن العاشـر ، ومشاهـد الحياة اليـوميـة مثـل كتـاب ، مقامـات الحـريـري (Séances de Harire) ، في القـرن الثـالث عشـر ، أو فصـولٍ من التـاريـخ الخـرافي لشعب مـا مثـل « الشاهنامة » (Le Livre des rois) ، للفردوسي في القرن الحادي عشر .

إن هذه الجمالية لا تعتبر مطلقاً ، سلبياتٍ أو حيلاً « للالتفاف على محـرمات القـرآن أو الحديث » بـل تعبيراً عن رؤ يـا عالَمٍ نـابعـةٍ من العقيدة الاسلامية الأساسية .

واذا بدت الصخورُ في بعض الأحيان ، طاغيةً متدفقةً كالامواج ، فذلك لأن القـرآن ـ وهو يعلمنـا أن ننظر الى الأمـور من وجهة نـظر الأبدي ، وأن نقيس بمقياسه ، التغيرات والحركات الممكنـةِ الإدراكِ في فترة حياة إنسان ـ يدعونا الى الشك في رسوخ الجبال » . ألم نتعلم من الجيولوجيا بأننا لو قَلَّصنـا ، لبعض ثوانٍ ، مـلايين السنـين التي تعرجت وانحرفت خلالها القشرةُ الأرضيةُ ، فإن سلاسل الجبال تقفز وتتلاشى مثل أمواج المحيط ؟ وإذا لم يكن للاشخاص ، والاشجار أو البيوت ، في منمنمات الاسلام بروز ولا ظل فذلك لأن لعمق الفضاء والاشياء معنىً بالنسبة لنظرنا المحدود والجـزئي كأفـراد مجزئـين ، في حين أن لا معنى له (لهذا العمق) من وجهة نظر الإِ ، ليست مظاهرُهُ

المرئيةُ سوى « رؤى وتجليات » . وإذا بدت لنا الألوان كيفية ، كما لو كان لونُ الجمل وردياً ولون الأوراق أزرق ، فذلك لأن الالوانَ الطبيعيةَ ، تتناسب مع إيقاع الايام والليالي وارتفاع الشمس وأنظارنا المادية ، غير أن نور وحرارة الاشياء في أبديتها يأتيان من داخلها ذاتها ، (كما هو الحال في زجاجيات كاتدرائياتنا) وإن عالم التلوين الذي يجهد في استدعاء الواقع « في ذاته » لا « بالنسبة لنا » يعرض علينا العالم ، لا في نور الشمس وعيوننا بل في النور الالٰهي .

ولا جامع بين العالم الذي يجهد الرسامُ المسلمُ ، في إعطاء رؤ يا الٰهيةٍ عنه ، وبين عالم الرسم التجريدي الغربي .

إن التجريد الذي دخل علينا منذ ثلاثة ارباع القرن بواسطة (Mondrian)*** ، (Kandinsky)** ، (Delaunay)* ،
ولو انه يتجه الى إعادة إدخال «الروحاني في الفن» (مثل كوندانسكي أو موندريان ويستلهم ، قبل هذه التجربة ، ـ من (Manet)**** الى (Gaugain)***** ـمن الرسوم غير الغربية (من الطبعات اليابانية ، أو جداريات فراعنة مصر مع (Klee)****** و (Matisse)* اللذين أخذا ـ

---

* Delaunay : رسام فرنسي (١٨٨٥ ـ ١٩٤١) طور الرسم التكعيبي .

* * Kandinsky : رسام فرنسي من أصل روسي (١٨٦٦ ـ ١٩٤٤) .

* * *Mondrian : رسام نيرلندي (١٨٧٢ ـ ١٩٤٤) . تكعيبي ، تحليلي .

* * * * Manet : رسام فرنسي ، أحد آباء الانطباعية (١٨٣٢ ـ ١٨٨٣) .

* * * * * Ganguin : رسام فرنسي (١٨٤٨ ـ ١٩٠٣) .

* * * * * * Klee : رسام الماني (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠) فنه مزيج من التجريد والسريالية .

* Matisse : رسام فرنسي (١٨٦٩ ـ ١٩٥٤) .

قصداً عن الفن الاسلامي الذي عَرَفَاْ رسومه ، في معرض ميونخ سنة ١٩١٠ ، ووجدا فيه تأييداً التأملاتهم التشكيلية فليس لدى الرسم الغربي - الذي حاد عن « التقليد » ذات منهج « الفن الاسلامي » .

إن المقصود من الفن في الغرب هو تارةً الهروبُ (أي الحيدةُ عن عالم الواقع بلا روح ، وفقاً لقول احدهم) ، كي لا نرى سوى أشكالٍ وألوانٍ مُجَمَّعةٍ بنظامٍ مُعَيَّنٍ ، كما قال السيد (M. Denis) ، وطوراً إسقاطُ عالمٍ داخليٍ عميقِ الفردانيةِ ، وآخر إدراكُ الواقعِ ، على مستوىً مُعَيَّنٍ من العُمق .

إن أيا من هذه الهموم لا يراود الرَسَّام المسلم : فليس المقصودُ عنده الهروبَ من الواقع بل - على العكس - الاشارة الى الواقع الوحيد الحقيقي المتعال ، وليس إسقاطاً فردانياً لأن حقيقةَ الواحدِ لا تُعاش إلا في الجماعة ، ولا الوصولَ الى « مستوىً » من الواقعِ ، بل استدعاءُ الواقعِ الوحيدِ الذي لا يمكن « الوصولُ اليه » اعتماداً على الادراك الحسي العادي . إن المقصود في الفن الاسلامي - المتعاكسِ جذرياً مع الفن الغربي - هو الشهادةُ على وجود الله .

إن توحيدَ الالهام الديني وجماليةَ الاسلوب والتقنيات التي تبعث الحياةَ في هذا الفن هي التي تصنع سحره .

ان سحرَ الطلسم يَبْطُلُ عندما يقحم فيه عاملٌ غريبٌ عنه : لدينا مثلان صارخان على ذلك أحدُهما مسجدُ قرطبة ، الذي شوَّهه (Charles Quint)* عندما حول سنة ١٥٢٦ قسماً منه الى كنيسة ،

* شارل الخامس (١٥٠٠ - ١٥٥٨) ملك أسبانيا من ١٥١٦ حتى ١٥٥٦ .

والثاني قصرُ الحمراء في غرناطة الذي بنى فيه شارل الفظ نفسه ، قصراً معتماً مفرط الغلاظةِ تُذَكِّرُ ساحتُه المركزيةُ ـ بأعمدتها الرمادية ـ بقفصٍ دائري يصلح لعراك المصارعين الكبار وسط حدائق وقصور الحمراء الرشيقة .

ان الحمراء ليست سوى آخرِ رَكْزةٍ من الفن الاسلامي الأندلسي ، ولكن « النعمةَ » لا تزال فيه بمعناها المزدوج : الحضور الالهي والأناقة الفائقة .

إن وجودَ الأله ليس فقط في هذه اللازمة : لا غالب الا الله ، المكررة بخطوطٍ من ألف لون ، بل هو في استدعاء الجنةِ الدائم ، بمجموعةِ الأشكال الرمزية اللامتناهية التي تُعَبِّرُ بها ايقاعاتُ الكونِ الاساسيةُ عن نفسها .

إن كل قبةٍ من قباب البصلات الكبرى ، ذواتِ التقنيات المختلفة ، رمزٌ كونيٌ لمدينةٍ سماوية . ففي صالة الاختين ، تُفَجِّرُ الهوابطُ الرماديةُ ، النورَ ، الى شررٍ لا متناهٍ ، تحت سماءٍ مفرقعٍ بالنجوم . وفي ساحة الريحان (Myrthes) ترتجف الاعمدةُ النحيلةُ في ماء الحوض الذي يتوسطها ، ويُرسلُ بريقَ مائهِ الى غُصيناتِ الجُدران ، فيخيل اليه بأن الواقع قد ازدوج في جمال الحجر الابدي ، وجمال النور العابر .

وفي ساحةِ الأسودِ الفارغةِ، التي هي نقيض الـ (Parthenon)(*) يُطَوِّقُ الحَجَرُ فضاء الساحةِ المفتوحَ الذي يَقُومُ على حديقةٍ شبيهةٍ

* Parthénon : معبد اغريقي في أثينا ، بين زمن بركليس ، في القرن الخامس قبل الميلاد .

بسجادةٍ فارسية تقطعها « أنهُرُ الجَنةِ الاربعة » المذكـورةُ في الإنجيل » والقرآن .

وصفوفُ الاعمدة التي تَدعم سقوف الأروقة الجانبيـة ، تُؤَمِّنُ ـ بتخريماتها الحجريةِ الرائعةِ ـ الانتقالَ من الشمس الى الظل بتجويقٍ ضوئيٍ متدرجِ الخفوتِ . فلا شيء هُنا يَظْهَرُ تماماً ، كما هو ، بفعلِ توافقيات النورِ والظلِ : لقد حُمِلنا هنا الى فضاءٍ آخر وزمانٍ آخر، وضَعَتْنَا بُنْيَتُهُ وإيقاعهُ في تسـاوقٍ مع عـالمٍ آخر وحيـاةٍ أخرى أميـز وأرفع .

إن مثل هذا الفن المعماري ، كما يقول (Oleg Grabar) هو نقلةٌ بصريةٌ لرؤ يا الكون في العقيدة الاسلامية .

وعلى هذه القصيدة الحجرية ، تنتشر ، بعامةٍ وبحروف نسخية ، قصيدةٌ كتبها شـاعرُ البـلاط ابن زمرك (١٣٢٣ ـ ١٣٩٣) الـذي لم تَسْتَطِعْ مدائحُهُ المفرطةُ ، والمغاليةُ ، للأمير الحاكِم ان تُنْسِيَنَاْ روعـةَ القصائدِ المضافةِ ـ الى روعةِ الحجر . انـه (أي ابن زمرك) يَـذْكُرُ ـ بتكلفٍ ـ في قصيـدتهِ ، إن الحمـراءَ زوجةٌ فتيـةٌ لشيـخ مُسِنٍ أبيض الرأس ، هو جبلٍ (Sierra Nevada) الذي يلوح في الأفق ، مُكَلَّل الرأس ، بثلوجٍ أبدية ، فيقول :

« ان السبيكـة (Sabika)* تاجٌ ، مـرصعٌ بـالنجوم ، على رأس غرناطـة . وإن الحمراء** يـاقوتـةٌ على قمته » . ولـدى رؤ ية هـذه الأعمدة « المزدانةِ بالضياء » وتلك الروضات التي تبدو وكـأنها تمد ،

* هي رابية خلف غرناطة .

* * قصر الحمراء الشهير .

بورودها ذوات البُقع الفاتحةِ ، مرآةً للنجوم على ضوء القمر ، ورؤ ية
هذا التأرجح المبهم بين الواقع ، ومظاهره وتَجَلِّيهِ، ينتاب الـزائرَ ـ
حتى ولو لم يستطع قـراءةَ وفهمَ هذه القصـائد ،أولم يكن شـريكاً في
العقيدةِ التي تُعطيها معنىً ـ ينتابُهُ شعورٌ بأنه أُصبحَ أسيرَ سحرٍ محبب
وضعَ الحمراء بين العالمين ، سابحةً في الهواء ، بـين الأرض والسماء
لتنقل الينا رسالةَ الفن الإسلامي الرفيع : رسالةَ الايمان بوحدةِ عالمٍ
لا تُمكنُ فيه قراءةُ العالم غير المرئي الا « بآيات » العالم المرئي ، دون
أن ، يُختزل فيه .

القصيدة المبشرة

ان الأَدب الاسلامي الذي كان يشكل الشعرُ الجزءَ الاساسيً منه ـ حتى القرن العشرين ـ هو في جوهره بالذات شعرٌ تنبئي ، قرآني .

والذي يهمنا هنا ، ليس تاريخ هذا الادب ، بل معناه ، وما لا ينفك يُتحفنا به ، منذ اكثر من عشرة قرون ، وما سيأتي به ، في إزهاراته الجديدة ، من أجل صنع المستقبل في القرن العشرين .

ولا شك أننا نجد في شعر المعلقات الجاهلي ـ شعر بدو الجزيرة العربية حتى القرن السابع ـ قبل تدوينه في العصر الاسلامي ـ مواضيعَ ولغةَ الشعر الاسلامي الذي جاء بعده : قصائد الحب ، وحياة الجماعة القبلية ، وفخرها البطولي ، وشعر البداوة ، وجدلية الصحراء والسماء الثابتين وتَنَقُّلَ البدوي وترحالَه الدائمين .

ثم أُصبحت هذه الجدليةُ ـ بعد نقلته الدينية ـ جدلية الوحدة الالٰهية الأبدية مع لا نهائية تعدد « الآيات » التي تعبر ، بها ، هذه الوحدةُ عن ذاتها في الطبيعة والتاريخ وفي داخلية الإنسان وفي كلامه .

ان الاسلام الذي يحمل « بذور تغيير جذري على المستوى الإنساني » ، مَنَحَ الشعرَ الايمانَ التنبئي الذي ما زال يُلهمه حتى أصبح التيارَ السائدَ فيه .

واليوم ، ينتقل ذاتُ المعنى التنبئي ، الى الشعر العربي الاسلامي المدهش ، على مستوى عصرنا وكروبه وآماله .

ولا شك ، أنه كان هناك مصادرُ أُخرى للالهام : فمنذ العصر الذهبي للدولة العباسية ، تَغَنّى أبو نواس (٧٠٧ ـ ٨١٥) أحد اكبر الشعراء العرب ، بمباهج حياته في بلاط بغداد الزاهي ، الذي كان هو فيه الحلية (الزينة) والفضيحة : إن هذه المباهج كانت في الخمر ونشوته والحب ، حب الغلمان على وجه الخصوص ، وحب النساء والصيد واللهو . إن هذا الـ (François Villon)[٢٧٤] الشرقي ، كان شاذاً عن المنحى العام في الشعر الاسلامي . وكذلك عُمَرُ الخيام ، المتوفي سنة ١١٣٢ ، المعروف جيداً في بلده إيران ، كرياضي أكثر منه شاعراً . إنه كان قريباً من الصوفيين وكان يتأمل في أعمالهم ، ولكنه كان بعيداً عنهم ، بغزله الخمري (لأن النشوة الالٰهية كانت عندهم سكراً مجازياً) أقل من ابتعاده ، بنسكه وتشاؤمه الذي شهره في الغرب ، في القرن التاسع عشر ، بعد أن ترجم له (Edward Fitzgerald) .

انا سيدُ الشاربين الخمور أنا ربُ حاناتها المزهرة
طوال ليالي السهاد الثقيل سأنهلُ من خمرتي الصافية
وأشكو الى الله جرح الفؤاد

(٢٧٤) François Villon : شاعر فرنسي (١٤٣١ ـ ١٤٦٣) .

وكذلك كان الأمر ، بالنسبة لإلهام الفردوسي الملحمي (٩٣٤ - ١٠٢٠) الذي كتب - ناسجاً على منوال سابقيه العديدين ، في « كتاب الملوك » - قصةً اسطوريةً عن إيران ، منذ بداية العالم حتى الفتح العربي ، ولمحاتٍ شاهنامة غنائيةً أو تعليميةً تُعَبِّرُ عن روح شعب بكامله . إنَّ مؤلفه هذا خلب الرومنسيين الفرنسيين : فهذا (Lamartine) [٢٧٥] يرى في كتابه سقوط ملاك (Lachute d'unange) ، رُسْتُمَ في هذه الملحمةِ الشخصيةَ الرئيسيةَ ، ونموذجَ البطلِ الخالدِ ، فيقول : «إنهم أكثرُ من ملوك ، لأن الملوك لا تحكم إلاّ في زمن معين ، بينما هؤلاء الأبطال يحكمون المستقبل » . و (Victor Hugo)[٢٧٦] في كتابه أسطورة القرون (Légende des siècles) يستدعي هو ايضاً ، وباسلوبٍ أسطوري ، عظمةَ وبؤسَ الفردوسي[٢٧٧] ، الذي تتخيل لقاءه في شرقٍ حالم .

وكان معظمُ الشعر الاسلامي - في عصر الشعر الاتباعي الاسلامي ، أي منذ القرن التاسع حتى القرن الخامس عشر - صوفيا ، كما كان القرآنُ مصدرَ هذا الشعر الصوفي . فعلى دعوةِ القرآن القائلةِ : « سنُريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . . . » (سورة فصلت ، آية ٥٣) ، يُجيبُ الصوفي بلسان

---

(٢٧٥) لامارتين : شاعر فرنسي (١٧٩٠ - ١٨٦٩) من مجلة قصائده سقوط ملاك La Chute d'un Ange ويعني ابنته التي توفيت في سن مبكرة وكان عمرها ١٦ سنة .

(٢٧٦) Victor Hugo : كاتب فرنسي ، ولد في نبيرانسون في فرانسا (١٨٠٢ - ١٨٨٥) .

(٢٧٧) الفردوسي : (٩٣٢؟ - ١٠٢٠) من أعظم شعراء الفرس . كتب الشاهنامة . وقضى ٣٦ سنة في تأليفها .

محمود شابستاري* (المتوفي سنة ١٣٢٠) : « أقرأ كُتُبَ الله : كتابَ روحِك وكتابَ السماوات » .

ولا نَجِدُ قَصيدةً اسلاميةً إلاَّ ونسمع فيها صدىً أو ذكراً للقرآن ، بدءاً من الموضوع الأكبر : « فأينما تولوا فثم وجه الله » (سورة البقرة ، آية ١١٥) . « ويُسَبِّحُ الرعد بحمده » (سورة الرعد ، آية ١٣) . « ولله يسبح ما في السماوات والأرض طوعاً وكُرهاً (سورة الرعد آية ١٥) . « ألم تر أنَّ الله يسبح له ما في السماوات وما في الأرض ، والطير صافاتٍ ، كلٌّ قد عَلِمَ صلاتَهُ وتسبيحَه والله عليم بما يفعلون » (سورة النور ، آية ٤١) .

وقال النبي : جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً . واكتشف الشاعرُ الصوفيُ فيها بأنها عبارةٌ عن شعائرِ عبادةٍ كونيةٍ .

إن جلال الدين الرومي[٢٧٨] وهو أكبر شاعرٍ صوفيٍ (١٢٠٧ - ١٢٧٣) (ومؤسسُ جماعةِ « المولوية » الذين يُذَكِّرون بتدويم* رقصِهم دورانَ الكواكب) ، كتب يقول : أرى المياه التي تتفجر من ينبوعها . . . وأغصان الاشجار التي تتمايل تمايل التائبين ، والأوراق التي تصفق كتصفيق الشعراء الموسيقيين الجَوَّالين .

« المعنى » هو الحقيقة الخفيةُ للمظاهر المرئية ، وإن الشاعر الصوفي

---

* هو سعد الدين محمود شبستري (٦٥٠ - ٧٢٠) ولد في شبستر . شاعر ايراني . له « الانسان الكامل » و « مثنوي » غولشتي راز ، بسط فيه بأقل من الف شعر عقيدته الصوفية .

(٢٧٨) جلال الدين الرومي : ولد في بلخ (٦٠٤ هجرية ١٢٠٧ - ١٢٨٣) وتوفي في قونية .

* تدويم : من فعل دَوَّم أي دَارَ .

يرى في المظاهر والاشارات والرموز والتجليات ، رؤىً عن الخفي ، فينشد في مطلع كل قصيدة شهادة أن : « لا اله الا الله » .

وكتب الجامي[279] (١٤١٤ - ١٤٩٢) آخر أكبر الشعراء الاتباعيين : الكونُ هو التعبيرُ الخارجي والمرئي عن الحقيقة ، والواقع هو واقع الكون الداخلي غيرُ المرئيّ » . وإن مهمة الشاعر الأولى هي في هذا البلاغِ التنبئي : نحن مثل الشبابة ، وموسيقانا تأتي منك ، نحن أسودٌ مرسومة على أعلام تتوهج : إن الهامك الخَفِيَّ ينشرنا على العالم » (جلال الدين الرومي) .

والخفيُ لا يُظهر ذاتَه ، بالحواس ، ولا يُعَبَّرُ عن ذاته بالفكر . ولا تُمكن « الدلالةُ » عليه إلا بالشعر ورموزه . والشعرُ ليس حليةَ الإيمان بل لُغَةَ الايمان المحتومة . لذا ترى أن جميع كتب الوحي قصائد . وأن اللاهوت بالمعنى الحقيقي ، الذي يتكلم عن الله ، لا يمكن أن يكون إلا شعرياً ، لأن ما لا يُستطاع وصفهُ لا يُمكن أن تُعَبِّرَ عنه بمفاهيمَ لغوية ولا بأدلةٍ ولا ، بصورةٍ أولى ، بما تراه العين .

« أخفى الله البحرَ وأظهر الزبد . أخفى الريحَ وأظهر الغبار . . .
وهل يمكن للغبار أن يرتفع من تلقاء ذاته .
ومع ذلك فإنك ترى الغبار ولا ترى الريح .
كيف يمكن للزبد أن يتحرك دون البحر ؟ ولكنك ترى الزبد ولا ترى البحر .

---

(٢٧٩) الجامي : عبد الرحمن ، اشتهر بلقب نور الدين ، ولد في دجام ، وهو نقشبندي الطريقة ، أشهر كتبه « نفحات الأنس من حظرات القدس » . (١٤١٤ - ١٤٩٢) ونظم ملحمة «يوسف وزليخا» وأهداها لحسين ميرزا وفيها أخبار ملوك الفرس .

يقيس السحرةُ ، أمام التجار ، أشعةَ القمر ويجزون بالذهب .

إن هـذا العالم ساحـرٌ ونحن التجـار الـذين نشتـري منـه أشعـةَ القمر . . . » (الرومي) .

وقال الجامي بعده بقرون :

من ازل المطلق كَشَفَ المحبوبُ جمالَه ، في وحدته ، غير المرئية

ولم تر الكونَ عينٌ أخرى ، غيرُ عينه ،

كل شيء كان واحداً . . .

وكان فلكُ السماء الفسيح وحركاتُ كواكبه اللانهائيـة ، محصورةً ومخبأةً في نقطةٍ واحدة . والخليقةُ كانت ترتاح ، في غفلة العدم ، مثل ولدٍ يرتاح في أحشاء أمه قبل زفرته الاولى . . . .ورَغبَ المحبـوبُ أن يرى نفسه بمرآةٍ أخرى . . . كما رغب أن تتجلّى كل واحدةٍ من صفاته الازليـة بشكـلٍ مختلف ، فَخَلَقَ الأرض المخضـرة ، من الـزمـان والمكان ، والحديقةَ من العالم الذي يَهَبُ الحياة ، وكلما ظهـر الجمالُ يَصحبُه الحب ، وكلما لمع الجمـالُ في زهرِ خـدٍ ، يُضيء الحبُ ـ من هذا اللهب ـ مِشعلَه .

وكلما سكن الجمـالُ في ضفائـر سوداء يـأتي الحبُ ويصبح القلبُ أسيراً في سلاسلهـا (الجامي) وقد عبر غـوته (Goethe)[٢٨٠] في (Diran Occidental Oriental) في قصيدته « العودة الأبدية » عن هذه الحركة المزدوجة للخلق وتعددية الكون ، انطلاقاً من الواحد ، والعودة بالحب الى الوحدة ، انطلاقاً من أمل الصوفيين فقال :

---

(٢٨٠) غوتة : شاعر الماني . لديه أحاسيس صوفية ـ صاحب مسرحية فاوست الشهيرة . نشر ديوان الغرب والشرق سنة ١٨١٩ . هو أعظم أدباء المانيا (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) .

كان العالَمُ في وحدته الاولى
يرتاح في أبدية الله ،
فخلق الله الزمن ، وهو يقول : ليكن العالم
وانطلقت صرخةُ ألمٍ
لأن الكون انقسم الى حقائق متعددة .
وتألق النورُ ولكن سرعان
ما استولت عليه الظلماتُ وهي مذعورة
فتفككت كلُ العناصر عن بعضها البعض وتفرقت هاربةً
واندفع كل منها مضطرباً، يلاحقُ حلمه الموحش
ويختفي فجأةً ، في الصمتِ بلا رغبة .
كان هذا الكونُ بلا حياةٍ ولا حب
ووجد اللهُ وحدَه لأول مرة
فرأف بهذا القَلَقِ المميت ،
فَخَلَقَ الفجرَ ،
الذي انبثقت عنه مجموعـةُ الألوانِ المتناغمةُ البراقةُ
عندها تَمَكَّنَتِ العناصرُ المفككةُ ، من الاشتياق والتحاب من جديد
وأعادتِ الحياةَ الى الكون ، رعشةُ حبٍ طويلة ،
فأخذت العناصر المتفرقةُ تبحثُ عن بعضها البعض ، واتجه الجـوهرُ
نحو الجوهر .
واتجهت الروح نحو الروح التي تُحبها .
برغبةٍ جامحةٍ لِحَضْنِها والإمساك بها كقطعةٍ ضروريةٍ منها . وفـرغ اللهُ
من خلق الكون
حَمَلْنَا نحن بعدها مَهَمَّةَ خَلْقِهِ .

وعلى هدي هذا القانون الكوني ، يا زليخه[٢٨١]
كنتُ عند الفجر منقاداً نحو شفتيك
وخَتَمَ الليلُ المطرز بالنجوم
اتحادَنا ، بآلافِ أختامهِ الذهبية .
كلانا صورةٌ عن هذا القانون العالمي .
ولذا لا شيء يستطيع أن يُفرِّقنا بعد الآن ،
حتى ولو قيل مرةً أخرى : ليكن العالم .

وعندما كتب أندريه جيد (André Gide)[٢٨٢] ، (الأغذية الأرضية) (Les nourritures terrestres) ووضعها مستلهماً من الشاعر الفارسي ، حافظ (١٣١٩ ـ ١٣٨٩) بدأ كتابه بمُلَخَّصٍ عن الرؤ يا الاسلامية للعالم قال فيه :

لا تطمح يا ناتانائيل الى وجود الله في مكان ما ، بل في كل مكان ،
كلُ مخلوقٍ يدل على الله ، ولكنه لا يستطيع أن يراه ،
ومد تنتهي رؤ يتُنا في أي مخلوق ،فان انتهاءها هذا يعني ابتعادَنا عن الله .

هذا ما ذكره العَطَّارُ[٢٨٣] (١١٤٠ ـ ١٢٣٠) في كتابه : منطق الطير « العالم ليس إلاَّ طلسماً » . . . .

اللهُ هو الكلُ والأشياء التي تستطيع رؤ يتها ليست سوى إشارةٍ إليه وتعبيرٍ عنه .

أعرف ان العالم المرئي والعالم الخفي هو نفسه . ولا يوجد غيره ،

---

(٢٨١) **زليخة** : امرأة فوطيفار زوجة وزير فرعون .

(٢٨٢) **André Gide** : كاتب فرنسي (١٨٦٩ ـ ١٩٥١) .

(٢٨٣) **فريد الدين العطار** : (١١٤٠ ـ ١٢٣٠) صوفي ايراني ، وطبيب له منظومات منطق الطير ، لسان الغيب ، بندنامة .

وهو الوجود كله . ولكن العيون عمياءُ رغم أن العالم مضاءٌ بشمس باهرةٍ . اذا توصلت الى لَمحِه فقدت الحكمةَ ، واذا رأيته فقدت ذاتك .

إن رسالة الشعر الاسلامي هي في توعيتنا على انبثاق الالٰهي في حياتنا الخاصة . واليوم الجديد ، والمساءَ الجديد ، والحديقة الجديدة ، والفخ الجديد ، وفي كل لحظة فكرةٌ جديدة ، وفرحةٌ جديدة ، وثراءٌ جديد (جلال الدين الرومي) .

ان هذه اليقظةَ التي يدعو اليها شعرُ الصوفيين تقتضي التخلي عن الذات الأنانية الصغيرة . قال النبي : « موتوا قبل أن تموتوا » لأن تمجيد الذات ، شركٌ ووثنية .

« وما خلق الله لامرىء من قلبين في جوفٍ واحد » . وليس هناك سوى قلب واحدٍ لِحُب الآخر وحب الله .

ان الموضوعين المرتبطين ارتباطاً وثيقاً واللذين يحكمان ويُلهمان شعراء التصوف : هما الفناءُ والحبُ : يقول هؤلاء الشعراء : ليس بالإمكان اكتشافُ ذاتنا الحقيقية ، قبل أن نتحرر ، أولاً من ذاتنا ، وإن انطفاء الذات (الفناء) هو الشرطُ الأوليُ والثابتُ للمسيرة الروحية ، وان الحُبَ ـ حبَ المحبوب والله ـ هو القوةُ الساميةُ التي تجعل هذا التحرر ممكناً ، وتتيح لنا تجاوز حدود وأنانيات وانقباضات « الأنا » الصغيرة .

قال ابليسُ للصوفي أبي سعيد : « اذا قلتَ ، أنا ، تصبح شبيهاً بي »

وان الحركة المزدوجة المكونةَ من الحب والانسلاخِ من الذات ، التي تُقَرِّبُنَا من كياننا الحقيقي ومن الله تَبْلُغُ في قصيدة (منطق الطيرْ)

لفريد الـدين العطار المتـوفي سنة ١٢٣٠ ، أحَـدَ أرفعِ التعـابيرِ عن الملحمة الصوفية .

إن هـذه الملحمـةَ تُـذَكِّـرُ بكـل مـا قيـل «حـول البحث عن الـ (Groal)*» الكأس السحرية التي جمع فيها يوسف الرمثاوي(٢٨٤) (Joseph L'Arimathie) . دَمَ المسيـح . إن مصدر هـذه القصـة وهـذا البحث أسطورةٌ ايـرانية ، ألـ(Groal) فيهـا هي كأسُ الملك جمشيد .

في هـذه الكأس الأسـطورية تَجَمَّـعَ كلُ ضيـاء العالم ، كـما تَجَمَّع ماضي وحاضرُ ومستقبلُ كلِ تاريـخِ الارضِ والإنسان . وإن دور الفرسان ، بالنسبة لـ (Groal) ، هو البحثُ عن هذه الكأس السرية والإستيـلاء عليها ، لا بـأعمـالهم الحـربيـة فحسب ، بـل بـإيمـانهم وطهارتهم .

لقد ذكر روزبيهان شيراز هذه القصة بقوله : جُبْتُ العالمَ ، بحثاً عن كأس (Groal de gamshid) جمشيد ولم أرتح يومـاً ولم أنم ليلةً واحدة .

ولكني عندما سمعت من المعلم وصفَ هذه الكأس التي تنـطوي

---

* الكأس التي جمع فيها يوسف الرمثاوي دم المسيح بعدما طعن بالحربة الرومانية . ودفن المسيح بمعرفته الخاص في بستان الزيتون .

(٢٨٤) Joseph d'Arimathie النبي يـوسف يهودي اعتـاد بعض المؤلفين الايـرانيـين عـلى التغني بمحادثتها مع يهودي من اورشليم ، أحد أعضاء السنهادريم . والسنهادريم مجلس أعـلى لليهوديـة مركـزه في أورشليم . اسس في اواخر القـرن الثالث قبـل المسيح . وكان معاصراً للمسيح .

على الكون كله ، عَرَفْتُ أن قلبي مشتاق الى كأس جمشيد ، من سنين طويلة : ولكنه كان يحمل في ذاته ما كان يبحث عنه في الخارج .

إن فريد الدين العطار يصف لنا هذه الرحلة نحو الله ، التي يقطعها الانسان مروراً بإنكار الذات ، ويصفها بأسلوب رمزي :

تَجَمَّعَتْ كلُ طيور العالم المعروفةُ وغيرُ المعروفة ، لتذهب وتبحث عن ملكها (Simorgh)(*) الطائر الأسطوري الذي هو رمز الأله . وبعد ألف اختبار وآلام ونكرانٍ للذات وقَطْعِ الأودية السبعة التي هي (وادي الشوق ، والمحبة ، والمعرفة ، والتجرد والوحدة ، والوجد ، وفناء الذات) تصل الى نهاية المطاف فيقول :

وتنقل قبل الإنطلاقِ كثيرٌ من هذه الطيور، لِتَعَلُّقِ كلٍ منها بهوىً خاص، العندليبُ بحب الوردة، والطاووسُ بجمالات الأرض، والبطُّ بحب الماء، والباز بِيَدِ الملك التي تُغَذّيه، ومالكُ الحزين بضفتهِ والمحيطِ اللذين يكفيانه . وأدلى كلُ واحدٍ من هذه الطيور المتنصلة بعذره الواهي ، الذي هو في حقيقته عذرٌ وثنيٌ لأن الوثنية عبادةُ ما ليس كلاً، كما لو كان الكُلَّ. ولكن الهدهدَ المْوجهَ (الذي قاد، كما ورد في القرآن ، مَلِكَةَ سبأ الى الملك سليمان) ذكَّر العصافيرَ المتأهبةَ للسفر ، بالأسرار القديمة قائلاً لها :

إن ثمنَ الوصول الى الحب هو الألمُ ودمُ القلب ، وإن هذا الحبَّ يُحب الاشياء الصعبة ، وأنها رغبت بالقيام بهذه الرحلة ، لأنها تُحِبُّ ، وأن التفكير بسيمورغ سَلَبَها الراحةَ من قلوبها ، وأن حبه الوحيدَ ملأ قلب مائة ألف طائر .

---

* طائر اسطوري كالعنقاء في العربية ، يقال إنه في جبل قاف .

وطارت الطيورُ فأظلمت السماء من انتشار أَجنحتها . كان طريقُها شاقاً وطويلاً ، واقتضت من كل واحدٍ منها أن يُميتَ ذاته : لأَن حب الذات أكبرُ عقبةٍ في سبيل الوصول الى الحب وإن نكران الذات هو سِرُّ البعث والحياةِ الابدية .

فأجابها الهدهد : وهل يمكن ان يموت من كان قلبه مُتحداً بالله ؟

إن قلبي متحدٌ به ، ولذا فإن الزمن والموتَ غيرُ موجودين بالنسبة لي . لآن الموتَ هو انقطاع الزمن ، والزمنُ يُولَدُ من تَعَلُّقِنا بالأشياء التي تموت (العطار) وقَطَعَ الطيورُ وادي الحبِ . . . » في هذا الوادي كانت النارُ تُمَثِّلُ الحبَّ ، ودخانُها هو العقلُ » : وأَخيراًوصَل الى الوادي السابع ثلاثون عصفوراً فقط من بين كل العصافير المسافرة التي كانت تغطي وجْهَ السماء. عاريةٌ، بلا ريش، محطمةَ القلوب، محترقةَ جسداً وروحاً ، كأنها الفحمُ المسحوق . عندها ، وبعد أن بذلت كل شيء ، أُعيدت إليها كُلُ الأشياء .

هناك احترق مائةُ عالَمٍ في لحظة ، وشاهَدَتِ الطيورُ أُلوفَ الشموس وألوفَ الأقمار والنجوم فقالت للحاجب المتغطرس الذي سدَّ في وجهها المعبرَ الأخير :

إن النار قد التهمت أروا حنا ، فأجابها : إذا كنت لا تستطيعين الإتحادَ مع اللهب فلا تضيء حياتك من أجل شيء مستحيل .

فقالت الطيور وهل يُمكن للفراشةِ أن تنجو من النار ، وهي التي رَضِيَتْ بالنار منزلاً ؟

بعد هذه التضحية القُصوى سَمَحَ للعصافير بمشاهدة وجه الملك .

فلما شاهدته سألته أن يكشف لها السر الأعظم وأن يعطيها حلاً لسر تعددية ووحدة الكائنات .

وها هي الثلاثون عصفوراً ، تُشاهِدُ في وجه سيمورغ صورةً عن وجه كلٍ منها ، وجه الملك والاله الذي بحثت عنه .

لم يكن سيمورغ غيرَها كلها مجتمعةً ، وكلُها مجتمعةً كانت واحداً . ولأن الله ليس له مكانٌ إلا فيها كلها ، التي تَبَدَّلَتْ وجوهها بنكران ذواتها وكل شيء فقال لها : إن شمس جلالتي مرآة ، والذي يأتي اليها ، يرى ذاته بكليتها (. . . .) ولو أنكم تغيَّرتم كثيراً ، فأنتم ترون أنفسكم كما كنتم قبلاً ، (. . .) عندما اجتزتم أوديةَ الطريق المُخيفة وعندما تألمتم وكافحتم لتتجردوا من ذواتكم ، وتصلوا الى الكمال ، فأنكم لم تفعلوا كل ذلك إلا بفعلي . أفنوا انفسكم فيَّ بمجدٍ ولذةٍ ، كي تروا ذواتكم فيّ . . . » إن الطيور الثلاثين والـ (Symorgh) لم تكن سوى كائنٍ واحد .

وختم العطارُ : وأفنت الطيورُ ذواتها أخيراً والى الابد ، في السيمورغ ، وضاع الظل في الشمس ، وهذا كل ما في الأمر » . وأضاف : « لَقَدوجَدَ الحجرَ الفلسفي ذلك الذي فَهِمَ منطق الطير » .

هنا نصل الى قمة الرسالة الاسلامية الكبيرة عن الأَحد في المتعدد ، والمتعدد في الأحد ، وعن فناء الذات في سبيل بعث الحياة الأبدية .

وهذه هي رسالةُ السعدي[٢٨٥] (١١٨٤ ـ ١٢٩١) :
أَذكُرُ في ليلةٍ ، لم استطع النوم فيها ،

---

(٢٨٥) شيخ مصلح الدين السعدي : (١١٨٤ ـ ١٢٩١) ولد في شيزار شاعر ايراني . تعلم في بغداد . كان من مريدي عبد القادر الجيلي . صوفي من مؤلفاته « الديوان » .

سمعت الفراشةَ تقول للشمعة :
أحبك ، وأدرك اني سأفنى فيك .
ولكنك لماذا تئنين . ولماذا أذن تحترقين
فأجابتها الشمعة « أيتها المحبة الساخرة » ،
ان العسل صديقي الحلو قد فُصِلَ عني .
وقد بَعُدَتْ عني حلاوته ،
وباتت النار تحرقني كما فعلت بِفَرْهَد(*) العاشق الممزق .
وبينما كانت تتكلمُ ، انتشر على وجهها الشاحب سيلٌ مؤلمٍ من الدموع .
وقالت لي : أيتها المعجبةُ بنفسها ، أنت لا تعرفين شيئاً عن الحب .
ولا تعرفين أن تتألمي أو تصبري ، لأنك تهربين ،
عند أقل لمسةٍ للّهب .
أما أنا فأبقى لأفنى فيه .
وإذا أَحْرَقَتْ نارُ الحب قليلاً من جانحك ،
أنظري ، تَجَرَّئي ، على الأقل ، أن تحترقي بها كلك » .
وقبل أن يُفْرِغَ الليلُ كلَ ساعاته ،
أطفأت امرأةٌ ، الشمعةَ فجأةً .
وبينما كان الدخانُ يتصاعدُ ، قالت :
هذا قانون الحب القاسي ، يا بنيتي .
هذا هو السرُ إذا شئت أن تعلمي .

---

* هو عاشق شيرين عند الفرس . قصد حبيبته وكاد يصل اليها ، عندما بلغه خبر وفاتها فمات أسفاً عليها ثم تبين ان الخبر غير صحيح . فاتخذ الشعراء هذه الحكاية مادة لشعرهم .

لا أحد ينجو من لَهَبِهِ إلاَّ بالموت .

وهذه هي رسالة حافظ[٢٨٦] (١٣١٩ - ١٣٨٩) :

كما تحرق الشمعةُ الروحَ ، المنيرةَ في لهب الحب ،
ضحيتُ ، جسدي ، بقلب طاهر ،
وطالما لا تصبحُ مثل الفراشات ،
فانياً بالحنين إلى الكل
فلا تستطيع ، أبداً ، أن تتحرر من عذاب الحب

وبعد أربعة قرون ، قال (Goeth) ، بعد ان اكتشف عظمة هذا الشاعر : يا لنا من مجانين إذا قارَنا أنفسنا بك يا حافظ ، نَقَلَ موضوع الشمعة ليجعل منه إحدى اشهر قصائده ، « مت وصرّ » :

أريد ان أمدحَ الحي الـذي يصبو الى المـوت في اللهب في خريف ليالي الحب ، حيث تلقيتَ الحياةَ ، وحيث أعطيتَها
يملكك دوارٌ غريب
أمام اللهب الصامت .
فأنت لا تبقى بعد اليوم سجينا ،
في جوف الظلام ،
فهناك رغبةٌ جديدةٌ تدعوك
الى حُبٍ أرفع
ولن تعيقك المسافةُ مهما بعدت
لأنك تطيرُ نحوه ، مفتوناً

---

(٢٨٦) شمس الدين محمد حافظ : ولد في شيراز . شاعر غنائي فارس غزلي ، عفيف ، اثنا عشري . له ديوان « اسم ديوان حافظ » ترجم للألمانية والانكليزية .

وأنت مُحبٌّ النور ،
تحترق فيه مثلَ الفراشة .
وستبقى ظلاً في ليل الدنيا
طالما أنك لم تفهم ،
هذا القانون « مت وصرّ »

هذا التعبير الألهي عن الحب الانساني ، هو أحد المواضيع التي جعلت من الشعر الاسلامي ، إحدى أرفع قمم الادب العالمي ، التي أعادت للتصوف المسيحي من (Maitre Eckhart) (المدين كثيراً لابن سينا والصوفيين) الى القديس (Jean de la croic)(*) (الذي استطاع ان يقرأ هذا الشعر مترجماً للاتينية في جامعة سلمنك) ، النفحة الغنائية العظيمة ، التي ما زالت تتردد حتى الآن عند المتصوفية (Rhrévo-Flamonds) .

إن الروايات الشعرية الكبيرة، لـ (الجرجاني)* الذي نظم، حول سنة ١٠٥٠، (Wis et Ȓamin)، والنظامي* المتوفي (سنة ١٢٠٣) ، حول (Chossoèset Chirin) والجامي (Djami) حول ليلى والمجنون ، طبعت الادب الغربي بطابع باهر ، منذ (Tristan et Jsent) القريبة جداً من (Wis et Ramin) ، المكتوبة قبلها بقرن ، والتي تمكن المؤلفون ـ من الاطلاع عليها والأخذ عنها . ومن غوت وكتابه (Divan Occidenntal) الذي يعترف فيه بما هو مدينٌ به

---

* الجرجاني .

* نظامي : (١١٤٠ ـ ١٢٠٢) شاعر فارسي عاش منعزلاً . له كتاب « خمسة » وفيه خمسة أقسام : خسرو وشيرين ليلى ومجنون ، اسكندر ، هفت بايكار ، مخزن الأسرار .

الحافظ ، الى (Marceline Debordes- Valmore) الذي تناول ثانيةً موضوعَ « الورود للسعدي ـ بعد أن جرَّدهُ من بُعده الصوفي ـ ومن (Novalis) ، الى (Hölderlin) كانت الرومنسيةُ تتغذى من هذا الشعر الشرقي ، و (Aragon)(287) أيضاً ، في كتابه (مجنون إلْسا (Elsa)) .

كان صدى لقصيدة الجامي ، وهو يعترف بما هو مدينٌ للشاعر الفارسي في رؤياه عن خاصية الحُبِ التنبئية :

دجامي ، دجامي ، الذي لم أكن سوى امتدادٍ لنشيدك .
إن جمالك السرِّي جعل مني ما أنا الآن .
وإن جمال شعرك كان جوهر اشعاري .
وإن موسيقاك العميقةَ ينبوعُ قوافي
وما الحبُ اذا لم يأت الي من مدرستك ؟
إن مرآتك كانت القلب الكبير الذي يقبض ،
على النور ويجعل منه ليلاه فوق كل شيء .
ووراء هذا النورُ يطبق ليلُ الناس .
وما تُسميه الناس إلٰهاً ليس سوى شعرك .
فهمتُ بكلماتك ، لون الفيروز ،
الذي يتغيرُ عندما يلامس أديم المعشوقات ،
واذا انطفأ مصباحُك في ، فلا يبقى لدى معنى لأي شيء
إنَّ خطوات أَلَمي تتشابك كالايدي .
يا ينابيعُ اسكتي ، وأنت أيضاً يا حساسينُ .

---

(287) Aragon : كاتب فرنسي ولد في باريس سنة ١٨٩٧ ، أحد مؤسسي السريالية مؤلف « عيون إلْسَا » سنة ١٩٤٢ .

آه اذا لم يبق دجامي ، ما الذي يبقى مني إذا فارقتني يا دجامي ؟
إن شفتيَّ صفراوان من الصمت ، وعيني تموتان .
وآهٍ إن لم يبق دجامي . فلا تعني لي الغاباتُ شيئاً بَعْدَهُ .

ولكن الاثرَ الأعمق للشعر الاسلامي كان أثرَ الرواد المسلمين في « الغزل العذري » الذي أثر على الشعراء الجوالين في (Oceitanie) ففي بـلاط غليـوم (De Poitiers) (أول الجـوالـين الكبـار ، جـد (Aliénor d'Aquitaine) ، لم يغب كلياً الفكرُ الصوفي » .

كما لم يغب عن بلاط فريدريك الثاني في صقليـة ، المكان الآخـر لتغلغل الثقافة والشعر الغربيين ، اللذين كانا كما يُظَن ، أُحدَ مصادر أدب (Le langesecret d'e Dante) وعندما نشر (Luigi Valli) (كتـابه سنـة ١٩٢٨) (Dantes et des fideles) اللغـة السـريـة لدانت والعشاق (D'amour) ذكر أن الصوفيين كانـوا قد عبَّـروا ، بلغـــةِ الحب الانســاني ، عن الحب الالهي وإن (Dante) (مـثـل (Joachim de Flore) عنـدمـا كتب سنـة ١٢٩٢ الحيـاة الجـديـدة (Lavita nuora) ، كـان مسبوقـاً ، بأكـثر من قرن ، بـروزبيهـان الشيـرازي ، في كتـابـه يـاسمـــين العشـاق Jasmin des fidèles) d'amour) ، وبابن عربي بكتـابه كتـاب السفر الليـلي Livre des) voyage mouturne) وكتـــابـه (Revé lations de la macque) الفتوحات المكية .

إن مصدر هذا المفهوم عن الحب ، الذي قَلَبَ مفاهيم الغرب ، عبر الاسلام وصوفييه وشعرائه ، هو نتاجُ ابن داود البغداديِ المولود سنة ٨٦٨ ، الذي انطلق من المصدر المزدوج الذي هو القرآنُ والشعرُ العربي الجاهلي : إبن داود (ذلك الذي اضطهد الحلاّج وأعدمه لأنه

كان يدين نظريته في الرغبة الجوهرية التي تقود ، من الحب البشري ، الى الله) ، وعلّم في كتابه الوردة (Livre de la flore) ، انطلاقاً من ذكر القبيلة العربية الأسطورية بنو عذرة النازلة شمال غرب المدينة في وادي (القرى) بأن لا مناصَ من الموت في الحب .

ان الشعر « العذري » العربي لا يرى في الحب غريزةً جنسيةً جسديةً ، بل بشارةً آلهية . وان الكائن المحبوب « أيقونةٌ » تقودنا الى الحب الالهي ، شرط أن ننجو ـ بتقشفٍ دؤوبٍ بالغٍ ـ من فتنة أو « مسٍ » الصورة الشيطانية ، وأن نُحب ونبقى طاهرين وأن نموت جراء هذا الحب والتخلي .

وان الحب ، بالنسبة لدانت ، الذي يرى ـ كما يرى القرآن ـ في كل شيء « أية » عن وجود الله ، هو القدرةُ على اكتشاف السرمدي في الجمال الزائل ، والأحدِ وراء تعددية الرغبات والنشاطات المادية . ان(Béatrice)* بالنسبة له هي ـ كالمسيح ـ دعوةٌ ضرورية لاستعادة الذات والعودة الى « الأوحد الضروري » إنها المرشدُ السامي ـ المتعذر بلوغه أبداً ـ للصعود نحو الله .

ان تأثير شعر الصوفيين الغزلي ، عبر مسلمي صقلية وإسبانيا ، والاختلاطَ الناجم عن الحروب الصليبية ، أتاحا إدراكَ شكلٍ جديدٍ في العلاقات بين الرجلِ والمرأةِ بعيد عن الوحشية الاقطاعية الغربية .

كتب (Stendhal) في رسالته عن الحب فقال : « يجب أن نبحث

* Béatrice Portinaré : (١٢٦٥ ـ ١٢٩٠) خلدها « دانت » في كتابيه « الحياة الجديدة » والملهاة الالهية .

عن نموذج وموطن الحب الحقيقي ، تحت خيمةِ البدوي العربي السوداء » ويُضيفُ ، كما ذكرنا سابقاً ، وفي ذات الصفحة ، قائلاً :

« نحن الذين كُنا برابرةً بالنسبة للشرق ، عندما ذهبنا اليه وعكّرنا صفوه بحملاتنا الصليبية . ونحن نَدينُ بكل ما هو نبيلٌ في أخلاقنا للحروب الصليبية وعرب اسبانيا .

وخلافاً لمجتمع ، تخضع فيه المرأةُ لأبيها أولاً ، ثم الى الزوج الذي اختاره لها هذا الأب (Le finamor) ، فإن الحب العذري هو فعلُ حريةٍ يتحقق بعطاءٍ متبادلٍ حُرٍ ، وإن هذا التغيير يُنذر بانقلابٍ جذري في العلاقات بين الرجل والمرأة ، ولو أنه لا يزال محصوراً في جزء صغير من المجتمع .

ان المرأة فيه سيدةُ الرجل ، والشاعر أو الفارس اللبق ، يستسلم لها كرجلٍ ، كما يخضع رجلٌ شديدُ الإخلاص لسيده .

إن للجمال والحب ، في الشعر الاسلامي ، القدرةَ التنبئيةَ لإيصالنا الى معرفةِ الحقيقة السامية ، أي معرفة الله .

إن الذي يَتَغَيَّرُ في الإنتقال من حب المرأةِ الى حُب الله ، ليس هو الذي نُحب ، بل نحن الذين نَتَغَيَّر . لأن أسهل طريقٍ ، للوصولِ الى الله ، هو إنكارُ « الأنا » « الأنانية » المنغلقة على ذاتها . ففي الحب نُحَطِّمُ هذه الانانية التي تسجننا في ذواتنا ، لِنَقْبَلَ الآخَرَ ، ونُحِبَّهُ كما هو ، وننفتح على الغير ، على كُلِّ غير . إن التخلي عن الذات هو سرُّ الشعر الشرقي الكبير .

ان (José Orthega Igasset)(*) ، يقارن في المقدمـة التي كتبها في التـرجمة الأسبـانية « لـ « طـوق الحمـامـة » لابن حـزم ، « الحُبَّ البدوي » « حب قبائل الصحراء في العربية مع الحب الاندلسي » .

فما هو هذا « الحبُ البغدادي » الذي كان ابنُ حـزم ، في قرطبـة (٩٩٤ ـ ١٠٦٣) رسولَهُ ، في اسبانيا والغرب كله ؟

إن الحب البشري برأي هذا الرائد في دراسة الديانات المقارنة ، لا يتعارض مع الإيمان ، وان الجمال المادي هو تَجَلٍّ لله مُبلغٍ عن وجوده وشاهدٍ على هذا الوجود . إنَّ حب الله بالنسبة لهما معا ، (أي لابن داود وأورتيغا) ـ من وجهة نظر إسلامية متزمتةٍ ـ يؤدي الى التجسيم أو الشِّرْك .

انـه (أي Orthega) لا يتفق إلاَّ مـع هـذا الشكـل من الحب العذري (ابن العذرية) والعيش بطهارةٍ وعِفَّةٍ حتى المـوت : « من عشق فعفَّ فمات مات شهيداً » .

إن هذا الموقف يشكل تحولاً حقيقياً ، إن لم يكن في الحياة (وهو ما لا نستطيع معرفتَه) فعلى الاقل في الشعر الغزلي .

إنه لا يُشْبهُ ابداً ، كما شبهوه غالباً ، الحبَ الافلاطوني في (Ban-quet, Phèdre) الذي هو حُبُ الحُبِ ، وليس حبَّ الآخر ، الذي هو غريبٌ كلياً عن رؤ يا الله هذه ، وأكثرُ غربةً عن هذا الزهد . إنَّ هـذه الطريقـة في فهم وحيـاة الحب لم تـأت أبـداً بمـا يغني الصـورة الانسـانية . وقـد يبدو مفـارقاً ـ لمن يتمسـك بالتـرسيمات السقيمـة

* كاتب اسباني ولد في مدريد (١٨٨٣ ـ ١٩٥٥) مؤسس مجلة الغرب .

للعلاقات الآلية بين « بنى تحتية » و « بُنيةٍ فوقية » ـ بأن هذه الـرؤ ية الجديدة عن الحب قد ظهرت على ثلاث دفعات ، الأولى عند القبائل البـدويـة العـربيـة الأكـثر فقـراً ، والثـانيـةُ في أوج سلطانٍ ورفـاه الامبراطورية العباسية في بغداد ، والثالثةُ مـع ابن حزم إبَّـانَ الأزمة التي تصدعت فيها الخلافةُ الأموية العظيمة في قرطبة ، قبـل مخالـطة الثقافة الغربية بقرون ، حيث أصبح هـذا الحب ـ الذي هـو أسمى وأصفى ما عرفته ثقافةٌ إنسانيـةٌ ـ أعمقَ دعوةٍ إسـلاميةٍ ، للنصـرانية والحضارة العالمية . وخلال خمسة قرون ـ تقريباً ـ من الظلم ، (تحت السيطرة التركية وبعدها تحت الاستعمار الاوروبي الخانق أكثر منها) صَمَتَتِ الثقافةُ العربيةُ ، بعد آخر إزهارٍ لها مع شعر الجـامي ، وأثرِ ابن خلدون الموسوعي الضخم ، باستثناء ، فارس الصفوية التي تألق فيها من القرن السـادس عشر حتى الثـامن عشر ، بعضُ الفـلاسفة كالملا صدر الشيرازي ، تلميـذ السهروردي وابن عـربي ، ورسَّامي المنمنماتِ أمثال بهزاد[288] (١٤٥٠ ـ ١٥٣٦) والسلطان محمد[289] في مطلع القرن السادس عشر ،(*) وآغاميراك وميرمُصَوَّر ، في منتصف القرن السادس عشر ، الى محمد زمان[290] (المتوفي سنة ١٦٩٧) .

واما بالنسبة لأدب العالم الاسلامي ، فلم تظهر بوادرُ نهضته ، الا

---

(٢٨٨) بهزاد : الأستاذ كمال الدين ١٤٥٠ ـ ١٥٣٧ ؟ ولد في هراة أشهر مصوري الفرس وخطاطيهم وفنانيهم .

(٢٨٩) محمود مؤمن : فنان ايراني من مدرسة هراة . عاش في أوائل القرن /١٦/ اشتهر بمنمنته « الشاب المسلح » .

*هو آقاميراك التبريزي : صويراتي تلميذ الاستاذ بهزاد صنع منيمنة مجنون بين الوحوش ومنيمنة خسرو وشيرين بين (١٥٣٩ ـ ١٥٤٣) .

(٢٩٠) محمد زمان : مصور فارسي له صورة الهرب الى مصر .

في منتصف القرن التاسع عشر ، في مصر ، حيث استطاع بعض الكتاب ان ينجوا ـ باستقلاليةٍ نسبيةٍ ـ من نير الامبراطورية العثمانية ، وبدأت كذلك نهضة الشعر في الولايات المتحدة في مطلع القرن العشرين ، حيثُ استطاع مُولِّدو الشعر العربي الحديث ـ وبخاصةٍ جبران أب هذا الشعر كله ـ أن يعيشوا خارج الاستعمارين ، الانكليزي والفرنسي .

إن الازهار الشعري الاسلاميَ الكبير ، استطاع أن ينتشر بخاصةٍ ، بعد الاستقلالات ، وأن يجد ، أولَ مركزٍ له ، في لبنان ، (قبل أن يتوصل المستعمرون القدامى والمتواطئون معهم ، في الشرق الاوسط ، إلى اشعال النار فيه) ويعيش ، في الشتات « حيث تجسدت روحُ الحركةِ الشعرية وتجديدِ الحياة ، في الفلسطينيين الشعب ـ المسيح ، في هذا النصف الأخير من القرن العشرين ، المسمَّر على صليب القدس الخالد ، وحاملِ المستقبل ، لأن قوى حياةِ جميع مركبات السلالةِ الابراهيمية (اليهودية والنصرانية والمسلمة) تتحد فيه ، وفقاً لأنبل وأجمل تقليد اسلامي اضطلع وحَمَلَ ـ منذ البداية ـ وبلا تحفظٍ ، مجموعةَ هذا التراث الانساني .

لن نحاول هنا أن نعرض خطوط التاريخ الأدبي للنهضة الاسلامية في القرن العشرين ، ومدارسَها وحركاتِها وكُتَّابَها ، بل أن نبرز ، فقط ، المسألةَ الكبرى التي تطرحها هذه النهضةُ علينا وعلى نفسها : وهي أن الشعر أصدقُ من التاريخ ، لكونه تاريخاً داخلياً للانسان ، أو مشروعاً انسانياً يعطي لعصرٍ من العصور ، معناه ، وفقاً لمستقبلٍ هو في طور الولادة . إن جماعة «الديوان» الذي وُلد في مصر سنة ١٩٢١ ، والمرسومَ بالطابع الانكليزي ، رفضت أسلوب ومواضيع

الشعر العربي التقليدي . وإن رواد هذه الحركة الذين استحوذت عليهم حمةُ (Virus) القومية الغربية ، ربطوا مفهومَ الأمة ، بالأرض بدلاً من ربطه بالعقيدة . لقد حققوا دون أن يدروا حُلمَ المحتل ، لأنهم عدُّوا أنفسهم مصريين قبل أن يكونوا مسلمين . لقد فَتَّتوا الأمةَ المسلمةَ الى « أمم » وفق النموذج الذي ابتدعته أوروبا منذ معاهدات « وستفالي » ، فأفْسَدَ العالمَ وجعل كُلَّ المسائلِ السياسيةِ ، في عصرنا ، مستعصيةَ الحل . إن اوضح مثالٍ عن هذه المجموعة هو الشاعرُ العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) الذي انتهى عبر قوميةٍ أرادها علمانيةً وتحرريةً ، الى التعاطف مع إيديولوجيات ايطاليا والمانيا ، في الثلاثينات .

وكان لدى تجمع (أبولو) الذي أسَّسَهُ سنة ١٩٣٢ الشاعرُ احمد زكي أبو شادي الذي انفتح على كل التيارات ومنها (تيار العقاد) ،

لقد حاول خليل مطران ، أن يصل بين التراث الاسلامي الأصيل وعالمِ اليوم ، فأدَّت مشاكلُ الأدبِ ، في الحياة وزجَّت خليل مطران حَرَكَتَهُ في وسط جميع المتناقضات : إن مجموعة (Apollo) ، انفتحت على الشعر الغربي وبخاصة الشعر الانكليزى : لقد كشف لهم (Thomas S. Eliot)[٢٩١]، وبخاصة في قصيدة (Waste Land) (الأرض الخراب) (١٩٢١ - ١٩٢٢) عن شعرٍ رائعٍ وعالمٍ آيلٍ الى الدمار :

كومة من صُوَر محطمةٍ تلفحُها الشمسُ . . . .
سأريك رُعبك من حفنةٍ من غبار . . . . . .

---

(٢٩١) **Eliot** : كاتب انكليزي ، من أصل أميركي ، (١٨٨٨ - ١٩٦٥) .

وهذه المجموع التي تدور في دائرة .

(إلْيُوتْ)

ولكن كيف يُمْكن قبولُ ثقافةِ غربٍ مدمرٍ ؟ وهل أنه صحيح ، أو أنه ممكنٌ الفصلُ بين طريقةِ تَسَلُّطِهِ والثقافةِ التي تدعم هذا التسلط ؟

وهل هناك غربان : غربٌ امبرياليٌ تلتزم الناس بمحاربته ، وغرب « إنساني » يستهوينا حُبُّه ، في وقتٍ تُشَكِّلُ ثقافَتُه تبريراً أو عذراً لفتكاته الاقتصادية والسياسية ؟

وكيف يمكن لقاءُ شعراء الشرق الذين يبحثون عن حياة جديدة ، مع الشعراء الغربيين مثل (Thomas S. Eliot) أو السرياليين الذين يتنبئون ، في شعرهم ، عن سقوط الحضارة الغربية ؟

وأينَ الرجاء : في هذا اللقاء ، مع اليأس والثورة ، أو في بعثِ تراثٍ محبوبٍ ، ولكنه دفين ؟

قال خليل مطران في قصيدة « وردةٍ ماتت » .

ما الذي تبغين من جوبكِ يا	شُبهات الطير ؟ قالت وأبانت
نحن آمالُ الصبا كانت لنا	ههنا محبوبةٌ عاشت وعانت
كانت الوردةَ في جنتنا	مَلَكَتْ بالحق ، والجنةُ دانت
ما لبثنا أن رأيناها وقد	هبطت عن ذلك العرش وبانت
فترانا نَتَحرَّى أبداً	إثْرَهَاْ أو نتلاقى حيث كانت

ومع قدموس ، مأساة سعيد عقل (المولود في لبنان سنة ١٩١٣) تظهر محاولةٌ جديدة ، عبر أسطورةِ البطل الفينيقي قدموس ، مؤسس مدينة صيدا ، وأخته أوروبا التي خطفها الثورُ بعل الذي أعطى اسمه

لقارة أو شبه قارة مُلحقةٍ بآسيا ، حاول عقل أن يظهر الجذورَ المشتركة بين حضارتي الشرق والغرب :

كان القدرُ سيدَ الانسان . ثم تحدَّى الانسانُ القَدَرَ واكتنه المحسوسَ بالفن والعلوم . كان ذلك في صيدون .

وعَبَدَ الاولون آلهةً عدة . فالحقيقةُ عندهم غيرُ واحدةٍ . ولا حقيقةَ إذَنْ .

أجل كان للبشريةِ الطفلةِ أن تتمتم بالوحدانية في مصر وفي بابل . وكان لأثينا أن توجس تناقضاً بين جَلَبة الأولمب والحقيقة الواحدة ـ لكن القدس هي التي حملت هَمَّ الوحدانية . . . ويرتفع صوتُ يشرع الحُبَّ سُنَّةً في الناس ، فترتجف ، من أسسها علاقات البشر بعضهم ببعض ،ويضطرون الى استنباط قواعد للعيش جديدةٍ غير غزو المرء جاره وغير اتخاذ أرضه مدى حيوياً .

هذا الانسان كان يسوع ابن أرض الشرق . . . .

كان ذلك في القدس .

ولم يتوقف الانسان في طلابه الى المجهول ، لأن ذلك كان قَدَره .

وعلى الانسان أن يتقدم ، كالامواج التي تأبه قليلا للشواطىء .

وراودت خواطر البشر ، بين زمن وآخر فِكَرٌ كبيرة لكنها كانت على الزمن ، تهن فتتلاشى .

وكلما اكتشف الانسان أصقاع حياةٍ جديدةٍ ، يطرح أسئلةً جديدةً .

وبلغ الفكرُ من ذاته حدَّ الفعل . وصار الفكرُ هو الفعلَ . وكان ذلك في أنطاكية .

وثم حَبِلَ العقلُ بعلم سياسةِ الناس : نظرٌ لدى الأغارقة وتجربةٌ عند

الرومان . وراح الشرقُ يتوقُ إلى يومٍ يتصل بتلك التجربة الفذة .

وكما أعطى الشرقُ الغربَ ابنَهُ ، كان طبيعياً أن يأخذ وأن يتلقى من هذا الغرب . فليس هناك سوى تبادلٍ عائلي .

وتُوِّجَتْ هذه المسيرة بالوصول الى مرحلةٍ حاسمةٍ في السفر . وأخذ الينبوع يتدفق على العالم .

إن هـذا الينبوع الـذي تصُبُّ فيـه تيـاراتُ الينبـوع الاول ، هـو الاسلام .

ويحكم حاكمٌ ، قَلْبُهُ في همةٍ حجازية قعساء حطمت الوَثَن وهَدَتْ باسم الله الواحد ، وبالهٍ في بيئةٍ ، شاميةٍ ربيبةِ التجربة الفذة ، فيدشن الشرق عهدَه بسياسة الناس بأمثل معنى عُرِفَتْ به .

عقلٌ توطن لَهَبَ الإيمان فَمَهَرَ عالَم العصور الوسطى برجلِ الحكم .

وكان ذلك في دمشق .

وكان فتحٌ عريضٌ دقَّ في القارات الثلاث بيارَق راحت تظلل المعرفةَ في حقبةٍ من عمر العالم ، فإذا كان على الشرق ، نقطةِ انطلاق البشر ، أن يَتَّجه نحو أولاده ليُنعش ذاكرتَهم ويُنير ليلهم ، فعليه أيضاً ان يُرَحِّب بهم وبخبرتهم وأن يجعل منهـا خبرتـه لأنها بِنْتُ أولاده . وبذراعيه المفتوحتين ، سيتوكأ عـلى مفكري الغـرب ، لا ليأخـذ منهم السلاح لمحـاربةِ الغـرب ، بـل ليضيف الى العقـد قلبـاً كبيـراً ، كـان عملُهُ الفريدُ على مرّ التاريخ ، انتزاعَ الكراهيةِ من الغرب .

لقد أطلنا في نقل هذا النص ، لأنه منذ ابن عـربي ، أولُ حوارٍ جـرى بين الحضـارات : إن هذا الحـوارَ يُلْفِتُ الناسَ الى تـاريخهم المشترك ، ضد نزعات القوميات الاقليميـة ، والتعصبات الـدينية ، والادعاءات الحمقاء بـ « الشعبِ المختار ، أو الثقافة الفائقة » ويُتيح ـ

بالمُشاركات المُخصبة التي يُقَدِّمها كلُ شعبٍ ـ صياغة شعبٍ واحدٍ ، هو شعبُ الأرض كلها .

إن سعيد عقل قد حمل يوماً ما فُكرة الانسان الكلي ، ولكنه تخلّى عنها اليوم . إن فكرة الانسان الكامل هي الفكرةُ الجديرةُ بالحياةِ لأنها تسمو بقلب الانسان وتجعله كبيراً .

لقد فتح قدموس الطريق أمام الانسان الذي يُمكنه أن يتحول ، من ديونيزيوس الى مسيح ، طريقَ تلك الالهةِ التي لا تموت حتى تولد من جديد .

إن أهم موضوعٍ في الشعرِ هو ، من الآن فصاعداً ، ذلك الذي يكون مبشراً بكلِ الأنبعاثات سواء كان الانبعاثَ الاسلامي أو إنبعاث البشرية كلها ـ لأن الحقبةَ الاسلاميةَ فترةٌ مجيدةٌ من الملحمة الانسانية .

تلك هي الفكـرةُ الاساسيـةُ لدى جمـاعة « تمـوز » في عام ١٩٥٤ وفكرة بدر شاكر السيّاب (١٩٢٦ ـ ١٩٦٣) التي استقت من التوراة والانجيل والقرآن ، وامتدَّت جذورُها في أعماق التاريخ . إن أثَرَ بدر شاكر السياب هو نشيدُ العودةِ الى فلسطين والتَجَذُّرُ في أرض فلسطين التي هي بالنسبة اليه الأم والزوجة والينبوع . . .

« عشرون قد قضين ، كالدهور كل عام
واليوم حين يُطبق الظلام ،
وأستقِرُّ في السرير دون أن أنام ،
وأرهف الضميرَ : دوحةً الى السحر
مرهفة الغصون والطيور والثمر
أُحِسُّ بالدماء والدموع كالمطر
يَنضحُهُنَّ العالَمُ الحزين

أجراس موتي في عروقي تُرْعِشُ الرَّنين
فَيَدْلهِمُّ في دمي حنين
إلى رصاصةٍ يشق ثلجُها الزؤام
أعماقُ صدري كالجحيم يُشْعِلُ العظام
أودُّ لو عدوت أعضد المكافحين ،
أشُدُّ قبضتي ، ثم أصفع القَدَر .
أود لو غَرِقْتُ في دمي الى القرار ،
لأحمل العِبْءَ مع البشر ،
وأبعث الحياة ، إن موتي انتصار !

(قصيدة النهر والموت)

وفي سنة ١٩٥٤ ، استعاد شاعر آخر يدعى ، علي أحمد سعيد ، أسطورة تموز ، وأخذ حتى ، اسم الإله القديم فسمى نفسه أدونيس ، حين قال : « أنا أدونيس ، أنا ينبوع ذاتي » ، واصبحت « مجلةُ شِعْر » في بيروت ، قَلْبَ الشعرِ العربي المعاصر .

كتب أدونيس : « إن أرضنا ، حالياً هي أرض التناقضات . ننادي بالحرية ولا نُطَبِّقُها ، ونحرر أنفسنا من العبودية الخارجية لنعود إلى عبوديتنا الداخلية . . . إن أرضنا ليست (West Land) أي أرض الخراب كما قال الشاعر الانكليزي (Eliot) عن أوروبا ، بل أكثر من ذلك ، إنها أرضُ العماء والفوضى . ولكننا نرى ، في الوقت نفسه ، إشارة النار تلمع فوقها . . . إننا ، وبمجرد وجودنا ، جزءٌ من المغامرةِ الروحية الكبيرة التي تبني تاريخ الانسان وعظمته . . . اذا وصف القديس (John Perse) حالته بصيغةٍ هرقليطية : « أنا أسكن في

العظمة » فإن الشاعر عندنا يستطيع أن يقول : » أنا أسكن في الرؤ يا » .

لقد وجد الشاعرُ الينابيعَ والجذور . فارتقى الى واقع آخر ، أي أنه وصل الى ممكناتٍ أُخرى وفتح أمامَ عالمِ التقنوقراطيين أفقاً آخر : هو أفق النبوءة .

أحمل هاويتي وأمشي . اطمس الدروب التي تتناهى ، أفتح الدروب الطويلة كالهواء والتراب خالقاً من خطواتي أعداءً لي ، أعداء في مستواي . ووسادتي الهاويةُ والخرائبُ شفيعتي . إنني الموت ، حقاً .

التآبين صيفي ـ أمحو وأنتظر من يمحوني . لا شذوذ في دخاني وسحري . هكذا أعيش في ذاكرة الهواء .

اكتشف نبرةً لعصرنا وغُنّة (عصر يتفتت كالرمل ، يتلاحم كالتوتياء ، عصرُ السحابِ المسمى قطيعاً والصفائحِ المسماةِ أدمغة . عصرُ الخضوعِ والسرابِ ، عصرُ الدمية والفَزّاعة ، عصرُ اللحظة الشرسة ، عصرُ انحدارٍ لا قرار له) .

ولا شريانَ عندي لهذا العصر إنني مبعثرٌ ولا شيء يجمعني .
أخلق شهوةً كلهاث التنين .

أعيشُ خفيةً في أحضان شمسٍ تأتي . أحتمي بطفولةِ الليل ، تاركاً رأسي فوق ركبة الصباح . أخرجِ وأكتب أسفار الخروج ولا ميعاد ينتظرني .
انني نبي وشكاك .

(اغاني مهيار الدمشقي)

لكن ثمةَ عملاً أحيا في قلب كلٍ من شعراء هذا العصر ، روحَ النبوءة التي لا تَشُكُّ بل تُبَلِّغُ وتستفهم وتدعو وتُبدع، نبوءة من تراثٍ اسلاميٍ رفيعٍ ، هو عملَ جبران خليل جبران (١٨٨٣ ـ ١٩٣١) العربي المسيحي الذي كان يفكر دائماً ، كما كتب الى (Marie Haskell) سنة ١٩٢٩ ، بأن أكبر طموح لدى الشرقي الاصيل هو أن يصبح نبياً .

لقد واصل جبرانُ تراثَ الشعر الرؤ يوي لابن عربي الذي كتب منذ ثمانية قرون ، « كم يفسح الحُلمُ أمام الحالم . ففيه يَظْهر المستحيل ولا يظهر ، بالضبط ، غيرُ المستحيل » .

وإذا عَدَّهُ كل الشعراء العرب في زمننا ، أباهم الروحي ، فذلك لأنه أعاد للشعر بُعده التنبئي ، كما أعاده في اوروبا (Saint John Perse)[٢٩٢] أو (Kazantzakis)[٢٩٣] و (Walt Whitman)[٢٩٤] في الولايات المتحدة ، وطاغور في الهند ، ونيرودا في الشيلي ، ومحمد إقبال في الباكستان .

لقد عاش وحدة الانسان والله ، في خضم « جنونه » الفسيح ، تماماً كابن عربي الذي جعل من حياته حلماً ، ومن الحلم « حلماً في الحلم » . عاش جبرانُ ، في منفاه الاميركي ، منفىً في المنفى (. . .) إنسانٌ ـ أَصل ، واللهُ ـ وردة ، ينبتان معاً أمام وجه الشمس . ان الرؤ يا التي هي نسغُ الشعر ، تحمل في ذاتها بذرةَ الثورة ، بكل ما في الكلمة من معنى ، كما تحمل بذرةَ التغيير الكلي في الانسان .

---

(٢٩٢) Saint John perse : ديبلوماسي وشاعر فرنسي (١٨٨٧ ـ ١٩٥٧) له تأملات في مصير الانسان وعلاقاته مع الحياة .

(٢٩٣) Kazan tzakis : كاتب يوناني (١٨٨٣ ـ ١٩٥٧) مجدد المواضيع القديمة .

(٢٩٤) Walt whit man : شاعر أميركي (١٨١٩ ـ ١٨٩٢) غنائي .

ان انطلاقة الصوفية الكبرى ، استمرت مع جبران الذي كان يقرأ ـ كما ينص القرآن ـ « آيات » الله في نفسه ، وفي الآفاق .

وكتب في « أنشـودة الأرض » : لقـد اكتشفتُ سِـرَّ حلمـك في البراري ، وهدوءك في الأوديـة ، وإرادتك في الصخـور ، وصمتك العميق الخفي في المغاور . . . أنت لسانُ الابدية وشفتاها ، أنت وترُ عودِ القرون وأصابِعُه ، وأنت فكرةُ الحياة ورمزها » .

ومن لبنان جبران ، إلى باكستان محمد إقبال(*) (١٨٧٣ ـ ١٩٣٩) تمرُّ ذاتُ النفحةِ التنبئية ، مع ذات الوصايا للإنسان ، أن يكون خليفةَ الله على الأرض » :

خلقتَ الليلَ ، فصنعتُ المصباح ،
وخلقتَ الطينَ ، فصنعتُ منه الكأس ،
وخلقتَ الغابةَ ، والجبلَ ، والصحراء ،
فانشأتُ الحديقةَ والخميلة والبستان

(محمد اقبال)

وكتب محمد إقبال ، في رسالة الشرق (Message de l'Orient) تعقيباً على الديوان الغربي الشرقي لـ « غوته » : إن الديوانَ يُثْبِتُ أن الغـرب المشمئز من روحـانيته الضعيفـة البـاردة ، أخـذ يَبحثُ عن حرارة ، حضن الشرق » .

إن مهمةَ الشاعرِ ، عند إقبال ، هي إيقاظُ الشعوب من سُباتها .

ومن جلال الدين الرومي الذي يرى أن الحياة من الحيوان للانسان ومن الانسان الى الله ، ارتقاءٌ دائم ، حتى (Nietzche) (نيتشـه)

---

* محمد إقبال : شاعر وفيلسوف ايراني (١٨٧٣ ـ ١٩٣٨) ، وفيلسوف ، ومتصوف .

الذي يرى أن للانسان ، المسهمِ في الإبداعِ نزعةً لتجاوز ذاته ، وأن الشاعرَ مُوقظ . . .

إن يقظةَ الشرق هذه تنطلق من أعماق العصورِ ، وستكون يقظة كل العوالم. إنَّ تأمُّلَ إقبال حَوْل « مسجد قرطبة » يُجْمِلُ الرؤ يا الاسلامية عن الزمان ، واقتراناتِ الزائلِ والابدي .

« وما أيامُكَ ولياليك ، إلاَّ ،
مجرى الزمان بلا نهار ولا ليل . . .
إنَّ للعمل الذي يُنجزه الانسان المؤمنُ
الوانَ الدائم والأبدي
آه يا جامعَ قرطبة ، إن وجودك من الحب
ولن يزولَ المُسلمُ ، أبداً ، لأن
دعواتهِ تكشف سِرَّ موسى وابراهيم
وأرضُه بلا حدٍ ، وأفقهُ بلا نهاية
والدجلةُ ، والدانوب ، والنيل : موجةٌ من بحره » .

وهو إذْ يَحْلُمُ بِنَقْلِ كل قوى الحياة من شاطىء الى آخـر ، يكتب متذكراً جلال الدين الرومي : إن الشرق اتَّجَهَ بانظاره نحو الله ، ولكنه لم ير العالم ، وإن الغربَ تغلغل في العالم المادي وابتعد عن الله . إن الإيمان هو أن تفتح عينيك على اللّهِ والحياة وأن ترى نفسك من دون حجاب » .

بهذا يجدُ الاسلامُ والنصرانيةُ استمرارَ تاريخها ، ووحدةَ يُنبوعهـما ورؤ يتَهما ومعناهما . ومن هنا يُصبح رمزيـاً أن يكتشفَ العالمُ ـ بعـد حرب الأيام الستة ـ الشعرَ الفلسطيني ، أو بالحري الجليلي ، لأن أحَدَ أنبل مُمثليهِ ـ محمود درويش المولود سنة ١٩٤١ ـ نشأ على الأرض التي

عاش عليها المسيح كُلّ أحـلامه ، ويكتب فيهـا اليوم شعـر الجلجلة والآلام ، بعد أن نظم في السجن قصيدة « إلى أمي » :

أحِنُّ إلى خبز امي ،
وقهوةِ أمي ، ولمسة أمي
وتكبُرُ فيَّ الطفولةُ
يوماً على صدرِ يوم
وأعشقُ عمري لأني
اذا مِتُّ ، أخجلُ من دموع أمي
خُذيني ، إذا عُدْتُ يوماً ،
وشاحاً لهدبِك ،
غَطّي عظامي بعشبٍ
تَعَمَّدَ من طُهر كعبك
وشُدي وثاقي بخُصلةِ شعرٍ
بخيطٍ يلوحُ في ذيل ثوبك
عساني أصير . . . إلْهاً اصير
اذا ما لمست قرارةَ قلبك
ضعيني اذا ما رجعتُ . . .
وقوداً بتنُّور نارِكِ . . .
وحبلَ غسيلٍ على سطح دارِك

إن كل الشعر الاسلامي المعاصر يبحث عن القصيدة المخلصة ، التي تُـوفِّقُ بين الله والتـاريخ واللحـظة والأبد ، والـواقـع والحلم ، والتراث و « الحداثة » .

لقد وعى هذا الشعرُ بأن التراثَ إذا كان ، غالباً ، بمثابةِ جوابٍ ، ـ

وأحياناً بمثابة جوابٍ على أسئلةٍ لا يطرحُها اليومَ ، إنسانٌ على نفسه ـ فإن العقيدةَ والنبوةَ هما بمثابة سؤال .

وهو إذ يتقدم التاريخَ والسياسةَ يُساعدنا على الـوعي بأن الشـرقَ والغربَ ليسا سوى قسمين من كائنٍ واحد ، وأن مهمتهما الاساسيةَ هي التهيؤُ للعيش معاً في مستقبل واحد .

يقول لنا سليمان (Slimane Zeghidour) : إن الحضارتين هما أمواجُ محيطٍ واحد ، إنهما مفصولتان عن جذورهما ونُسغِهما ومحيطهما المتدفق (. . .) فالاسلامُ يُنكرُ الغربَ ويعتقد بأنُه البدايةُ ، والغربُ يُنكر الاسلامَ الذي ولَدَّه (. . .). والشـاعر العـربي يستوعبُ تـراثهُ المسيحيَ (. . . .) . ولكن عـلى الغـربِ أن يَعْلَمَ ، أنَّ بـين أصلهِ النصراني وحاضره ، ألفَ سنةٍ من الإسلام وأن ، عليه أن يستوعبها ليردم الهوة التي يقف على حافتها ويشكو قَلَقَهُ .

إن الشعر العربي الاسلامي المعاصر طرح ـ قبل التاريخ والسياسة ـ المشاكل التاريخية والسياسية الكبرى . إنه قبل كل شيء شعرٌ تنبئي .

خاتمة

إن المقصود من هذه الدراسة هو مستقبلنا ومستقبل الجميع .

وإن هذا الكتاب ليس كتابَ تاريخٍ بل هو اقترابٌ جديدٌ من الاسلام ، ومن كل ما اتفق على تسميته بالعالم الثالث ، الذي يُلْعَبُ فيه بمصير هذا الكوكب .

وقد حاولنا استدعاء الاسلام لأنه قوةٌ حية ، لا في ماضيه فقط ، بل في كل ما يمكن أن يُقَدِّمَهُ اليوم ، لصنع غدٍ أفضل .

ولكي نُدرك ذلك علينا ألاَّ ننظر الى الاسلام ، من خلال ما طرأ عليه من تصلب وتوتر وانغلاق ، يَحْجُبُ عنَّا روحَهُ وفِكْرَهُ (كما حصل في فرنسا التي يوجد فيها الحادُّ تاريخي غيرُ قادر على فهم ما في الرسالةِ النصرانية ، من خصب وما تحمل من مستقبل ، لأنه - في اجتراره منازعاتٍ حصلت منذ أكثر من ألف سنة - يخلط بين النصرانية والكنيسة ، وبين الكنيسة وقسطنطين وخلفائه ، وبين الحروب الصليبية والتفتيش ، وبين المدرسية[٢٩٥] وقانون (Falloux)[٢٩٦]

(٢٩٥) **Scolastique** : المدرسيَّة . وهي مدارس فلسفية في العصر الوسيط حيث سادت فلسفة أرسطو في التدريس .

(٢٩٦) **Falloux** : رجل سياسة فرنسي (١٨١١ - ١٨٨٦) . عندما كان وزيرا للمعارف سنة ١٨٤٩ هيأ قانوناً مدرسياً لصالح الكنيسة . وقد صوت سنة ١٨٥٠ عليه وكُرس حرية التعليم الثانوي .

وبين البابا (Borgia)[٢٩٧] أو الحلف المقدس ، أو بيوس الثاني[٢٩٨] عشر أو بعض الخورة المتخلفين الذين يتمسكـون ، خوفـاً من الثورة بكل « ردود الفعل » ضد الديمقراطية) .

ان العـائقَ الرئيسي الـذي يقف في وجهنا هـو : « النظرةُ » التي حملها الغرب عن الاسلام ، منذ اكثر من ألف سنة :

ففي البدء كنا نخاف من الاسلام وكان الخوفُ منـه ـ كما يقـال ـ الناصحَ الرديء .

إن مؤلِّفَيْنِ حديثين يحملان وجهتي نظرٍ مختلفتين جداً ، تُمَكناننا من تـوضيح هـذه « النظرة » وتقـويم مدى مـا تُشَوِّهُ من أحكـامَنـا عـلى الأشياء .

فـ (Rodinoon) (٢٩٩)، يقـول : إن الحـروب الصليبيـة خلقت الفرصةَ لاعطاء صورة مقيتةٍ عن الإسلام ، الى جمهورٍ واسع ، ابتداءً من (Guibert de Nogent)* المتوفي سنة ١١٢٤، هـذا الراهب الذي يشكل مؤلفُه وحده ـ وحتى عنوانه بـالذات (Geste dei per Frances) (الفـرنسيـون ـ أي الصليبيـون ـ يُتمـون مَهمَّـة الله) ـ

---

(٢٩٧) البابا **Borgia** : هو اسكندر السـادس اسباني الأصـل (١٤٩٢ ـ ١٥٠٣) ، كان حليفـ لويس الثاني عشروعـدو شارل الثامن . كان يحابي أقاربه ويوظفهم ومتاجـراً بالرتب الكهنوتية .

(٢٩٨) البابا ١٢ **Pie** : (١٨٧٦ ـ ١٩٥٨) وبابـان (١٩٢٩ ـ ١٩٣٩) . حمى عـدة يهود أثناء الحرب العالمية الثانية . لكن أخذ عليه سكوته الرسمي تجاه النازية .

(٢٩٩) رودنسون : هو مستشرق وعالم اجتماع ، فرنسي ولد سنة ١٩١٥ ، كان موظفاً في مصلحة الآثار الفرنسية في بيروت . عرف بنضاله ضد الصهيونية والعنصرية .

(*) مؤرخ كتـاب **Gesta dei par Frances** في الحـروب الصليبيـة (١٠٥٣ ـ ١١٣٠) .

منهجاً ، للشوفينين[٣٠٠] المتأخرين ، ويوضح بسذاجةٍ كاريكاتورية مبدئهِ : عندما اعترف بأنه لم يعلم بالوقائع التي يرويها إلّا عن طريق السماع ثم يعلن عن نظريته بقوله : « يُمكن أن نَذُمَّ ـ بلا ترددٍ ـ مَنْ طبيعتهُ المشؤومةُ تفوق كُلَّ ما يُمكن أن يقال عنه من سوء » .

إن أفضل ما في هذه العبارة هو وضوحها .

وبعد فشل الحروب الصليبية ، التام ، أُصبح المبشرون رُوَّادَ الاستشراق .

لقد قرر مؤتمر فيينا سنة ١٣١٢ ـ تلبيةً لاقتراح الراهب الكاتلاني ، (Ramon Lulle) (١٢٣٤ ـ ١٣١٦) الذي جاب افريقيا الشمالية وآسيا الصغرى ، وأُدرك فيها ما للثقافة ـ العربية من أهمية ـ إنشاء سلسلةٍ من المنابر العربيةِ في باريس وأكسفورد و(Bologne)[٣٠١](Salamanque)[٣٠٢]و(Avigonon)[٣٠٣]، فَوُلِد الاستشراقُ ، الذي لم يكن مُنَزَّهاً عن الغايةِ ، أُو لمجرد البحث العلمي ، بل كان يهدف الى تحقيق مشروعٍ تبشيري بالنصرانية .

وتجدُر الاشارةُ ، في هذه المناسبة الى أن الاستشراق ـ ما خلا بعض الاستثناءات النادرة ـ قام بدورٍ مشبوهٍ لصالح الكنيسةِ والسياسةِ والاستعمار ، أُو صنعِ « شرقٍ » يتناسب مع أماني وحاجاتِ الهيمنة الغربية .

---

(٣٠٠) شوفينيين : متزمتين وطنيين (نسبة لـ Chauvin) .

(٣٠١) Bologne :مدينة ايطالية شهيرة بأثارها .

(٣٠٢) Salamanque : مدينة اسبانية شهيرة بأثارها .

(٣٠٣) Avignon : مدينة فرنسية ، مع نهر الرون .

ولكي لا نذكر ، إثباتاً لذلك ، سوى أمثلةٍ شهيرةٍ ، نُذَكِّرُ بأن الجَدَّ الاولَ « للاستشراق العلمي » لا في فرنسا فقط بل في أوروبا كلها (الذي تلقن منه غوته ـ الشعر الفارسي) هو (Sylvestre de Sacy) (١٧٥٧ ـ ١٨٣٧) أول استاذٍ للعربية في « مدرسة اللغات الشرقية » (التي أصبح مديرها سنة ١٨٢٤) ، وأستاذ في مدرسة (Collège des France) مارس مهنةً مماثلةً في وزارة الشؤون الخارجية ، حيث كان ، بصفته مستشاراً لسياسةِ فرانسا ، الشرقية ، يُعِدُّ نشرات جيش نابليون الكبير ، فضلاً عن صياغتهِ نداء الجيش الفرنسي لاجتياح الجزائر سنة ١٨٣٠ .

كما نذكر ، بأن (Max Muller) (١٨٢٣ ـ ١٩٠٠) الذي برز في أكسفورد كمعلمٍ للسنسكريتيةِ والدياناتِ الشرقية ، كان يلقي سنة ١٨٨٢ في كامبردج ، دروساً لتخريج حكام الهند المستعمرين .

وكذلك (Ruth Benedist) (١٨٨٧ ـ ١٩٤٨) في جامعة كولومبيا ، الذي كتب سنة ١٩٤٦ ، مُؤَلَّفَهُ الاشهر (Le sabre et le Chresantème) (السيف والاقحوان) تلبيةً لطلب دوائرِ مخابرات الجنرال (Mac Arthur)[٣٠٤] ، التي مَوَّلت نشرهَ وتوزيعَه لتسهيل دمجِ اليابان في مشاريع السياسة الاميركية .

إن هذا الاستشراق الذي كان ، غالباً ، في خدمةِ المشاريع التبشيرية ، والامبريالية ، والاستعمارية ، أو السياسية ، أسهَمَ الى حدٍ بعيد في خلق تبريرٍ « علمي » لمخططاتِ الغربيين ، وطموحاتهم

---

(٣٠٤) الجنرال Mac-Arther : أميركي (١٨٨٠ ـ ١٩٦٤) لعب دوراً في الحربين العالميتين ، وقوة الأمم المتحدة .

التسلطية ، وبالتالي ، لسيطرتهم على العالم الثالث .

وقد تجلّى ذلك ، في طريقة نظرتنا الى « الغير » الذي لا ننظر إليه حتى نتعلّم منه إيمانه وثقافته ، بل ، ننظر اليه نظرةً سطحيةً « انطلاقاً من معاييرنا الذاتية ، كأن مسار الحضارة الغربية هو المسار الوحيد المثالي والممكن . إن الغربيين ، في أحسن الاحوال « يعرفون » ولكنهم لا يحبون .

ان الغرب قد صادر المعرفة العالمية : لأنه أباح لنفسه تحديدَ مواقعِ الآخرين ، والحكم عليهم ، وفقاً لتاريخه وغاياته وقيمه . فقليلاً ما يَهُمُّ أن يُلبسَ الغربُ ، على الطريقة الغربيةِ ما أخذه عن الشرق ، بين القرنين السادس عشر والسابع عشر ، في (Arioste)[٣٠٥] (١٤٧٤ - ١٥٩٥) وفي (Tasse)[٣٠٦] وفي (Tamerlan de Marlow)[٣٠٧] سنة ١٥٨٧ أو في (Othello)[٣٠٨] لـ « شكسبير »[٣٠٩] ، وأن يبحث عن عبارات تركيةٍ حقيقيةٍ في (Le bourgeios gentislhomme) سنة ١٦٧٠ ، أو أن يُحاورَ (Racine)[٣١٠] (راسين) (Corneille)[٣١١] (كورني سنة ١٦٧٢

---

(٣٠٥) **Arioste** : شاعر ايطالي (١٤٧٤ - ١٥٦٣) صاحب رواية رولاند الجياش .

(٣٠٦) **Tasse** : شاعر ايطالي (١٥٤٤ - ١٥٩٥) ، مؤلف قصيدة « القدس المحررة » سنة ١٥٧٥ .

(٣٠٧) **Marlow** : شاعر انكليزي (١٥٦٤ - ١٥٩٣) ، مؤلف « تيمورلنك » .

(٣٠٨) **Othello** : رواية عطيل لشكسبير .

(٣٠٩) شكسبير : (١٥٦٤ - ١٦١٦) شاعر انكليزي عالمي ألف مسرحيات كثيرة .

(٣١٠) **Racine** : راسين (١٦٣٩ - ١٦٩٩) شاعر فرنسي كبير .

(٣١١) **Corneille** : شاعر فرنسي : (١٦٠٦ - ١٦٨٤) شاعر وكاتب كبير ، امتاز بالمسرحيات المفجعة . من بين مؤلفاته مسرحية بيازيد .

في مقدمة بيـازيد (Bayazet)[٣١٢] ويقـول : « آليت على نفسي أن أعَبِّرَ جيداً في مأساتي ، عـما عرفنـاه من أخلاق وأمثـالِ الأتراك » ، ولكن المُهِمَّ هو اعتبارُ الحضارةِ الغربية نفسِها الحضارةَ الوحيدةَ الخليقة بالتعبير عن المعرفة .

وأمـا في القرن الثـامن عشر ، فـإن معـارضي النـظام سعـوا الى تنسيه ، فجعلوا له من الشرق نقيضاً ، لا لأن للشرق وجوداً خاصاً به بل لأنه الوجـهُ السلبي الذي يُمَكِّنُهُمْ الحُكْمَ ، من خـلاله ، عـلى ملكيةِ لويس الخـامس عشر وإدانتـهِ . فسواء كـان (Hurons)[٣١٣] للبارون de la Hontan أو

(Supplément anxvoyages de M = Bangainrilb)

لـديدرو (Diderot)[٣١٤] أو (Les lettres persannes) لمنتسكيـو (Montesquieu)[٣١٥] سنـة ١٧٢١ ، فإن « الشـرق » كان الـوجهَ الآخر » للحقيقة الفرنسية وصورتَها المقلوبةَ ، ووجهةَ نظرِهِ الناقدة .

---

(٣١٢) **Bayazet** : بيازيد (سلطان عثماني (١٣٨٩ ـ ١٤٠٢) .

(٣١٣) **Hurons** : ألف جماعة من عرقٍ هندي كانت تقيم قرب بحيرة هيروم الموجودة بين كندا والولايات المتحدة .

(٣١٤) ديدرو **Diderot** : كاتب وفيلسوف فرنسي كبير (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) . ألف كتاب « الملحق بأسفار السيد (بوغانفيل) . وبوغانفيل (Bougariville) هذا ملاّحٌ باريسي (١٧٢٩ ـ ١٨١١) كتب كتاباً حول دورته حول العالم في سفينته والتي استغرقت من (١٧٦٦ ـ ١٧٦٩) أي ثلاث سنوات .

(٣١٥) **Montes quien** : كـاتب فـرنسي (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) من مؤلفـاتـه «الـرسـائـل الفارسية» .

إنـه دائما تـابـعٌ للحقيقـة الغـربيـة والفـرنسيـة . فهـذا (Pierre Bayle)[٣١٦] في كتـابه (Dictisnnaaine Critique) سنـة ١٦٩٧ يرى في سيرة محمدٍ الشريفةَ نموذجـاً للتسامـح مُقابـل القمعِ الـديني الذي كان حينذاك في فرانسا ، وذاك (Voltaire)[٣١٧] يرى في كتابه عن محمد سنة ١٧٤١ ، نموذجَ الرجـل الديني في خـدمةِ الاضـطهاد السيـاسي . إنهم لم يدرسـوا الإسـلام ، في أي حـال ، (والشـرق بعامةٍ) لذاتها بل درسها لاستخدامها في صراعاتهم الايـديولـوجية الخاصة .

ثم تغير منظر الاستشراق في القرن التاسع عشر :

إن غزوة نابليـون لمصر أُوجـدت « علاقـةً » جديـدةً بين الشـرق والغرب ، كانت في باديء الأمر عـلاقةَ سيـطرةٍ وخدعـةٍ . وإنه أي بونابرت (الذي اصطحب معه (Volney)[٣١٨] الذي كان قـد نشر كتابه السفر لمصر وسوريا (Le voyage en rogypte et en Syrie) سنـة ١٧٨٧ لم يتردد عن التـأكيد في إعـلانه لشعب الاسكنـدرية ، بتاريخ ٢/ ٧/ ١٧٩٨ ، « نحن المسلمـون الحقيقيون » وحـاول أن يثبتَ بأنه يُحارب من أجلِ الاسلام ، على الرغم من الاحتقار الذي يكُنـه لأي دين . (كـما فعـل بعـدهـا بسنـةٍ واحـدة ، أُثنـاء قتـالـه لـلانكليز، ووجَّـهَ نداءً لليهـود، نَشَرَتْـهُ جريـدةُ (Le moniteur) في

---

(٣١٦) Pierre Bayle : (١٦٤٧ ـ ١٧٠٦) كاتب فرنسي الف كتاب «القاموس الناقـد» Dictionaire critique .

(٣١٧) Voltaire : (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) مؤلف فرنسي تزعم حركة الفلسفة المادية وقاوم رجال السلطة المدنية والدينية . مهـد السبيل للثورة الفرنسية من مؤلفاته «محمد» .

(٣١٨) Voleney : رواءة فرنسي ١٧٥٧ ـ ١٨٢٠) عالم وفيلسوف فرنسي .

٢٢/ ٥/ ١٧٩٩ وقالت فيه: إن نـابليون وجّـه نداءً إلى جميـع يهود آسيا ، وأفريقيا والعالم لينضمـوا تحت رايته من اجـل بعث أورشليم القديمة. وتولّد عن هذه البعثة التي كانت أول لقاء سياسي وعسكري ملمـوسٍ بين الشـرق والغرب ، « حـركةٌ اصـلاحيـةٌ » مُسْلِمَـةٌ من جهة ، تخلط بين « الحداثة » والتغريب وميلٌ - في اوروبا ، وبخاصةٍ في فـرانسـا من جهـةٍ أخـرى - فـاسـدٌ « لـلإغـرابيـة (Exotisme) الرومنسية ممزوجٌ بعقدة تَفَوُّقِ الغرب .

وهذا فيكتور هوجو يبتهج في مقدمـة (Orientales) سنة ١٨٢٩ ويقول : « إن الدراساتِ الشرقيةَ لم تتقدم قط مثلَ تقدمهـا اليوم . لقد كنا في عصر لويسٍ الرابع عشر هلنستيين واليوم أصبحنا شرقيين (. . .) لم نعهد من قبلُ ، مثلَ اليوم ، مثلَ هذا العـدد من الادمغةِ التي عكفت على سبر هذا الخضم الأسيوي العظيم » .

غير أن هذا الكلام نفسه لم يمنع « هوجو » ذاتهَ من اختلاق شرقٍ مصطنعٍ وتافهٍ . ولما قرأ (Stendhal) قول شاتوبريان[٣١٩] في كتابه (I tiveraire de Paris`a Jerusalun) سنة ١٨١١ ، « بأنه لم يَجِدْ في الشرق شيئاً قط إلا وكان صورةً لذاته » ، قال عنه : أنا لم أجد ، قط ، شخصاً أنتنَ أنانيةً ونرجسيةً منه » .

ومع ذلك فان قول (Stendhal)[٣٢٠] هذا لم يمنع شاتوبريان الذي يحمل في نفسه أحكاماً مسبقة تراكمت منـذ ألف سنة ، عن الكتـابة

---

(٣١٩) Chantean bréand : (١٧٦٨ - ١٨٤٨) من كبار الأدباء الذين أثروا في الحركة الـرومنسية من كتبـه « الرحلة من بـاريس إلى أورشليم » . Etimeraine de Paris àjemésale .

(٣٢٠) Stendhal : كاتب فرنسي (١٧٨٣ - ١٨٤٢) له عدة مؤلفات .

عن الحروبِ الصليبيةِ بقوله : ليست الغايةُ تحريرَ هذا القبر المقدس فقط بل وأيضاً ، معرفةَ من سيسيطر على هذه الأرض ، فإما دينٌ ، عدوٌ للحضارةِ يؤيد ـ مبدئياً ـ الجهلَ والطغيانَ والإستعباد، أو دينٌ بَعَثَ في عصرنا إجلال العصور القديمةِ الحكيمةِ ، وألغى الرق (. . .) إنهم يجهلون الحرية ، ولا ملكياتٍ عندهم قط ، والقوةُ هي ألههم .

وللامرتين (Lamartine) في كتابه (Voyage en Orient) سفر الى الشرق سنة ١٨٣٣ ، ؟مخَطَّطُهُ : في حالـةِ سقوط الامبراطوريـة العثمانيةِ (. . .) تأخذ كلُ واحدةٍ من القوى الأوروبية ـ تحت عنوان محميةٍ ـ قسماً من الامبراطورية ، وفقاً لشروط المؤتمر (. . .) هـذا النوعِ من السيادة المطلقة (. . .) المكرس كحق اوروبي يشتمل مبدئياً ، على حق احتلال هـذه القطعة أو تلك من الاقليم أو من الشواطىء لإنشاء مدنٍ أو مرافىءَ ، ومدنٍ حرةٍ ، أو مستعمرات أوروبية ، أو أساكل للتجارة (. . .) إنها ليست سوى وصايةٍ مسلحةٍ ومُمَدِّنةٍ تمارسها كل قوةٍ على محميتها . ونرفال (Nerval)[٣٢١] الكبير ذاته ، لم يجد شيئا في الشرق (١٨٤٢ ـ ١٨٤٣) سنرى الفراغ وبعضِ المعرفة التي استعارها كلمـةً كلمةً من المستشرق البريطاني (Lane)[٣٢٢] . و (Flaubert)[٣٢٣] من (١٨٤٩ ـ ١٨٥١) ـ وبمعزل

(٣٢١) Nerval : كاتب فرنسي (١٨٠٨ ـ ١٨٥٥) لـه كتاب رحلة الى الشرق سنة ١٨٥١ ، وغيره .

(٣٢٢) Lane :

(٣٢٣) Flaubert : كاتب فرنسي (١٨٢١ ـ ١٨٨٠) من جملة ما كتبه Salanmbo سنة ١٨٦٢ .

عن ذكرياته حول جانحةٍ في القاهرة ـ أَخَذَ على عاتقه في رواية (Salammbô) ، مهمةَ تخليص الشرق من أوهامه . هذا هو الشرق الذي ، يُعيدُ الغربُ خَلْقَهُ ويعتقد ـ أحياناً ـ أن قَدَرَهُ هو في أنْ يبعثه مرةً أخرى على طريقة لورنس ـ العربية ، السخيفِ الذي كتب بغرور :

كان قصدي صُنْعَ أمةٍ جديدةٍ (. . .) وإعطاءَ عشرين مليوناً من الساميين ، القواعدَ التي يبنون عليها ، من افكارهم الوطنية ، أضغاث أحلام (. . .) كل مقاطعات الامبراطورية لا تساوي ، في نظري ، قيمةَ رَجُلٍ انكليزي يموت . واذا كنت قد رَدَدْتُ للشرق بعضاً من الكرامة أو الهدف ، أو المَثَلِ الأعلى (. . .) فقد كَيَّفْتُ هؤلاء السكانَ على نموذج الحكم الجديد الذي تنسى فيه العناصر الحاكمة (. . .) انجازاتها الفظة . (كتاب الاعمدة السبعة) .

وحدها ألمانيا التي لم تَسْتعمر ـ كبريطانيا وفرانسا ـ بلاداً اسلامية ، حاولت فَهْمَ الاسلام :

من (Herder)[٣٢٤] (١٧٤٤ ـ ١٨٠٣) الذي اعترف للعرب بأنهم « أساتذةُ أوروبا » الى (Friederich Schlegel)[٣٢٥] الذي دعا سنة ١٨٠٠ الى تحالف القوطي والشرق ، ضد الاتباعية ، مروراً بـ (Goethe) الذي كتب سنة ١٧٤٤ قصيدةً تمجيداً بالرسول الأعظم ودعا سنة ١٨١٩ في كتابه (الديوان الغربي الشرقي) الى

---

(٣٢٤) **Herder** : كاتب الماني (١٧٤٤ ـ ١٨٠٣) . كتب بحوثاً في فلسفة تاريخ الانسانية .

(٣٢٥) **Sch le gel** : كاتب الماني ١٧٦٧ ـ ١٨٤٥ .

هجرةٍ نحو الشرق لاستمداد شبابٍ جديدٍ منه ، كما حاولتِ المانيا اكتشافَ وجه الاسلام النوعي .

إنَّ (Goethe) الذي يَتَّفِقُ مع القرآن على معارضة فكرة استراحة الله في اليوم السابع ، يرى في الاسلام عقيدةً ومجتمعاً قائمين ، على الفعل وليس على الاستسلام . وكتب ، معجباً ، من خلال قراءة مختارات أدبية عربية (Chrestomatie arabe) لـ (Sylrestre de Sacy) بشعراء فارس الصوفيين ، (جلال الدين الرومي والسعدي وحافظ ودجامي) يقول : « لم يعد ممكناً فصلُ الشرق عن الغرب » خَتَمَ قائلاً : اذا كان الاسلامُ يعني الخضوع لله ، فنحن كلنا نحيا ونموت على الاسلام » .

وفَكَّرَ (Goethe) ايضاً مثل (Leibnitz)[٣٢٦] في (Théodiceé)[٣٢٧] ، بأن النبي لم يبتعد أبداً عن الديانة الاساسية وقال :

هل القرآن مخلوق ؟ لا أعرف . ولكني أعتقدُ بأنه كتابُ الكُتُب كما يعتقد ذلكَ المسلمُ . الديوان الغربي ـ الشرقي . وبالمقابل ، فان (Hegel) رغم اعترافه ـ بأن الأحد (الله) في الاسلام يَسْتَبْعِدُ كلَّ تمييزٍ عنصري أو طبقي أو ملكي ويفرض الصومَ والزكاة ـ في الصفحات القليلة التي خصصها للاسلام ، (في القسم المخصص

---

(٣٢٦) Leibnitz : فيلسوف ورياضي الماني (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) ألف كتاب Theodiceé من بين عدة مؤلفات .

(٣٢٧) Théodicee : علم إلْهيات يبحث عن وجود الله وصفاته ، وعن العدالة الالْهية ، ألفها سنة ١٧١٠ .

للعالم الجرماني !) . فإنـه أدخل في عـرضه كـلَّ الافكارِ العـامةِ عن المـركـزةِ الاوروبـيـةِ (Eurepeocentrisme) وسمَّـى الاسـلامَ بـ « المحمدية » فدلَّل عن جهله العميق بخصوصيةِ الاسلام .

ولاحظ غيرُهم بأن « قدرةَ الساسانيين العسكـريةَ قـد تَحَطَّمت في معركة واحدةٍ سنة ٦٣٧ في نهاوند » أو أن « مملكةَ الويزيقوط سقطت في جولةٍ واحدةٍ » ، على نهر برباط سنة ٧١١ (Henri Terrosse) .

ان هذا الكاتبَ الأخير بَلَغَ من السُخف حداً دفعه للقول لقومه ما كان « بإمكـانهم أن يفعلوه » ، وما « كـان يجب فِعْلُه » واستغرب في الوقت ذاته غيابَ المقاومةِ الذي بقي بالنسبة اليه ، بدون تفسير . غير أن (Oswald Spengler)[٣٢٨] ، من المـانيـا أدرك سنـة ١٩١٧ في كتـابـه « تـدهـور الغـرب » (Declin de l'Occident) ، أهميـةَ تاريخ ، بدون (Ethnoemtrisme) عرقيـةٍ يكونُ التـاريخَ الـوحيدَ للعالم .

إنـه لم ينغلق على ذاتـه ، خـارجَ التـاريـخ الاجمـالي ، في معـزل (Ghetto) ايديولوجي غربي ونصراني ، بل جَمَعَ ، في حزمةٍ واحدةٍ ، كل تجمعات اليهودِ والنصارى الأريوسيين ، والنسطوريين ، وأتباعِ الطبيعةِ الواحدةِ والمزديين ، وأوضح أن اللغز المذهلَ لانتشار الاسلامِ لَا يكمن في عنفه الحربي (. . .) أنه (أي الاسلام) استوعب سريعاً وبالكامل تقريباً ، اليهودية ، والمزدية وكنائسَ الجنوب والشرق . إن بـطرك سيليسيا (Ctholicos) (كاثوليكوس سلوقيـة) (Selucie)

---

(٣٢٨) **Oswald Spengler** : فيلسوف ومؤرخ الماني (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦) .

المدعو (Jesubah III) تَذَمَّر من اعتناق عشراتِ ألـوفِ النصارى ، الاسـلامَ فـور ظهـوره ، في افـريقيـا الشمـاليـة ، مـوطن القـديس (Augustin) ، ومن ركوع جميع سكان البلد أمام الله » .

ويستنتج (Spengler) قائلاً : « ان النصرانيةَ عرفت فترتين لحركةِ فكرٍ كبيرةٍ : الأولى من السنة صفر حتى السنة/ ٥٠٠/ في الشرق ، والثانية من السنة ألف حتى السنة / ١٥٠٠/ في الغرب . إن هاتين الفترتين كانتا ربيعي الثقـافات التي احتضنت التيـاراتِ الدينيـةَ غيرَ النصرانية التي تنتمي اليها » .

ولكي نستوعب التاريخ بنظرةٍ واحدةٍ يجب أن نتخلى عن غَـربِيَّتنا التي تُصبح أكثر فأكثر « إقليمية » وأن نفهم ـ من خلال نظرةٍ شاملةٍ للسلالةِ الابراهيمية ـ لماذا شهدت اليهوديةُ المتحجـرة ، من يسوع، عمليـةَ استبدالها التاريخي بـالنصـرانيـة ، ولمـاذا لم تستـطع بعـدهـا النصرانيةُ ـ المرومنةُ التي خَرَّبَهَا قسـطنطينُ وقَلَبَهَـا رأساً عـلى عقب: وجعلها هريةً رومانيةً إمبرياليةً مهلنسةً ومجمدةً بلا هوت نيقية الذي فجَّرها الى طوائف عديدة ـ مقاومة استبدالها التاريخي « بالإسلام » . وأن نَفْهَمَ بأن الغرب عندما انحسر الى حدود أوروبـا ، غفا ثقافيا واجتماعياً في قرون من السيطرة النصرانية .

ثم جـاء دور الاسلام : فعنـدما سقـطت بغداد سنـة ١٢٥٨ بيد المغول أحفادِ جنكيـزخان ، وسقـطت قرطبـة سنة ١٢٦٢ بيـد ورثة الصليبيين المتأخرين ، كان الاسـلام المُتصلبُ ـ بالشكليـةِ الشرعيـةِ والعقديةِ على حساب روحانيته ـ قـد دخل في إسبـاتٍ ، بينما كـانت

أوروبا قد وصلت منذ القرن الخامس عشر ، الى قمة الارتداد ، واستسلمت لالهي القدرةِ والنساء المزيفين . انهما ، أي المسيحيةُ والإسلام ، اذا لم يعيا تاريخهما المشترك ، أو لم يكونا أهلاً لإدراك أنَّ كلاًّ منهما جزءٌ للآخر ، وأنهما معاً جزءان من كلٍ فإن الحوارَ بينهما ، أو بين الشرق والغرب لا يمكن ان يكون الا حواراً بين مريضين .

ان الحروب لم تسهم يوماً في حل أية مشكلةٍ ، بل إنها ، على العكس ، تُسهم في خلق بعضها ، لأن المشاكل المبنيةَ على معطيات خاطئةٍ ، تكون بالنتيجةِ خاطئةً .

وأما بالنسبة للاسلام فإن غزوةَ نابوليون لمصر سنة ١٧٩٨ ، طرحت ، بأبشع صورةٍ ، مسألةَ العلاقة بين التراث والحداثة .

إن تاريخنا الغريب يُجْمِعُ على اعتبار حملةِ نابوليون على مصر أساساً « لانبعاث » العالم العربي الاسلامي : لقد كان ممكناً فتحُ ثغرةٍ وأفقٍ للتجديد والحداثةِ ، في اسلام مسحوقٍ تحت الحكم العثماني ، الذي جَمَّدَ الفكرَ والعمل منذ قرون لكن التباساً مميتاً حصل منذ البداية بين التحديث والتغريب (هذا الالتباس الذي لا تزال نتائجُهُ مؤثرةً ، وبشكل رهيب حتى اليوم) لأن « الحداثةَ » لم تكن تعني الغربَ وحسب ، بل كانت تعني منه أسوء أشكاله التي هي القدرة ، وحتى القدرة العسكرية .

منذ ذلك الحين ، نشأ تيّاران فكريان في مصر أولاً ، وانتشرا منها فيما بعد الى العالم العربي الاسلامي قاطبةً ، ثم امتدّا رويداً رويداً ، الى جميع القارات والمناطق الحضارية الأخرى : هما تيارُ المعاصرة وتيارُ المحافظة .

كان العصرانيون يرون بأن المستقبلَ هو في تقليدِ أوروبا ، فاستوردوا منها قبل كل شيء ، أمراضها وعلى رأسها مرضُ القومية .

لقد نقل المستعمرون الأوروبيون صراعاتِهم وحروبَهم ومنافساتِهم ، الى العالم المستعمَرِ - سواء في اميركا اللاتينية ، أو في أفريقيا السوداء ، أو في البلاد الاسلامية ، فكانت « الحدود » بين « الوحدات القومية » تركةَ هذه التقسيمات الاستعمارية ، وبخاصةٍ بين اسبانيا والبرتغال ، وفيما بعد ، بين هولاندا وبريطانيا وفرانسا .

واما على الصعيد السياسي ، فان « الحداثة » كانت تعني لهم النظام البرلماني ، أي تصدير أنظمةٍ مختلفةٍ وُلِدَتْ في أوضاع تاريخيةٍ خاصة بفرنسا وبريطانيا ، الى بلادٍ ذات بنيةٍ وثقافةٍ مختلفةٍ جذرياً عنها ، كما كانت تعني ، على صعيد المؤسسات السياسية ، نقلَ قواعدِ سوقٍ (« حرة » في المبدأ) المراحل الأولى للرأسمالية .

وعلى صعيد الاقتصاد ، كانت تعني « الحداثةُ » الانضمامَ الى السوق الغربية : ولكي لا يخلق الغربيون منافسين لهم بل زبائن ، فقد احترسوا ، منذ البدء ، من تشجيع نقل أساليبِ إنتاجهم (أي التصنيع) ، وشجَّعوا ، بشدة ، تقليد أسلوبهم في الاستهلاك ، فأجبروا ، بنتيجة ذلك ، البلاد المستعمرة أولاً ، الخاضعةَ للمبادلات المتفاوتة فيما بعد ، الى تقديم موادها الاولية ويدها العاملة ، حتى يتاح لأقليةٍ سميت « بالنُخبة » (أي بعض وسطاء وأعوان المحتل أو المسيطر) الاسهامُ في هذا الطراز من الاستهلاك .

وعلى صعيد الثقافة ، كانت تعني « الحداثةُ » تَبَنِّيَ « الفلسفة الضمنية » للنماء على الطريقة الغربية أي « التقدم » الذي يعني ازدياد السيطرة على الطبيعة والناس .

من هنا كان رفض الغرب لكل تسامٍ (لأن التقنوقراطية كانت هدفه الاخير ، الذي حل محل هدفِ التسامي وأَخَذَ وظيفته) ، وتمجيدِ الفردانيةِ (لأن منافسات السوق جعلت ـ كما أوضح (Hobbes) منذ بدايات الرأسمالية ـ « من الانسان ذئباً لأخيه الانسان») وقَصَر الفِكْرَ على البحث عن الوسائل (لأن الغايات التي يركز الغرب عليها هي النماء والقدرة) . إن العصريةَ والعصرنةَ والتعصرنَ لم تَعُدْ تعني ، منذ ذلك الحين ، سوى إدخالِ نموذج حياةٍ خَلَقَتْهُ شعوبٌ أخرى ، يَتَّفِقُ (طوعاً أو كرهاً) مع حاجاتها الخاصة .

ان تطعيم حياة المسلم بالحاجات الأجنبية جعلته غريباً عن ذاته ، وذويه وتاريخه وثقافته ومستقبله .

لقد اقْتَرَحَ على العالم العربي الاسلامي ، بأن يَمُرَّ ـ كي يتعصرنَ ـ بجميع المراحل التي قطعتها أوروبا في أربعة قرون ، وأن يعتبر ماضي الآخرين مستقبله .

وأما بالنسبة للمحافظين ، فإن سؤال : « كيف يتمكن العالم العربي ـ الاسلامي من تأكيد حقه في الوجود ؟ » يستدعي جواباً يتعارض ـ جذرياً ـ مع جواب العصرانيين . إنهم لا يقولون كما يقول هؤلاء بأن تأكيد وجودنا يتم « اذا قلَّدنا الذين يقتلوننا وصرنا مثلهم » ، بل يعتبرون ، أن سببَ انحطاط العالم ـ الاسلامي ـ هو بُعْدُ المسلم عن الدين وتعاليم الأقدمين ، وانقطاعُه عن « تراثه » لحساب الاستسلام لاغراءات الشيطان الغربي .

من هنا كان تصميمُهم على وضع الإسلام في قلعةٍ بلا أبواب ولا نوافذ تُطِلُّ على الخارج ، ولا حتى فتحاتٍ تُطل على السماء ، وعلى

الدفاع « كلياً » عن التراث دون تمييزٍ بين التعليم القـرآني والشوائبِ والـرواسب التي ، غالبـاً ، مـا أغـرقتـه تحت مجلوبـات المجتمعـات المختلفة التي دخل اليها .

وهكـذا نشأت كـل التماميـات ـ أي العقـديـة والتصلب في كـل الـديانـات ـ التي ترتكـز على الخلط بـين العقيدة والشكـل الثقافي أو التنظيمي الذي تمكنت من اتخاذه خلال تاريخها الطويل ، وأخذ كل فريق من هؤلاء التماميين يختارُ من الماضي الحقبةَ التي تبـرر ، أكثر من غيرها ، سلوكَه الحالي .

بيد أن الاسلام لا ينطوي ، مطلقاً على هذه التمامية المجمدة .

إن القرآن يكرر في أماكن عديدةٍ بأن الله أرسل لكل شعب رُسُلَهُ كي يَفْهَمَ كـلُ شعب الرسـالة . مضـافاً الى أنـه كـان واضحـاً منـذ « التفسيـرات » الأولى للخلفاء الـراشدين (الـذين كانـوا أصحـاب النبي) ، ونشوءِ « مذاهب » فقهية مختلفة ، أن الكـلام المنزل عـلى النبي ـ رغم أنه يشكل آخر نبوءة تشـريعية ـ لا يستبعـد ، مطلقـاً ، الاجتهاد الضروري ، على ضوء الرسالةِ ، لحلِ المسائلِ الجديدةِ التي طُرِحت ـ مع انتشار الاسلام ـ على جماعاتٍ تختلف عن جماعة المدينة المنورة .

إن حكاماً سياسيين هم الذين « أغلقوا بـاب الاجتهاد » في فتـرة محُددة من توسعهم الامبـراطوري ، وحـالوا دون الفقهـاء من إعطاء رأيهم المستمد من روح التشريع القرآني ، لحل المسائل المستجدة .

إن هـذا الانغلاق يتعـارض ، جذريـا ، مع روح ونص التعليم القرآني : إن النبي لم يَدَّع أنه مؤسس ديانةٍ جديدة بل « مصلحٌ » في

عقيدة ابراهيم الأساسية ، ومصدقٌ ، لما جاءت به اليهودية والنصرانية .

وإذن فمن الضروري تعميقُ هذه الاسهامات المتتابعة ، وحذف التحريفات والشوائب منها ، واعتبار النبوءات السابقة مراحل للنبوءة الكاملة ، وإذ البحثُ عن المعرفة يغتني من كل الحِكَم ِ في العالم، ولو كانت حكم غير أهل الكتاب . وعلينا بالتالي : أن نطلب العلم ولو في الصين ، كما قال الرسول الكريم .

وعندما يعلن أحدُ آيات الله في إيران : « ان الاسلام يكفي ذاته بذاته » فإننا نفهم جيداً ، بأنه يرفض تُرَّهات وضلالات الغرب ، غير أنه اذا كان يعني بأن الاسلام ليس بحاجةٍ الى التعلُّم من الغير ، فإن هذا الاكتفاء مخالفٌ لتعليم الاسلام ِ ، لأن عظمته هي في أنه ـ منذ نشأته حتى بلوغه القمة ـ عَرَفَ كيف يستوعبُ التعابير الايمانيةَ الكبرى التي سبقته ، وأفضلَ الثقافات الأخرى ويُبدع منها ثقافةً مستجدةً يرفعها عالياً .

إن انحدار الاسلام لم يبدأ إلاَّ عندما تخلَّى عن ذلك . (لقد عَرَفَتِ الكنيسةُ الكاثوليكيةُ ذات الانحسار عندما عجزت ـ منذ الانبعاث ـ عن تَمَثُّلِ المسائلِ العلميةِ والأجتماعيةِ ، في الأزمنة الحديثة .) هذا من ناحية ، ومن أخرى ، فقد حصل خلطٌ بين « السُّنَّةِ » والعادات التي لا أساس لها في القرآن أو الحديث أو تصرفات النبي (ص) . كإكراه المرأةِ على وضع الحجاب الذي هو مجردُ عادةٍ طارئةٍ تَرْجِعُ إلى ما قبل الاسلام . إن مِثْلَ هذه التمامية خرقٌ فاضح لروح العقيدةِ الاسلامية ، التي هي التوحيدُ ، لأنهُ يدخلُ فيها الثنائية التي يقول (T. S. Eliot) عنها بأنها الخطيئة الغربية الكبرى . فهل هناك ازدواجٌ

أسـوءُ من إبقـاء ديـانـةٍ ـ في مجتمـعٍ واحـد ـ عـلى شكلهـا المتـزمت المقيت ، في العـلاقات الخـاصةِ ، ومن اعتمـادِ تُرَّهـات الغرب ـ في الحيـاة الاجتماعيـة ـ ابتداءً من طـرائقِ استهلاكِـهِ الجنونيـة وانتهـاءً بأشكال توزيع العمل والطبقات والفردية المتوحدة التي تفكك المجتمع المدني والمجتمع السياسي ؟ نحن نعلم أن لا فصل في الاسلام ، بين التسامي والجماعة . فهل نحن اليوم في سبيل تأليف ، المجتمع ، أو أننا ، على العكس ، في طريقِ وضعِ أسـوء ما في « الحـداثةِ » عنـد البعض مقابل « التقليد » عند الآخرين ؟

قال المؤرخ الانكليزي توينبي (Toynbee)* إن مسألةَ الشرق هي قبل أي شيء « مسألةُ الغرب » .

فَعِنْدَ ذِكْرِ مـوجة التمـاميـة الحـاليـة في بعض البلدان العـربيـة ـ الاسلامية ، ينبغي ألَّا تغيب عن نظرنا مسؤوليةُ الغربِ في ذلك لأن مُعـظَمَ مراكـز اتخاذ القـرار والسلطةِ كانت طيلةَ فتـرةِ الاستعمـار أو الحماية ، ولا تزال حتى اليوم ـ في ظل الاستعمار الجديد والشركات المتعددة الجنسيات ـ في الخارج .

ولـذا كانت ردةُ الفعـل الأولى عـلى ذلـك ، في البـلاد العـربيـةِ الاسلامية ، الانقطاعَ عن الخارج والإنطواءَ على النفس .

والسببُ الثاني ، الاكبرُ بروزاً ، في السنوات العشـر الاخيرة هـو فَشَلُ «التقدم» المزعوم، على الطريقة الغربية، العاجز ليس فقط عن

---

* توينبي : مؤرخ بريطاني ، ولد في لندن سنة ١٨٨٩ ، وتوفي سنة ١٩٧٥ . ألف عـدة كتب حول الحضارات .

إعطاء معنىً وهدفاً للحياة ، بـل عن تقليصِ التفاوت في العـالم وفي داخل كل بلد .

ومن هنا كانت ردةُ الفعل الرافضةُ وهذا الرجاءُ ، باكتشاف حياةٍ اسلامية متميزة ، بعيدة عن الفوضى الرأسمالية بـلا روح ، أو عن الادارة في مخيمات الاعمال الشـاقة في الاتحـاد السوفيـاتي . وكان في إفلاسِ « حلول » الغرب الدليلُ الدافعُ الذي نَمَّى هذه التماميات .

ان الحوار محكومٌ عليه بالوصول الى مأزقٍ ، اذا لم يَجْلُ البعضُ ، عن عقيدته ، صدأ قرونِ السيطرةِ والاضطهاد ، ولم تدرك تقنوقراطية الآخرين الفسادَ الاسـاسيَّ في نظامهـا الذي لم يَطْرَحْ قط ، مسألـةَ معناها الانساني والغايةَ منها .

إن مسؤولية الغرب ـ وبصورة أوضح مسؤولية (منظمـة التعاون والإنمـاء الاقتصادي) التي تضم الـدول المُصَنَّعـةَ الكبـرى ، (دول أوروبـا والـولايـات المتحـدة واليـابـان ، التي تـطبق ذاتِ النـظام التنموي) ـ هي أكبر :

إن نماء البعض وتخلف الآخرين ليسا سوى وجهين غير منفصلين لسوء تطور « كوكبي » ، واحد .

هو حقيقةٌ أساسية تظهر لمن يعتبر العالم كـلًا واحداً ، ولا يعتمـد وجهة نظر الغرب وحدها ـ ومفتاحُ لحل جميع مشاكِلنا الحيوية .

إن الـذي ندعـوه ، في الغرب ، نمـواً ، ليس ، في نظر العـالم ، سوى نمو التخلف (تطور التخلف) كما يقول (Gunther Franck)

لأن « نمو » هذه البلدان غيرُ ممكن ، إلاَّ بنهب الموارد المادية والإنسانية لثلاثة أرباع العالم .

إن أول نتيجة لهذا الوعي العالمي : هي كشفُ القناع عن هذه الاكذوبة المميتة التي تقترح ، على البلاد المتخلفة ، اتباع طريقتنا في التطور ، لأن نظاماً يتطلَّب نموُّ البعضِ فيه نهبَ وتخلُّفَ ثلاثة أرباع العالم هو ، بمبدئه ذاته ، غير قابل لأَن يكون عالمياً ، (وبالحرف : غير قابل للتطبيق في العالم كله) .

والنتيجة الثانيةُ لهذا الوعي : هي أَنه يُبَلِّغُ عن أكذوبةٍ أخرى غيرِ نظرية التَّنمية ، هي : تطبيق علاقاتنا مع البلدان المتخلفة :

فإذا كان نمونا قد ولَّدَ وفاقم هذا التخلف، فان الدواء الوحيد الممكن هو في تغيير هذا التطور . إنه الشرط الاولي « لنظام اقتصادي عالمي جديد » حسب التعبير الذي اطلقه الرئيس ابو مدين سنة ١٩٧٤ .

وكُلُّ شكلٍ آخر من « العون للعالم الثالث » هو وهمي ومميت ، يُصيب البلدانَ المتخلفة أولاً ، ثم البلدانَ المتطورة أيضاً ، في المدى القريب ، بسبب ما سَمَّاهُ أحمد بن بيلا « إدارة هذا الكوكب المفجعة » .

إن تغيير النمط الغربي في التنمية ليس من باب الموعظة الأَخلاقية : بل هو ضرورةٌ ملحة ، لأنه ينذر بانتحار كوكبيٍ ، ناتجٍ عن نضوب المواد الأولية وخراب « المحيط الحيوي » (أي مجموعة الشروط الممكنة التي تجعل الحياة ممكنةً : كالهواء والماء والأرض) .

وكذلك فان مسألة استمرار استقلال العالم الثالث لا تُطرح من

الناحية الخلقيـة فقط (لأنها ضرورة ملحـة واستحقاقٌ مميت) ، ولا بصورة أولى كـ « صدقةٍ » مُعَمَّدَةٍ ، عن خبث ، بـاسم « معونـةٍ » ، بل لأنها مسألةُ بقاء المجموعة الانسانية .

إن التحدث عن بلدان متطورة وأخرى متخلفة خدعةٌ قاتلة :

فليس في العالم سوى بلدانٍ مريضةٍ (هي البلاد الغربيةُ ، مريضةٌ بنمـوها الاقتصـادي وتخلفها الثقـافي والديني ، وعجـزها عن تحـديد وتحقيق غايات انسانية) وبلدانٍ مخدوعةٍ (وهي البلاد التي يحاولـون إقناعها بأن نموذج تنمية الغرب « ومعونته » يحمـلان لها العـافية ، في حين انهم يفككون بخداعهم هذا ـ وببساطةٍ ـ بُناها وثقافتها) .

إن اساس المشاكل في العالم الحالي (من مشكلة الجوع الى مشكلة التسلح (وهمـا وجهان لمشكـل واحد) ، ومن غيـاب معنى وهـدفِ الحياة في الغرب (والشرقُ والغربُ قد اتَّبَعَا ، ذاتَ النـظام التنموي وتكـرسـا ، بـذلـك ، لـ « تـوازن الـرعب ») إلى عنف الافـراد والجمـاعات والقمـع في الداخـل) إن اسـاسَهـا هـو نمـوذجُ التنميـة الغربي .

إن هذا النموذَج يقومُ على الانتاج أكثر فأكثر ، وأسـرع فأسـرع وأي شيء ، مفيد أو غير مفيد ، ضار بل ومبيد (السلاح النووي أو غيره) ، كما يقومُ على فرض « استهلاك » هذه الأشياء عـلى الجميع (بـواسطة الـدعاوة ، وأسـاليب تصـريف البضـائـع ، « والمنـافسـة القذرة » مولدةِ التفاوتات الاجتماعية) .

إن هذا النموذج يوهم الناس، في الغرب، بأن السعادة «والتطور» مرهونان « بمستوى المعيشة » وكميةِ المنتوجاتِ المستهلكة. إنه يستغل

بؤس وأوهام جياع العالم لِيُرَسِّخَ لديهم التَوهُّمَ بأن في استطاعتهم، ومن الضروري لهم أن ينهجوا هذا السبيل ليتخلصوا من بؤسهم ويحققوا أحلامهم. إن بعض الأرقام توضح إفلاسَ هذا النظام الذي هو « سوء التطور » العالمي، و« إدارة الكوكب المفجعة »، وفداحة الكارثة.

ونبدأ بالتفاوت الأساسي:

إن ٣٠ ٪ من سكان العالم (البلاد المُصنَّعة في أوروبا، والاتحاد السوفياتي، وأميركا الشمالية واليابان وأستراليا) تمتلك ٨٢ ٪ من الانتاج العالمي، وينفقون ٨٥ ٪ من المبالغ المرصودة للتسلح. وإن نصف مليار من البشر يعيشون تحت المستوى للتغذية المطلقة (ألفا حريرةٍ يومياً) ونصف مليار آخر يعيشون دون مستوى الفقر المطلق (أي ٧٠ سنتيماً يومياً). وإن نفقات تسلح البلدان المتطورة بلغت/ ٣٨٠/ مليار دولار (من مجموع/ ٤٥٠/ مليار في العالم كله)، بينما كانت «معونتها للعالم الثالث» في السنة ذاتها/ ٢٢/ مليار، كان ثلثها للتسلح.

والملاحظة الثانية: إن هذا التفاوت ـ والتبعية المتلازمة معه ـ يتزايد. إن ديون البلاد المتخلفة بلغت درجةً اضطرتها سنة ١٩٨٠ إلى تخصيص/ ٢، ١٣/ مليار دولار لدفع فوائد وديون مترتبةٍ عليها، أي ما يعادل تقريباً نصف المجموع العام لـ« المعونة » التي تتلقاها.

وهكذا يصبح الأغنياءُ دائماً، في هذا النظام، أكثر استغلالاً. كل ذلك يحصل بحكم الهيئات المسؤولة عن « المعونة » التي تساهم كلها

(أي الهيئات المسؤولة) ـ كما قال أحمد بن بيلا في مقابلة صحفية أتينا على ذكرها ـ بتأبيد التبادل المتفاوت والتبعية ».

ويكفي أن نشير هنا إلى أن المصرف العالمي وفرعه المسمى IDA (منظمة التنمية الدولية) و FMI (صندوق النقد الدولي) هما هيئتان، ـ يتناسب فيهما عدد الاصوات مع رأس المال الموظف فيهما ـ لا توافقان على إقراض البلاد الفقيرة إلاَّ بالشروط الجائرة التالية :

- يجب على البلاد المستقرضة أن تزيد من حجم صادراتها ، (الأمر الذي يحرم السكان من المنتوجات التي تلبي حاجاتهم الاساسية) .
- يجب عليها تسهيلُ الاستثمارات الأجنبية (الأمر الذي يتيح للمستثمرين تصدير أكبر قسم من الارباح المحققة في البلاد المشار اليها .
- يجب عليها مراقبة الأجور (الأمر الذي يغرق ملايين العمال دون الحدِ الحياتي الأدنى) .

كل هذا ليس سوى واحدةٍ من الوسائل المالية العديدة الهادفة للسيطرة السياسية والاستغلال الاقتصادي .

والتصنيع « ونقلُ التكنولوجيا » يشكلان فخاً غربياً آخراً :

» يقول أحمد بن بيلا ، أيضاً ، ان كل حضارة تعمل ، بعلومها وتقنياتها الخاصة ، على تحقيق أغراضها الخاصة » ، بيد أن حاجات بلدان العالم الثالث « تختلف ـ بوضوح ـ عن الاهداف التي تحددها المجموعة العسكريةُ ـ الصناعيةُ ، في البلدان الغربية . ويصف ، من وجهة النظر هذه ، « نقل التكنولوجيا » بأنها أسلوبٌ جديدٌ للسيطرة من جهة ، ووسيلةٌ لِنَقْلِ « أنماط العيش والتفكير » من جهة اخرى . ويختم قائلا :

« لا مستقبـل لنا اذا لم نُعـد النظرَ في هـذه التكنولـوجيا » . فـإذا اعتقدت الدول العربيةُ الاسلاميةُ بأن تصدير البترول والاستفادةَ من أرباحهِ يكفيانها (إما بوضعها في المصارف الغربيـة التي عرفنـا ـ بعد تجميد الرساميل الإيرانية من قبل الحكومة الاميركية ، أية ضمـانات تقدمها هذه المصارف ، في حال حدوث أيـةِ أزمةٍ سيـاسية ـ) أو في توظيفها لدى الشركات الاستثمارية العالمية الكبرى (التي هي اليـوم إحدى القوى الرئيسية في استغلال العالم الثـالث) أو لشراء مصـانع أوروبية جاهزة (التي يفرض ، رؤ ساؤ ها وتقنيوها وتكنوقراطيوها ، عـلاقـاتهم الاجتمـاعيـة وطــراز حيـاتهم واستهــلاكهم ويُفْسِـدُون « المتعاونين » المحليين معهم ولا يأبهون ، مطلقاً ، لحاجـاتِ الشعب الاساسية الذي يقيمون بين ظهرانيهِ) ، إنها اذا اعتقدت ذلك تكون قد عَرَّضت نفسها لخدعة مميتة .

ان ما ذكرناه يصدق على جميع فروع الصناعة :

لقـد وجدت الشـركات البتـروليةُ الغـربيـةُ الكبيـرةُ ، في البلدان العربية فريسةً ممتازة . أما البلدان المنتجة فبإمكـاننا تَصَـوُّرُ مستقبلها بأجراء مقارنة بسيطة : ما الذي يكون عليه حالُ « التنمية » الأوروبية لو انها صَدَّرت ، في القرنين الثامن والتاسع عشر ، كُلَّ إنتاجهـا من الفحم تقريباً ؟

إن ما قلناه لا يعني أبداً أن الحلَّ هـو في أن تأخُـذَ البلادُ المنتجـةُ بنـظام الاكتفـاء الـذاتي وتـرفض بيــع النفط أو تمتنـع عن استيــراد التجهيزات اللازمة من البلدان الأجنبية ، بل المقصودُ هو التفكيرُ في المشاكلِ وحَلِّها، لا من وجهة نـظرٍ غربيـة (بالانضمـام الى السوق العالمية وقواعدها المحددة من قبـل المستعمرين القـدامى والولايـات

المتحدة) أو من وجهةِ نظرٍ خاصةٍ لدى منتجين مميزين بحقوقهم النفطية ، بل من وجهة نظرٍ عربيةٍ ـ إسلامية ، وحقِ البقاء في العالم ، وقبل كل هذا حق البقاء الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للعالم الثالث .

وإذا كنتُ استشهدُ غالبا بأحمد بن بيلا ، فلأنه طَرَحَ ـ انطلاقاً من قيمٍ عربيةٍ ـ إسلاميةٍ أساسيةٍ ـ مسألةَ العلاقاتِ الدولية ، بمعزلٍ عن الذاتيةِ أو الأقليميةِ ، واقترَحَ أولوياتٍ مختلفة ـ من أجل تطويرٍ حقيقي للبشر لا للاشياء مبيناً ما يُمكن أن يُقدِّمه الاسلامُ لحل مشاكل التنمية ، وتنمية العالم الثالثِ على وجه الخصوص .

ولنلقِ نظرة على الزراعة : لقد بَيَّنَ (Rudolph Strahm) الأُوالية (الطريقة) (mécaneismes) التي يُعْطَى فيها غذاءُ الفقراءِ الى ماشيةِ الأغنياء » .

إن البلدان المُصَنَّعةَ التي يبلغ عدد سكانها سدسَ سكان العالم تملك ٦٠ ٪ من حبوب هذا العالم . وهي تستعمل ثلثيها لتغذية حيواناتها في مزارعها (عدا عن الصويا ، وكُسبِ الفول السوداني ، وطحين الأسماك) ففاقمت بذلك الجوع في العالم الثالث .

وبالمقابل فإنَّ بلدانَ السوق المشتركة كانت تملك سنة ١٩٧٤ ، مخزوناتٍ تعادل ١٣٠ ، مليون طناً من لحم البقر ، أي ما يعادلُ خمسماية كيلوغرام لكل فرد (وهذا المخزون يكفي لمدة خمس سنوات) و إن هذا التخزين كَلَّفَ الصندوقَ الزراعي للسوق المشتركة أكثر من /٢٨/ مليار فرنك قديم .

وبإمكاننا إيرادُ الامثلةِ العديدةِ : إن الكيلوغرام الواحد من الصويا يوفِّرُ للإنسان من البروتين، ما تُوفِّرُهُ ثلاثةُ كيلوغرامات من لحم البقر ، أو عشرُ كيلوغرامات حليب أو ستون بيضة . غير ان ٣ ٪ فقط من إنتاج الصويا العالمي يُسْتعمل لغذاء الانسان ، والباقي يستعمل علفاً للحيوانات أو في صناعة الألياف التركيبية (الاصطناعية) .

ولنر الآن « التقنياتِ الغربيةَ » في الزراعةِ وأثَرَها في العالم الثالث :

إن السمادَ المصنعَ في بنغلادش والذي يُكلفُ /١٤٠/ مليون دولار ويستهلك أنهاراً من البترول ، ويخلق ألف فرصةِ عملٍ يمكن أن تنتجه هناك ، في أحواض الميتان /٢٦/ الف قرية ، وأن تعطي بالاضافة الى ذلك محروقاتٍ وإضاءةً ، وتخلق /١٣٠/ ألف فرصة عمل ، بكلفة /١٢٥/ مليون دولار بدلا من /١٤٠/ .

هذا مثلٌ نموذجي عن « نقل التكنولوجيا » ولكن من هو المستفيد ؟

وهناك أولويةٌ زراعية أُخرى ، هي الري :

إن اعتماد ، نظام الري عند المزارعين الاميركيين (الذي يُكَلِّفُ ، بين السماد ومبيدات الحشرات والاعداد المائي /٩٠٥/ ليترات من النفط بالهكتار الواحد المزروع) يعني خرابَ البلاد التي وقعت ضحايا هذه « المعونةِ » ، بينما يكون التجديدُ الحقيقيُ بإصلاح شبكات الاقنيةِ الجوفية التي كانت تروي هضباتِ إيران ، وتجنب تبخر المياه ، كما يكون التجديدُ الحقيقي ، بإعادة تشغيل القنوات التي أتاحت ، زمن الأغالبةِ، في تونس، في القرن التاسع، ري أراضي تحولت الى

صحارى بعد الاحتلالين التركي والفرنسي ، كما يكون ، « بتحديث » نُظُمِ جر المياه التي جعلت حدائق مرسية حدائق أسطورية .

والمسألة نفسها ، تُطْرَحُ بالنسبة للصناعاتِ المرتبطة بالزراعة :

إذ يمكن تجفيفُ القهوةِ أو الحليب للتصدير ، محلياً ، بدلاً من ترك هذا العمل للشركات الكبرى العالمية كشركة (نستله Nestle) ، ولو كان على حساب مصارع آلاف الاطفال الذين كان بقاؤهم على قيد الحياة ممكناً لو رضعوا حليب أمهاتهم ، ولم يشربوا الحليب المجفف .

وكذلك نصطدم بذات « التفكك » على مستوى التتجير :

ففي بلدان العالم الثالث لم ينجح نظامُ اتفاق المنتجين (الكارتيلات) ألا في ميدان النفط . (OPEP.) ، لأن هذه العملية ليست ممكنةً أو ناجعةً الا ضمن شروط دقيقة :

- اذا كان الطلب قوياً ولا تمكن الاستعاضة عن الإنتاج بغيره (كالنفط) .
- اذا كانت البلدان المنتجة قليلةَ العدد ومتضامنةً .
- اذا لم يكن الانتاجُ قابلاً للتلف ، ويتحمل البقاءَ مدةً طويلة ، إذا توقف المنتجون عن إنتاجه .

ويكفي ألاَّ يتحققَ شرطٌ واحد (الثالث مثلا) حتى تُشَلَّ العمليةُ كما حصل لـ (UPEB) أي (اتحاد البلاد المصدرة للموز) الذي يضم خمس بلدان من أميركا الوسطى المنتجة ٤٤٪ من صادراته العالمية . وكما حصل ايضا لـ (CIPEC) أي (المجلس الاعلى للدول المصدرة للنحاس) لأنه يمكن الاستعاضةُ عن النحاس ولو جزئياً - في

الصناعة الكهربائية على وجه خاص ـ بمعادن أخرى كالألومينيوم .

من كل ما تقدم يمكن الاستنتاجُ بأن البلدان العربية وحدها ، يمكن ان تقوم ـ بالدور الحاسم في الـ (OPEP) ، وتكون طليعةَ العالم الثالث ، لأنها وحدها وقبل كل شيء ، استطاعت منذ سنة ١٩٧٣ ، أن تُعطي الدليلَ المادي عما لم يكن سنة ١٩٦٨ ، إلَّا سابقاً لأوانه : إن للتنمية حدوداً طبيعية . ولم يسبُقْ لقضيةٍ هي في جوهرها مشكلةٌ ثقافيةٌ ، مشكلةُ اختيارِ نموذجٍ للتطوير ، أن طُرِحَتْ على المستوى الاقتصادي بصورةٍ اكثر وضوحاً .

هنا يَجِدُ الاسلام فرصةً تاريخيةً ، ليُثبت أن عقيدتَه وأهدافه هي الجوابُ على قلقِ عالمٍ أوصله النموذجُ الغربي التنموي إلى الانحلالِ الاقتصادي والسياسي والاخلاقي ، كما حمل الجوابَ ـ في فترة نشأته ثم وفي فترة انتشاره الى انحلال الامبراطوريات . واليوم تستطع الدول المصدرةُ للنفط ، وحدها ، ومركبتُها الاساسيةُ العربيةُ ، ان تفرض باسم العالم الثالث كله ، « قاعدة للعبة » قادرةً على ارغام الغرب (ومن أجل خيره الأكبر) على تغيير نموذجه التنموي . إذ يكفيها ، بالتضامن مع (الكارتلات) المنتجة للنفط في العالم الثالث أن تفرض رَبْطَ تَبَدُّلاتِ سعر المواد الاوليةِ المصدرةِ من العالم الثالث بأسعار المنتوجات الصناعية المستوردة من الغرب . إنها وحدها تستطيع ، اليوم ، إنشاءَ مصرفٍ للمستقبل ـ بدلاً من ايداع رساميلها في المصارف الغربية ـ يُقْرِضُ دون شروطٍ سياسيةٍ (خلافاً لما يفعله المصرف العالمي) الأموالَ التي تتيح للعالم الثالث سَدَّ حاجاته الاساسية ، وبخاصة تشجيع بعث الزراعات الغذائية المُهْمَلَةِ لصالح الزراعات الأحادية التي لا تعمل الا في تدعيم نير الغرب .

إنّها وحدها تستطيع ، اليوم ، توظيفَ أموالِها في مشاريع محلية ، حديثة قادرة على تأمين تطورٍ ذاتي ، بدلاً من تـوظيفها في الشـركات الرأسمالية العالمية التي أصبحت رأسَ الحربةِ للتفوقِ الغربي . وعندها تستـطيع أنْ تتخلّصَ من السـوق العالميـة ، ومن « التوزيـع الـدولي للعمل » اللذين يحكمانها بأن تكون :

١ ـ موردَةَ المواد الأولية واليدِ العاملة بسعرٍ رخيص .
٢ ـ زبائنَ المشاريـع الغربيـة التي لا تستهدف سَـدَّ حاجـات جماهـير الشعب الحقيقية ، بل خلقَ مُلحقٍ لسـوقها تُصَـرِّفُ فيه فـائضَ إنتـاجها ، عـلى يد « النخبـات » المزعـومة المتغـربة السـاكنـةِ في الحواضر .

وعلى هذه الدول أن توظف امـوالها في تـوليد الـطاقات الجـديدة والـزراعة ، والاحيـاء ، والسماد العضـوي ، والري والصنـاعـات المحلية لتحويل الثروات الطبيعية لتقف في وجه الشركات الرأسمالية العالمية الكبيرة التي تَصْنَعُ المـوادَ الغذائيـة ـ الزراعيـة والكيماويـة ، وتحـديث التقنيـات التقليـديـة ، من النسيـج الى تحضـير الادويـة بالاسلوب التقليدي .

وحـدها تستـطيع اليـوم ، أن تنشىء سوقـاً مشتركـة بين البلدان العربية الاسلامية ، وما بعدهـا من العالم الثـالث ، تتيح تغيـيرَ نمطِ التنميةِ والثقافةِ ، بدلاً من توجيه تبادلاتها مع الغرب وحده (البترول مقابل الطائرات فوقصوتية ، أسرع من الصوت ، والعربات الفخمة أو التفاهات الاخرى) .

إن فكرة المؤسسات الغربية المشتركة عرفت بداية تحقيقها :

ففي سنة ١٩٥٣ وقع تفاقٌ بين العربِ أوصى بتخفيضٍ تدريجي للتعرفات الجمركية ، وفي سنة ١٩٥٧ تَبَنّى المجلسُ الاقتصاديُ للجامعةِ العربيةِ ، اتفاقيةً تَنُصُّ على حزيةِ تنقل الأشخاص ، ورؤ وس الاموال والبضائع ، ووقّعها سنة ١٩٦٢ قسم من البلدان الاعضاء ، فقط ، فبقي تطبيقها محدوداً .

وفي سنة ١٩٦٤ ، استُعيضِ عن هذه الاتفاقية ، بقرارٍ يَنُصُّ على إنشاءِ سوقٍ عربيةٍ مشتركةٍ ، تُحَدُّ فيها التعرفةُ الجمركية وتكون منطقةً حرةً عربيةً . ولكن جميع هذه المحاولات الاقتصادية لم تدخل أبداً في حَيِّز التنفيذ . ولم يتحقق التكاملُ إلاّ على المستوى التجاري ، ولو أننا نُشاهدُ في الوقت الحاضر ـ وحتى على الصعيد التجاري نفسِه ـ أن التكامل التجاري يتزايد مع السوق العالمية أكثرَ من اتساع المبادلات التجارية بين البلاد العربية .

إن الجزائرَ ، اتخذت ـ منذ تحريرها ، ـ مثل ليبيا ـ مجموعةً من الاجراءات للفكاك من قبضةِ السوق العالميةِ في افريقيا . وكان احمد بن بيلا يرى في العالم العربي الاسلامي ، طليعةَ العالم الثالث الممكنة .

وفي سنة ١٩٧٤ ، أطلق هواري بومدين فكرة إنشاء « نظامٍ اقتصادي عالمي جديد » للوقوف في وجه التسلط الغربي .

واليوم يؤكد الرئيسُ الشاذلي بن جديد على بُعدِ الجزائر الافريقي . ويقترح على ألـ (OPEP) الدول المنتجة للنفط إنشاءَ مصرفٍ كبيرٍ لتطوير العالم الثالث ، ويُشرك الجزائرَ في تنفيذ مشاريع

ملموسة في مالي والنجير وموريتانيا وبنين والموزمبيق ، ويجعل من نفسه مدافعاً عن تعاونٍ جنوبيٍ ـ جنوبي يُتيح للبلدان الافريقية تسويةَ قسمٍ من مشاكلها الخاصةِ والتحررِ من تبعيةِ الغرب .

وهكـذا يُمكن لمصير العـالم ان يُغَيِّرَ اتجـاهَـه ، ويتَّجـه نحـو معنى الحياة . وإن أمام البلاد العربية الاسلاميـةِ ثلاثـين سنة من البتـرول يُمَكِّنُها من الوصول الى هذا الهـدف . إنها إذا فعلت ذلك تكـون قد قَدَّمت أسمى اسهام اسلامي في بناء مستقبـل الانسانيـة كلها . وفي هذه الفترة التي يَتَصَدَّعُ فيها التاريخُ ، تظهرُ بوضوحٍ صلةُ مشـاكلِ الاقتصادِ بالثقافةِ ، والسياسة بـالعقيدةِ ، كـما تظهـر في الوقت ذاتـه عماهةُ الغرب وعجزه عن طرح المشاكل الحقيقية .

إن هذا الغرب لم يستطع سنة ١٩٧٩ أن يدرك السبب الجوهري في التحول الذي حصل في ايران : التي قضى فيهـا الشعب الأعزل المسلح بعقيدته فقط ، على نظامٍ سياسي كان يفرض عليه نموذَج نمو وحياةِ الغرب ، رغم تجهيزاته العسكرية الهائلة ومسانـدة أكبر سلطة عسكـرية في العـالم . ثم فوجىء النـاس بفصـل الملائـين السـاخـر المتعـطش لسلطةٍ هم غيرُ جـديـرين بممـارستهـا ، فَأفقدوا الثـورةَ الاسلاميةَ قيمتها (كما شانَ ستالين ثورة اكتوبر ، أو الترمود وريـون ثورة ١٧٨٩) .

كتبت صحفيـة في مجلةٍ أسبوعية تَدَّعي أنها « يساريةٌ » ، سجينةُ التباسٍ بين العصرنة والتغريب ، كتبت تقول عن الاسلام : « هل يُمكن لستماية مليون إنسان في العالم أن يرفضوا ، بغتة ، الحداثة والتطورَ الاقتصادي والسيرَ على أخلاقِ وآداب الغرب ، (التغرب) الذي هو نتيجةٌ حتميةٌ لهما ؟ » .

وقبلها بعشر سنوات ، نشرت مجلةٌ كاثوليكيةٌ أسيرةُ ذات الـورطةِ الخاطئةِ وذاتِ الأفكار المسبقة عن الاسلام ـ نشرت مقالاً تؤكد فيـه « التعـارضَ بين الاسـلام الذي يعني الاستسـلام ، والتـطور الـذي يتطلب روحَ إبداعيةٍ قوية .

إننا نرمي من وراء هذا البحث الى غرض واحـدٍ هو تبـريدُ هـذا النوع من « الافكارِ المبتذلةِ » التي تُعيقُ كلَ تقدمٍ نحو المستقبل .

لقد بَيَّنَّا كيف أن المشاكل العمليـة لا يمكن أن تُحَلَّ عـلى الصعيد الاقتصـادي ، إلاَّ انطلاقـاً من رؤ يا شـاملةٍ ، لا تكون فيهـا التنميةُ والتخلفُ سوى مظهرين لحقيقةٍ واحدةٍ هي : سوءُ التطور في كوكبٍ تقوم عليه إدارةٌ مفجعةٌ .

إن المشاكل تطرح نفسَها (ويُمكِنُ حَلُّهـا) على صعيـد العقيدة ، شرط أن نقاوم من جهة ، مانويةَ « عالمٍ نصراني » رهيبةً ـ لا ترى في الاسلام إلاَّ نقيضَ وعدوَّ النصرانية ، والقوةَ التي تقف حاجـزاً دون تـطلعاتهـا الى العالميـة « والكاثـوليكية » وأن نقـاومَ من جهةٍ أخـرى تماميةً ، إسلاميةً تنسى ، أحيـاناً ، التعليمَ القـرآني الذي يجعـلُ من النصرانيةِ مرحلةً ومُركِّبَةً للعقيدة . لقد حان الوقتُ كي نُدركَ ونحيـا تلك الـرؤ يا المـوحِّدَةَ للتـاريخ الـذي كان ابـراهيم وموسى وعيسى ومحمدٌ فيه لحظاتِ تنبهٍ أو يقظة .

ولا يـوجد بـين النصرانيـة الأولى ـ أي نصرانيـةِ ما قبـل الهلنسة والـرومنة في نيقيـة ـ وبيننا ، سـوى نضالٍ مشتـركٍ ضد الهـرطقات ونزاعاتِ الاكليروس مع الأمبراطورية ، والمدرسية والحروب الصليبيةِ ومحاكم التفتيش ، كما يوجد القرآن وابن عربي والتصـوف والثقافـة الاسلامية العظيمة التي أنارت العالم طيلة القرون المظلمـة وأضاءتـه

بنـورٍ تنبئي وصـوفي رآه ونَقَلَهُ اليـنــا أمثـالُ (Joachim de Flore) والقديس
Saint jeon de la eroix, Maitre Eckhart, François d'Assise .

صحيـح أنَّ حَجْبَ هذا النـور قَـد تَمَّ بعـد دجـامي وابن خلدون ، ولكن ، هـل أنَّ الكنيسـةَ النصـرانيـة فعلت أفضـل من ذلـك ، في معاركِها الدائمةِ المتقهقرةِ ـ منذ الانبعـاث ـ أمام العلومِ واليقـظاتِ الاجتماعية والثورات ؟

ألا تجابهُنا اليومَ ، في داخل عقيدتِنا ، ذاتُ التماميات الـدينيةِ ، كما تجابهُنا ـ في الخارج ـ ذاتُ الـوضعياتِ العلمـوية والتكنـوقراطيـة وذاتُ الاغراءاتِ الفاسدةِ الناجمةِ عن تنميةٍ خاليةٍ من أيةِ غايةٍ إنسانية أو الٰهية ؟

ألم يَحِنِ الـوقت « للقـاء الاسـلام » كـما فعـل الاب (Michel Lelong) عندما ذكر في دراسة شاملةٍ له ،بأنه وجَدَ أن أوجُهَ الخلاف بين المسلمين والنصارى ، كانت أقل ، منها بين « مؤمنين تقليديين » من كلتا الديانتين ، متمسكين بصيغٍ قديمةٍ عن الحقيقة المكشوفـةِ ، ومؤمنين « جادين بالبحث » حريصين على إعادة قراءة الكتب المقدسة ومقابلتها مع الحياة .

هكـذا ، وبهذه الصـورة فقط ، نتمكن معاً من معـالجة المشـاكل الحقيقية : الدين والسياسة ، وملكوت الله ، وتحويل العالم ـ بعيـداً عن كـل النزاعـات التاريخيـة والفروقـات المذهبيـة ، لأنَّ هـذه هي « المشاكلُ الحقيقيةُ » التي نكتفي بتعدادِها ، في هذه الخاتمة ، بعـدما

بَيّنا ـ في هذه الدراسة عن الاسـلام الحي ـ أيَّ إسهامٍ يتمكّن هـذا الاسلامُ من تقديمه في سبيل حَلِّها .

وهـل أن المجتمع لا يُبْنَى إلاَّ عـلى علاقـاتِ القوةِ ـ بـين الأفـرادِ والجمـاعاتِ التي تُشَكِّلُهُ ـ التي تنتهي بـه الى العنفِ المتبادل وتـوازن الرعب وإلى « رَدْعٍ » هو في حقيقته اسمٌ آخر للابتزاز أو الخداع ؟

أم أن هذا المجتمع لا يصبح مجتمعاً انسانياً إلاَّ بالتعاقد ؟

أو أنه لا يكون إنسانياً حقاً (أي مجتمعاً يسكنه الالٰهي) إلاَّ بفعل إيمانٍ مشتركٍ يتجاوز المصالحَ الخاصةَ أو الجماعيةَ ؟ من أجلِ تحقيق نظامٍ لن يكون إنسانياً إلا إذا تجاوز الانسان ؟

عَلَّنا بهذه الوسيلةِ فقط ، نَصِلُ الى ما هو أبعدُ من شرائع الغاب القوميةِ والفرديةِ ، الى جمـاعة حقيقيـةٍ لا تستطيـع البقاء دون تسـامٍ وايمانٍ بهذا التسامي .

وعلينا ، إذن ، أن نعيد النـظر بمنهج تـربيتنا ـ رأسـا على عقب ـ حتى نفسح المجالَ لبروزتفكيرٍ في الغايات ، وتَدَخُّلِ المتسامي الممكنِ والعقيدةِ ، بدلاً من الوقوف في وجهيها . إن الثورة الاسلامية ، في أهدافها البعيدةِ (وأية ثـورة أو محافـظةٍ لا يمكن الحكم عليها إلاَّ من خلال أهدافِها ؟) تختلف جذرياً عن ثوراتنـا الغربيـة ، سواء كـانت الثورةَ الفرنسية البرجوازية سنة ١٧٨٩ ، أو ثورة اكتوبر الاشتـراكية سنة ١٩١٧ ، ففي هاتين الثورتين كان الهدفُ تحريـرَ القوى المنتجـةِ لتحقيقِ زيادةٍ في التنميةِ تَسُدُّ حاجاتِ الإنسانِ المادية . بيد أن الثورةَ الفرنسية سنة ١٧٨٩ اقتصرت على تنسيق البُنى السياسيـة مع نـظام اقتصادي تَحْكُمُهُ الطبقةُ التي تملك وسائلَ الانتاج .

أما في روسيا ، فلم يكن ، حين اندلاع ثورة سنة ١٩١٧ ، وسائلُ إنتاج ولا طبقةٌ قادرةٌ على وضع هذه الوسائل في خدمة الجماهير . ولذا كان الغرضُ من الثورة الروسيةِ الاستيلاءَ على السلطةِ السياسيةِ ، باسم طبقةٍ لم تكن موجودةً بعد ، أو أنها كانت موجودةً ، بشكل جنيني (لأن العمال سنة ١٩١٧ ، لم يكونوا يمثلون سوى ٣ ٪ من مجموع الجماهير المنتجة .) . فكان لزاماً على هذه الثورة ، فيما بعد ، خَلْقُ الشروط الاقتصادية للاشتراكية وتقنياتها وعلاقات إنتاجها ، وتوفيرُ الظروف لنمو (البروليتاريا) القادرةِ على استخدامها .

هذا ما كان يهدف اليه لينين وتروتسكي ، على الأقل .

إن الثورة الاسلامية في ايران ، رفضت نموذج التنمية الغربي ، واستبدادَ الداخلِ ، وتسلطيةَ (امبريالية) الخارج اللذين فَرَضَاْ هذا النموذجَ لصالحِ أقليةٍ ضئيلة :

كتب بني صدر ، عن الثورة الاسلامية ، فقال : « إنها رفضٌ للغرب ، لأنه يُمَثِّلُ الاخفاقَ على جميع المستويات » .

ولكن هذه الثورة ، في شكلها الإيجابي لم تكن تغييراً للعلاقات بين الطبقات ، بل تغييرٌ في هدف المجتمع ذاته ، ومحاولةٌ لبعث الحياة ، - في مرحلةٍ تاريخيةٍ جديدةٍ - في مبدأي التسامي والجماعة ، جماعة المدينة المنورة في عهد النبي (ص) .

وإن بني صدر والقذافي لم يقصدا « العودة الى الماضي » بل - على العكس - مواجهةَ المستقبل باسم رؤ يا للعالم مبرأةٍ من شوائب القرون الماضية .

وإنه لمُعَبِّرٌ أنَّ العقيد القذافي ، مثلاً ، لم يتردد في مجابهة بعض الفقهاء الليبيين التقليديين ، معتبراً ، مثلاً ، أنَّ السُّنَّةَ (أي أحاديث الرسول وتصرفاته) لا يمكن ان تُتخذ مصدراً للتشريع . وإنهُ لأكثر تعبيراً ، أيضاً ، أنه (أي القذافي) لم يستشهد ـ في كتاباته السياسية الموسومة كُلِها ، بالإيمان والإخلاص لمبادىء التسامي والجماعة ، ـ بأي نصٍ (حرفي للقرآن والسنة) كما ان الأجزاءَ الثلاثة من كتابه الاخضر لا تتضمن أي نص قرآني .

إن التأملَ في الثورة الاسلامية يتيح لنا التعرف على مفهوم كاملٍ عن الثورة التي ليست قلب بُنىً بل ، وفي ذات الوقت ، تحويلا للانسان .

إن مصدرَ كلِ فكرةٍ ثوريةٍ في أوروبا ، هو رؤيا تنبئية . كرؤية (Joachim de Flore) : الذي يبشر بمجتمع دون مِلكيةٍ ، ولا طبقاتٍ ، ولا دولةٍ ، ولا كنيسةٍ ، وإن تحقيقَ ملكوتِ الله على الأرض ، هو بالنسبةِ له المرحلةُ الاخيرةُ لتحقيق الثالوث ، التاريخي حيث تأتي مملكةُ الروح القدس ـ بعد مملكةِ الآب والشريعة ، ومملكةِ الإبن ووصايا المحبة ـ التي هي الكُلُ في الكُلِ .

إن هذه الرؤيا التنبئية للثورة كانت رؤية (Jan Hus)[٣٢٩] و (Thomas Munzer)[٣٣٠] في القرن السادس عشر ، اللذين عرف فيهما .(Engels)[٣٣١](في كتابه حروب الفلاحين (La guerre

---

(٣٢٩) Jean Hus : مصلح تشيكي (١٣٧٠ ـ ١٤١٥) حكم عليه مجمع قستانسا قتل حرقاً .

(٣٣٠) Thomas Munzer : مصلح الماني (١٤٨٩ ـ ١٥٢٥) قتل .

(٣٣١) Engels : (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥) ألماني اشتراكي .

des paysans) كما رأى ماركس نفسه ، أكملَ صورةٍ للشيوعية عرفَتْهَا أوروبا ، حتى منتصف القرن الثامن عشر (أي حتى صدور البيان الشيوعي سنة ١٨٤٨) .

فماذا نتعلمُ اليوم من الاسلام ـ على صعيد الثقافة ـ وماذا نتبادل معه ؟

علينا قبل كل شيء ـ وكما هو الحال على غير صعيد ـ أن نتعلَم الاسلامَ نفسهَ . وعقيدتَه التي تُلهِمُ وتُنَشّط وتُمِّدُ هذه الثقافة .

ولكي نعرفه ، ينبغي علينا ان نتخلى عن عصرنا الوسيط الثقافي والديني الذي يُصَوِّرُ لنا الاسلامَ كالمسيح الدجال ، وأن نَتَخَلَّى عن أضاليلِ عصر الأنوار العلموية والوضعية التي تَبْتُرُ من الواقع والفكر بُعْدَهُمَا في التسامي والتي كان الاسلامُ بالنسبة لها ، وكل عقيدةٍ اخرى ، أحَدَ وجوه الظلاميَّة .

نحن لا نجدُ في الاسلام تجاه النصرانية ، أي نظير لهذه التُهم النصرانية أو المضادة للنصرانيةِ ، ضدَّ الاسلام : إن الاسلام ، أصلاً ، يَذْكُرُ يسوع ومريم باحترامٍ عظيم .

يقول القرآن الكريم « وقفَّينا على آثارهم بعيسى بن مريم ، مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور . . . » (سورة المائدة ، آية ٤٦) .

كما يقول : « إنه المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ، ألقاها الى مريم ، وروح منه . . . » (سورة النساء آية ١٧١) .

وإن تراث التابعين من أكابر مفكري الاسلام (وحتى لدى الغزالي

الـذي كتب رداً لطيفاً عـلى النصـرانيـة ، وابن عـربي ، عـلى وجـه الخصـوص ، الذي اعتبـر يسوع في كتـأبه فصـوص الحكم ـ خـاتَمَ القداسةِ وأعلن عن عودة يسوع في رجعةٍ ثانية) إن هذا التراث يُعَبِّرُ عن هـذا الاحترام وهـذا الحب . إن النصرانيـةَ التي ينتقدُهـا النبيُ أحياناً هي نصرانية نصارى زمنه . فالأبُ ميشال حايك يوضح ذلك بقوله : إن البحث التاريخي عن أوضاع النصرانية السورية ـ العـربية بعد مجمع (Ephèse) سنة ٤٣٠ على وجه الخصوص يُفَسِّرُ مَوْقِفَ نبيِّ الاسلامِ ويُبَرِّئُـهُ من الأقوال النـابية التي نَسَبَهـاْ إليه أحفـادُ نصارى عصره » .

إن هذا التذكير لا يتضمن أيةَ تعميةٍ او تحيُّزٍ ديني . فلا شيء أكثر ضـرراً ـ لحوارٍ مخصبٍ متبـادلٍ ـ من « حُلمِ بعضِ الـدبلومـاسيـين الشرقيين والغربيين ، الخبيث : الداعي لدمج كل الاديان في عقيدةٍ واحدة » ، ولا ينبغي بالتالي حجبُ الفروق العميقةِ ولا تمويهُها :

فـالاسلامُ يـرفض الصليب : وهذا يُعَـدُّ ، بالنسبة للنصراني ، تغييراً كاملاً في فكرتـه عن الله الذي يجب ان يكـون بمقتضاهـا على صورة ملك .

والإسلامُ يرفض التجسيد : لأنه ، في تأكيده عـلى التسامي ، لا يُمكن أن يقبلَ الكلام عن « ابنٍ لله » وأقلّ منه عن « أمٍ لله » (رغم ان القرآن يؤكد بُتولَةَ مريم) .

والاسلامُ يرفض الثالوث : وحتى لو كان صحيحاً القول ، بـأن صياغات هذا المبدأ (أي مبدأ الثالـوث) المتأثـرة بالهلنسيـة ، كانت سببَ هذا الرفض ، فإن فرقـاً اساسيـاً ، يتجاوز الصيغـة والشكل ،

يبقى قائماً هو : أن للمحبة في الاسلام معنىً غيرُ معناها في النصرانية . إنها ليست في القرآن « اسماً » إلهياً (كالرحمة ، مثلاً ، التي هي أولُ الأسماء الحسنى) . ولذا فإن الله ، منذ البدء ، ليس « جماعةً » يحتوي في ذاته على « الغير » كغيرٍ هو ذاتُ ذاته .

إن هذه الفروق العميقة الجذرية ، ـ مع ما تقتضيه من طريقةٍ للحياة في الله ، في حياتنا الخاصة ـ لا تستطيع أن تُخْفِي عنا مركز وروح الاسلام الحية : أي التوحيد الذي ، تُسْتَبْعَدُ بأسمه كلُ وثنيةٍ ، هي ، بالنسبة للمسلم ، الخطيئةُ الاولى والأخيرة .

« لا آله الا الله » هذا التأكيدُ الاساسي في إعلان العقيدة الاسلامية ، ينفي كل أنواع الصنميات التي تكثر في مجتمعنا : صنمِ التنمية و « التقدم » وصنمِ التقنية العلموية ، وصنم الفردانية ، وصنم القومية ، وصنم سلطان السلاح والجيوش ، وكل محرماتها ورموزها « المقدسة » وطقوسها . إنه ، أي الاسلام ، يرفض كُلَّ ذلك ويقول ، لا « إله الا الله » . والله أكبر .

لقد عرفنا قدرةَ التغيير والتحرير التي يتضمنها هذا التأكيد على الايمانِ الذي هزم الجيوش ، بينما لم تَعُدْ عقيدتُنا ـ ومنذ زمن طويلٍ ـ تهزم كبيرَ شيء ، وبخاصةٍ صنميات الاسلحة والقوميات الفتاكة التي تميل كنائسُنا الى مباركتها .

إن الحوارَ مع الاسلام يستطيع ان يساعدنا على بعث الخميرةِ الحية لعقيدتنا الخاصة التي تستطيع زحزحةَ الجبالِ عن مواضعها ، وأن يُساعدنَا على أن لا نُضيع نكهتَه ، في الاخراج أو الكلام بدون طائل : الكلام الذي لا يُقَابلُ العُنْفَ إلَّا بالاخلاقية الثاغيةِ ، بدلاً

من قـوة اللاعنفِ الايجـابي المناضـلِ القـادرِ وحـده عـلى شـلٍّ ذراع العنيف .

من هـذا المنـطلق ، نستـطيـع قَلْبَ كـل اقتصـادنـا التنمـوي الانتحاري ، وكلَّ اشكال « الردع » المضللةِ التافهةِ ، وكل ما يُسْلِّمُ مستقبلنا للعنف والجوع وتاريخٍ فارغ من أي مضمون . وانطلاقاً من تغيير ثقافيٍ ممكنِ التحقيق ، ـ بفضل الحوار بـين الحضارات ، نتعلم بتنسيب ثقافتنا الغربية واكتشافَ ما هو حيٌّ في الثقافات غير الغربية ـ نتعلم ادراكَ وحياةَ علاقاتٍ جديدةٍ مع الطبيعة ، وسائرِ الناس ، ومع المستقبل والايمان .

فلنعمل على تحقيق حلم كبير : هو ان نرى الأممَ الغربية الكبيرة ـ ولا سيما تلك التي تَلَقَّحَ نبوغُها وموهبتُها بالثقافةِ والعقيدةِ الاسلامية ـ تنشىء ، في الأمكنـة التي ازدهرت فيهـا هذه الثقـافةُ ـ في قـرطبة ، وباليرم، وباريس ـ مراكزَ لقاءٍ وبحثٍ وإعدادٍ وإعلامٍ ضخم يتناولُ كُلَّ ما يمكن أَنْ يُقَدِّمَهُ الاسلامُ لنا اليوم ، وكلَّ ما يمكن أن يقوله لنا ، وكل ما عندنا أن نقوله له .

وعـلى صعيد عـلاقات الانسـان مع الـطبيعـة ، يجب أن نعكس الموقفَ الذي دَفَعَنَا لمعاملتها ـ منذ الانبعاث ـ بروحٍ عدائية غازيةٍ ، أنشأَتْ بيننا وبينها علاقاتِ مالكٍ بمملوك ، وسيدٍ بعبدٍ ، مالكٍ جشعٍ نَهِمٍ يريد استغلالَ ملكيته بلا حدود ، وسيدٍ شرسٍ غافلٍ لا يتردد في تشغيلِ عبدِه حتى ولو مات جراءَ هذا العمل .

إن التعاليم القرآنية تختلف كلياً عن ذلك : انها تساعدنا على إعادة اكتشـاف البُعْـدِ الكـوني في الإنسـان . لأن الانسـان ، كـما يقــول

الاسلامُ ، يحملُ في ذاته جميع درجات الوجـود في العالم ، وإن هـذا العالَمَ الصغيرَ هو وحدَه الذي قَبِلَ المسؤوليةَ الأرفع ، مسؤولية الوعي والإيمان : « إنَّا عرضنا الأمانةَ على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يَحْمِلنها وأشفقن منها وحَمَلَهَاْ الانسانُ إنه كان ظلوماً جهولاً (سورة الاحزاب ، آية ٧٢) .

ولذا ، ولو أنه بدا فيما بعد ظالماً وجهـولاً ، فقد كُلِّفَ بخـلافةِ الله على الأرضِ وجُعل مسؤولاً عنها ومكلفاً بالحفـاظ على توازن العالم وربطِ كلِّ كائنٍ بمصدره وغايتهِ ، في طبيعةٍ كُلُّ حقيقةٍ جزئيةٍ فيها « آية » على وجود ، الله .

إن هذا التفكير المشتـرك يتيح لنـا ، عمليا ، أن نـطرح مشاكـل الطاقة في حدود خيارٍ حضاري ذي دلالة : فبدلا من نزحِ مخزونات الطاقة النفطية ، بلا رويةٍ ولا اهتمامٍ بالأجيالِ المُقبلةِ ولا بالغايات الأخيـرةِ ، نتعلَّمُ التعامـلَ مع الـطاقات التي لا تنفـد ، طاقـةِ المياهِ والبحارِ والشمسِ والأرضِ والرياح .

وعلى صعيد الطب ، وبدلاً من أن نأخذ عنه مفهوماً تكنوقراطياً أو ميكانيكياً ، نكتشف أيضاً وحدة الانسان والطبيعـةِ وتوازنَ تبـادلاتها الغذائية ، والاتصالَ بالأرض والماء والهواء ، ونكتشف كذلك ، على طريقة الرازي أو ابنِ سينا ، وحدةَ الانسان مع ذاتهِ ووحدةَ الانسان الكلي الذي هو ليس ـ كما تصورناه منذ ديكارت ـ جسداً على صورةِ آلةٍ ، وروحاً منفصلةً عنه ، بل كُلاً قَطَعَ طِبُّهُ النفسجسماني او بعضُ بحوثِ العلاجِ النفسيِ فيه ، أولى خطواتهِ على طريقٍ شَقَّتْهَاْ حِكَمٌ وصُوفيَّاتٌ أُخْرى ، منذ زمنٍ طويل .

فإذا أشيعت هذه الطريقةُ الجديدةُ في تناول العلوم ـ في قرطبة وباليرم ومونبلييه ـ وأُخِذَ بمبدأ توحيدها لا بمبدأ توزيع الاختصاصات فيها ـ أمكن الوصول إلى نتائج مثمرةٍ متبادلةٍ .

وبعد ذلك كله ، تجبُ اعادةُ اكتشافِ فلسفةِ هذه الوحدةِ ، وحدةِ الحكمةِ مع العلومِ ، وحدةِ التفكيرِ في الغايات وإعداد الوسائلِ ، وأن نتعلم ، في مرحلةٍ جديدةٍ من الحياة ومن الانسان الذي يُفَكِّر فيها ، كيف نستخدمُ العقلَ استخداما كاملاً ، لا بالإنتقال من سبب الى آخر ، أو من شرطٍ الى شرط آخر ، بل من غايةٍ الى أُخرى ، ومن غاياتٍ دنيا الى غاياتٍ عليا ، حتى نصلَ في هذا الصعود الى نقطةٍ نعي فيها بأنه غير محدود ، وأن لا شيءَ يستطيع إعفاء الانسان من المسؤوليةِ والحريةِ المضنية المجيدةِ في اختيار غايتهِ النهائية .

لأن الله ، في الاسلام ، لا يتجلّى شخصياً بل بكلمته ، ولأن للانسان الحريةَ المطلقةَ بِرَفْضِها أو جَعْلِهَا مبدأً خالقاً لفعله .

وعلى صعيد آخر أيضاً ، في **Poitiers** : التي نعود اليها ، لا بسبب ذكرياتِ معركةٍ تافهةٍ أردنا أن نجعل منها رمزاً لمواجهة الشرق والغرب ، بل لأن (Guillaune de Poitiers) دوق (Aquitaine) أولَ شعرائِنا الجوالين الاوكستيانيين(*) (Occitans) حَمَلَ من الحروبِ الصليبية حنينَ شعراءِ الاسلام ، ولأن في « مجالس حُبٍّ » حفيدته (Abinor d'Aquitaine) كانت تختلط قصائدُ (Occitanie) ، في المساجلات الشعرية ، مع قصائد الأندلس المُسْلِمَةِ (وما وراءها من قصائدِ الجزيرة العربيةِ وفارس ، وقصائد الحب العذري « والحبِ

---

* هؤلاء كان يطلق عليهم أيضاً الشعراء المداحون .

البغـدادي » ، وقصـائـدِ « الحب الغـزلي » التي أَدْخَـلَ ابنُ حـزمٍ القـرطبي بعـد ابن داود البغـدادي ، مـواضيعَهـا عبـر جبـال (Pyreneés) ، ويقتضي ، بالتالي ، إنشـاءُ مركـزٍ جديـد للشعر في (Poitiers) يلتقي فيه الشعرِ التنبئي للشعراءِ الفلسطينيين ومجموعِ العالم الاسلامي والعالم الثالث ، مع شعراء فـرانسا والغـربِ كله ، الذين يَحْيَون على أَملٍ ظهورِ فنٍ يَحْمِلُ ، مرةً أخرى ، شيئاً جديداً ذا صورةٍ انسانية .

إنَّ هذا اللقاء مع الفكر التنبئي يستطيعُ ان يَبْعَثَ إيماناً جديداً في الإبداع والحب ، ويُذلِّلَ كلَّ العقبات التي يضعها نموذجُ تربيتنا الغربي وثقـافتنا الـوضعيةُ التقنيـةُ التي تدعمـه ، في سبيل الحبِ والابـداعِ والإيمان .

كتب محمد إقبال ، أكبرُ شاعرٍ اسلامي في هذا القرن ، يقول : إن الهدف الرئيسي ، في القرآن ، هو إيقاظُ وعيٍ أرفَعَ في الانسـانِ عن علاقاتهِ العديدةِ مع اللهِ والكون » .

فهرس

صمم الغلاف
مصعب شقير

ان الغرب رفض ، منذ ثلاثة عشر قرنا ، هذا التراث الثالث : التراث العربي الاسلامي الذي كان باستطاعته ولا يزال - ليس الاصلاحَ بينه وبين حِكَمِ العالم فحسب - بل مساعدته على التعرف ، على الأبعاد الانسانيةِ والالهية التي انفصل عنها ، عندما نمّى ، أحادياً ، ارادته للسيطرة على الطبيعة والناس .

ان الاسلام - والفرض الجوهري من هذا المؤلف هو إظهار ذلك - لم يكمل ويخصب وينشر أقدم وأرفع الحضارات فحسب - كحضارة الصين والهند وفارس واليونان والاسكندرية وبيزنطة - بل حمل الى امبرطوريات مفككة وحضارات مائتة ، روح حياة جماعية جديدة ، وأعاد الى الناس ومجتمعاتهم أبعادهم الانسانية والالهية ، من تسام وتوحّد ، كما أعاد - انطلاقا من هذه العقيدة البسيطة ، المتينة - خميرة تجديد العلوم والفنون والحكمة التنبؤية والقوانين .



الثـ